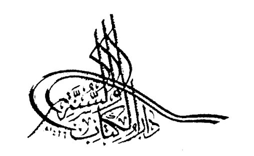


الدعوة إلى الله
في أقطار مختلفة



الطبعة الأولى ١٩/٢/٢٠٠٧

لـ دار الكتاب والسنة

رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية

رقم الإيداع ٢٣٤٧٥/ ٢٠٠٥

دار الكتاب والسنة

للطباعة والنشر والتوزيع

عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .

جوال : ٠١٠٤٦٧١٤٣٩ – ٠١٠١٠٢١١٨٧

موقعنا على الإنترنت

www.dar-ketabsunah.com

للتواصل عبر الماسنجر

Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com

Dar_alktabwalsunnah@yahoo.com

البـريد الإلكتـروني

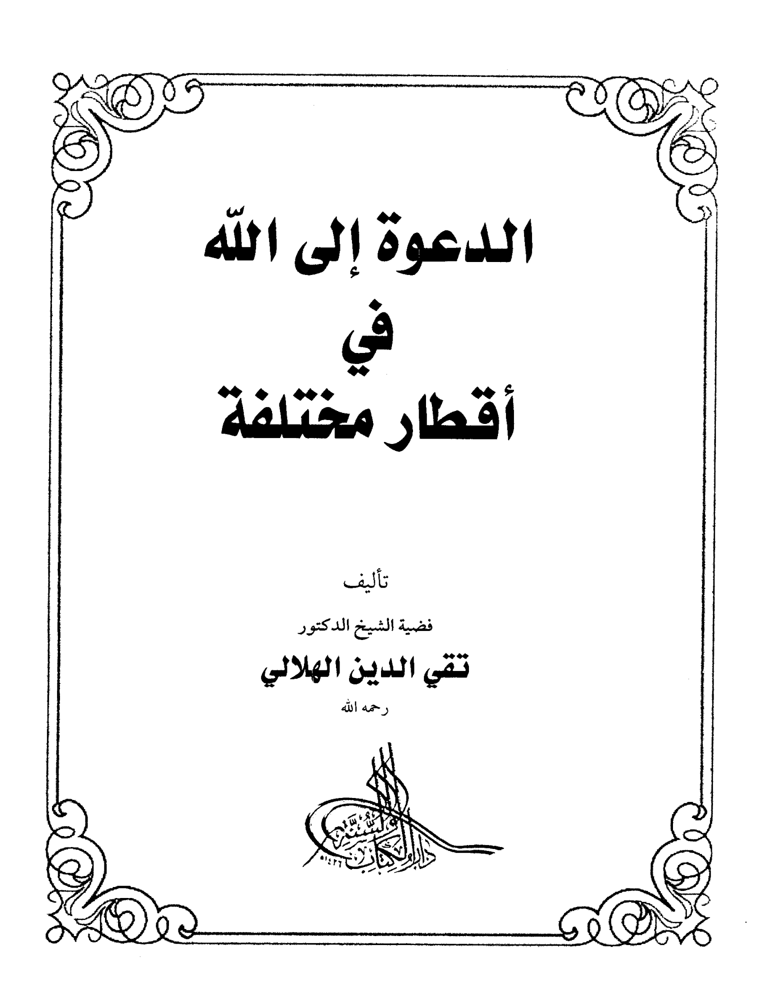
marketing@dar-ketabsunah.com

إدارة التسويق

production@dar-ketabsunah.com

إدارة الإنتاج

Admin@dar-ketabsunah.com



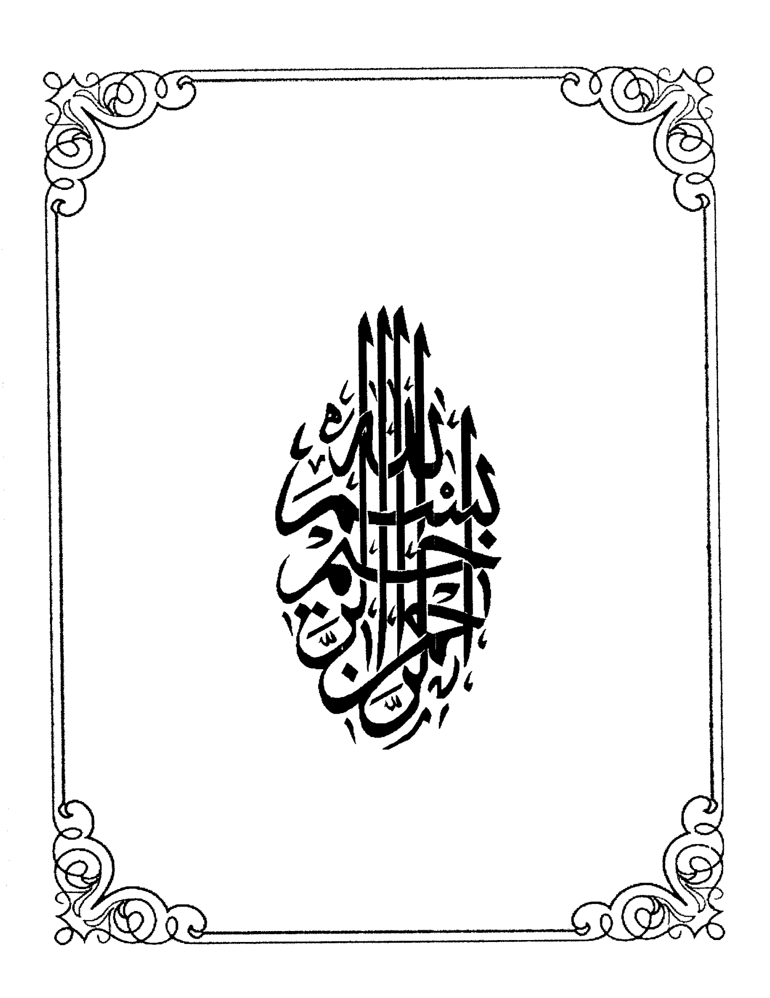
الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة

تأليف

فضية الشيخ الدكتور

تقي الدين الهلالي

رحمه الله



نبذة عن المؤلف

نسبه: هو محمد تقي الدين بن عبدالقادر الهلالي، نسبة إلى هلال الجد الحادي عشر، ابن محمد المعروف بـ: «بابا بن عبدالقادر بن الطيب بن أحمد بن عبدالقادر ابن محمد بن عبدالنور بن عبدالقادر بن هلال بن محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكي بن إسماعيل بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبدالقوي بن عبدالرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ».

فهو كما ترى ينتهي نسبه - رضي الله عنه - إلى الحسين بن علي، ذكره غير واحد من المؤرخين، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سِجِلْماسَة سنة ١٣١١هـ.

نشأته: ولد - أطال الله بقاءه - سنة ١٣١١هـ بالفيضة القديمة، وتسمى «الفرخ» على بضعة أميال من الريصاني، والأصل قرية أولاد عبدالقادر في «الغرفة» من أرض سجلماسة المعروفة بتافيلالت من المملكة المغربية.

دراسته: قرأ القرآن على جده ووالده، فحفظه وهو ابن اثنتي عَشْرة سنة، وكان والده ينوي أن يبعثه إلى مقرئ ذلك العصر: الشيخ أحمد بن صالح؛ ليقرأ عليه ختمة التجويد، كما كان عازمًا على السفر به إلى القرويين بفاس لطلب العلم هناك، فعاجلته المنية وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره، فقامت بذلك أمه، فقرأ على الشيخ المذكور القرآنَ من أوله إلى آخره بالتجويد، ثم بقي فترة بدون تعليم. ولما بلغ سن الرشد، سافر إلى زاوية آيات إسحاق بقبيلة آيات أخلف، وبقي هناك سنتين، ثم عاد إلى تافيلالت، ثم سافر إلى الجزائر وأقام بقبيلة أحميان، ولم يكن يخطر له التعلم ببال إلى أن أُرِي النبي ﷺ في المنام، وقال له: «اقرأ العلم»؛ فصار عنده عزم شديد عَلَى طلب العلم، فتوجَّه إلى الرجل الصالح «الشيخ محمد سيدي ابن حبيب الله الشنقيطي، فقصَّ عليه رؤياه، فأعطاه نسخة من مختصر الشيخ خليل، وقال له: ابدأ في حفظ هذا الكتاب؛ وكلما اجتمعنا، شرحت لك بعضه،

فاستمرّ يحفظ، وبعد مدة ذهب إليه وأقام عنده يتعلم الفقه والنحو حتى فتح الله عليه في علم النحو، وصار الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وإلى أن مات الشيخ الشنقيطي سنة ١٣٣٨هـ، ثم توجَّه إلى مدينة وجدة، فبقي مدة عند العالم الأديب السيد أحمد السكيرج يعلم ابنه الأستاذ عبدالكريم وابن أخيه عبدالسلام، ثم توجَّه إلى فاس، وحضر في القرويين دروس بعض الأساتذة، وعلى رأسهم العالم المحقق المصلح السيد الفاطمي الشرادي رحمة الله عليه، ومن أجلّ من لقي من علماء فاس وأكثرهم تأثيرًا في أحواله واتجاهه في طلب علم الكتاب والسنة، العالم المحقق الشيخ محمد بن العربي العلوي - رحمة الله عليه - وجرت بينهما مناظرة[١]، فحصل على إجازة من جامع القرويين عادلتها جامعة «بون» الألمانية بالشهادة الثانوية «الباكلورية».

وفي آخر سنة ١٣٤٠هـ سافر إلى القاهرة وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، وخلال ذلك اجتمع بعدد كبير من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام المصلح السلفي الطائر الصيت الأستاذ رشيد رضا صاحب «المنار».

وكانت له رغبة في طلب الحديث، فعزم على السفر إلى الهند لعلمه أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فسافر لأداء فريضة الحج ومنها إلى الهند، فمكث هناك يدرس الحديث ويدرس الأدب العربي إلى أن أخذ العلم والإجازة عن شيخه العلامة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم «المباركفوري» صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، وله في هذا الكتاب قصيدة أثبتها المؤلف في آخر المجلد الرابع.

وأجازه كذلك الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل «بهربال»، ثم رحل من الهند سنة ١٣٤٣هـ إلى العراق، وأثناء إقامته بمدينة البصرة التقى بالعالم السلفي الأديب المحدث المحقق الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي، فزوَّجه ابنته، وانتفع كثيرًا بمجالسته ومذاكرته، وبعد ثلاث سنوات توجَّه إلى المملكة العربية السعودية فأقام بها في ضيافة الملك عبدالعزيز، ثم عُيِّن مراقبًا للمدرسين مدة سنتين، ثم مدرِّسًا في المسجد الحرام والمعهد السعودي لمدة سنة،

---

(١) انظر: كتاب الهدية الهادية، للمؤلف.

وبعدها سافر مرة أخرى إلى الهند، فعُيِّن رئيسًا لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء «بلكنو» مدة ثلاث سنوات تعلم خلالها اللغة الإنجليزية، ثم رجع إلى البصرة، وبعد ثلاث سنوات سافر إلى «جنيف»، ونزل عند الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وكانت عنده رغبة لإتمام الدراسة الجامعية، فكتب الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - إلى أحد أصدقائه بألمانيا يقول: عندي شاب مغربي أديب، ما دخل ألمانيا مثله في العلم، يريد أن يدرس في إحدي الجامعات، فاسْعَ أن تجدوا له مكانًا لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة، فجاء الجواب بالقبول، وعُيِّن محاضرًا في جامعة «بون»، وفي ظرف سنة تعلَّم اللغة الألمانية، وحصل على دبلوم فيها، ثم صار طالبًا في الجامعة.

وفي أثناء إقامته بألمانيا ترجم مع الأستاذ «باول كالي» مدير معهد العلوم الشرقية في جامعة «بون» كتابين عربيين: أحدهما: كتاب «البلدان» في الجغرافية العالمية للعلامة محمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في آخر القرن الثالث الهجري. والثاني: كتاب «طيف الخيال» للعلامة محمد بن دنيال الكحال الموصلي نزيل مصر.

وأثناء إقامته في ألمانيا عُيِّنَ مشرفًا ومُراجعًا لُغَويًا بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية، فوجدها فرصة سانحة لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب من الفرنسيين والإنجليز، وألقى من على منبر تلك الإذاعة خطبًا كانت على المستعمرين خُطُوبًا، وكان بسببها أن نفته فرنسا من المغرب نفيًا رسميًا مع أنه كان غائبًا عنه، كما عملت بريطانيا على نزع جنسيته العراقية التي كان تجنَّس بها سنة ١٩٣٤م.

وفي سنة ١٩٤٠م قدَّم رسالة دكتوراه، وهي ترجمة «مقدمة كتاب الجماهير في الجواهير» (للبيروني) مع التعليق عليها، وهكذا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤١، ثم بعد الحرب العالمية الثانية عُيِّنَ أستاذًا بجامعة بغداد، وفي سنة ١٩٤٢م سافر إلى تطوان بمساعدة الأستاذ المجاهد عبدالخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطني إذ ذاك، فبقي إلى أن كاد له الأسبان، ونزعوا منه جوازه بدعوى أنه مزوَّر، وفي سنة ١٩٥٩م عُيِّنَ أستاذًا بجامعة محمد الخامس بالرباط، ثم بفرعها بفاس إلى سنة ١٣٦٨هـ، حيث سافر مرة أخرى إلى ألمانيا، ومنها إلى الأراضي القطبية.

وفي سنة ١٣٨٨هـ توجَّه إلى الحج، وفي منى اجتمع بالعالم الورع الذي يَقِلُّ نظيره في هذا العصر؛ ألا وهو الأستاذ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، فقال

له: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فقال: وأنا مستعد لخدمتها. فكتب الشيخ عبدالعزيز وطلبه من وزارة التعليم المغربية، فالتحق أستاذًا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وبقي بها إلى سنة ١٣٩٤هـ، حيث طلب منه إخوانه في المغرب أن يستقر في المغرب للدعوة إلى الله تعالى، والمحافظة على العقيدة السلفية، فعرض الأمر على رئيس الجامعة الإسلامية آنذاك الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - رحمه الله - فوافق عليه، ورجع إلى المغرب، وسكن مكناس، فصار يعطي الدروس بمساجدها، وينتقل بين مساجد مدن وقرى المملكة المغربية، فثقل ذلك على المبتدعة وأغصهم بريقه، فوشَوْا به، وطلبوا منعه وتوقيفه، ولو آمنوا بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩]، لكان خيرًا لهم. وللدكتور محمد تقي الدين مواقف جليلة في الدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الدعوة إليه فرضًا على كل من استطاع إليه سبيلًا، وأوعد باللعنة من كتم العلم واشترى به ثمنًا قليلًا. أشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وأتخذه وكيلًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي فضله على خلقه تفضيلًا.

اللهم، صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا يدعون إلى الله ويسبِّحونه بكرة وأصيلًا.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى الكبير المتعالي، محمد تقي الدين بن عبدالقادر الهلالي: سألني خلق كثير من الإخوان في المشرق والمغرب - أخصُّ بالذكر منهم الأخ الداعي إلى الله على بصيرة الدكتور وجيهًا زين العابدين - أن أؤلِّف كتابًا يشتمل على سيرتي وما لقيته في حياتي في الحل والترحال، وما جرى علي في رحلاتي الكثيرة من حوادث وأخبار، وخاصة في الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة في المشرق والمغرب، وما صادفته في ذلك من نجاح وضده، وما جرى بيني وبين علماء تلك الأقطار من مباحثات ومحاورات. ولما رأيت ذكر ذلك كله بالتفصيل - بل ذكر ما بقي في ذاكرتي ولم يعفه النسيان - يحتاج إلى وقت طويل، ونفقات كثيرة، في طبعه ونشره؛ اقتصرت على ما يتعلَّق بالدعوة إلى الله تعالى في أقطار مختلفة من سنة ١٣٤٠ إلى ١٣٩١ للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، على أمل أن أجد وقتًا وتوفيقًا من الله تعالى لتأليف كتاب في أخبار الشطر الأخير الذي لا يتعلق بالدعوة، كالحوادث السياسية، والشدائد والمحن التي وقعت لي في أسفاري. وستجد أيها القارئ في أثناء هذا الكتاب قصائد كثيرة هجوت بها بعض المعارضين للدعوة إلى - توحيد الله - واتباع نبيه الكريم، وما أردت بذلك إلا الانتصار للحق، ولم أسمِّ أحدًا. وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: **«اهجهم وروح القدس معك»**.

ولما أنشد عبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ قوله:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سَبِيلِهِ ... اليَومَ نضرِبُكُمْ على تَنزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ

قال له عمر - رضي الله عنه -: يا بن رواحة، بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر! فقال رسول الله ﷺ: «**خلِّ عنه يا عمر، فلهن أسرع فيهم من نضح النبل**». أخرجه الترمذي وصححه.

وقيل: إن الذي أنشد ذلك الشعر هو كعب بن مالك. (راجع فتح الباري في شرح أحاديث عمرة القضاء).

فأرجو أن أكون سالكًا هذه السبيل في هجو أولئك القوم؛ والأعمال بالنيات، ولا أدعي العصمة وأرجو الله أن يغفر لي كل خطأ وخطل؛ فالجواد قد يكبو؛ والسيف قد ينبو والكمال لله سبحانه.

فَإِن تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الخَلَلا ... فَجَلَّ مَنْ لا عَيْبَ فِيهِ وَعَلا

وأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب كل من قرأه أو أعان على نشره بقليل أو كثير من أنصار السنة المحمدية. وأما غيرهم من أعدائها، فلا نبالي بهم، وهم بلا شك منهزمون، وإلى الخسران في الدنيا والآخرة صائرون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].



الدعوة إلى الله في الإسكندرية

أيها الداعي قدم مراد الله يقدم الله مرادك. ما من داع يدعو إلى أمر بجد وإخلاص إلا ويحصل على شيء ما، سواء أكان محقًّا أم مبطلًا، لكن المبطل عاقبته خسران عاجل أو آجل، والمحق له العاقبة الحسنى في العاجل والآجل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] كل من قرأ تاريخ الدعوات الباطلة من دعوات الخوارج والشيعة والباطنية وما تفرع منها، يعلم يقينًا صحَّة ما أشرت إليه أعلاه، ولا بد أن يكون الداعي - مع إخلاصه - عنده شيء من العلم بما يدعو إليه، وشيء من العلم بقواعد الدعوة.

قد فصلت القول في سبب خروجي من الطريقة التجانية، ودخولي في السلفية الحنيفية ملة إبراهيم وخير أبنائه محمد رسول الله ﷺ، وهي الإسلام الطاهر، شرحت ذلك في كتاب (الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية)، وقد أمر صاحب السماحة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز -أمتع الله المسلمين بطول بقائه- بطبع عشرة آلاف نسخة من هذا الكتاب، نسأل الله أن يجزيه خيرًا، وينفع بهذا الكتاب نفعًا عظيمًا.

وبعدما خرجت من الطريقة التجانية ودخلت في الطريقة الحنيفية توجهت إلى مصر ولقيت إمام الدعوة في ذلك الزمان: السيد محمد رشيد رضا - رحمة الله عليه - ولقيت أكثر الدعاة إلى السلفية في مصر كالشيخ محمد الرمالي بالقاهرة والشيخ حسن عبدالرحمن في مزرعته بين دمنهور والإسكندرية والشيخ عبدالظاهر أبي السمح والشيخ محمد أبي زيد في دمنهور والشيخ حامد الفقي بالقاهرة والش محمد بن عبدالرزاق حمزة بكفر عامر والشيخ الألمعي عبدالعزيز الخولي بالقاهرة.

ولما وصلت إلى الإسكندرية وإلى رملها بشاطئ بحرها لقيت أهل بيت (لا أقول أسرة ولا عائلة) من بلادنا سِجِلْماسَة بالمغرب الأقصى مستوطنين بالإسكندرية ففرحوا بي فرحًا عظيمًا لأنهم يعرفون والدي - وكان من علماء بلادنا - ويجلونه، فأكرموني لأجل ذلك، ووجدتهم تجانيين (طوخ) يعني غارقين في الطريقة سكارى بنشوتها. وكلمة (طوخ) فارسية فيما أظن، تستعمل في العراق بالمعنى المتقدم،

فقلت في نفسي: يجب علي أن أنقذهم من هذه الطريقة كما أنقذني الله منها، ولكن خيل لي - وأنا في أوائل الشباب - أنني إذا صرحت لهم بانتقاد الطريقة سينفرون ولا يقبلون الدعوة، فأردت أن أخادعهم؛ فأظهرت لهم أني لا أزال تجانيًا.

ولما أخذت أتلطف في انتقاد بعض الأمور كالاجتماع لذكر الوظيفة جماعة بلسان واحد، فجاء رجل مصري من تجانيي الإسكندرية وقال لهم: (يا إخواننا أنا الراكل ده بعيني شفته يَخُشُّ ويخرك في مسكد الوهابية بالرمل، والوهابية ما بيخلُّوا حدّ يَخُشُّ في مسكدهم إلا إذا كان منهم) معناه بعيني رأيت هذا الرجل - يعني كاتب المقال - يدخل ويخرج في مسجد الوهابية برمل الإسكندرية، ومن عادة الوهابيين أنهم لا يتركون أحدًا يدخل مسجدهم إلا إذا كان منهم، ويعني بالمسجد مسجد أبي هاشم المهندس - رحمة الله عليه - وكان قد خصص جزءًا من أرضه وبنى فيه مسجدًا صغيرًا للشيخ عبدالظاهر أبي السمح وجماعة السلفيين بالرمل، وسبب إقامتي في هذا المسجد مدة شهرين ما يتلو.



امتحان الدعاة إلى الله

اعلم أن الدعاة إلى الله يمتحنون على قدر إيمانهم وصبرهم وتجلدهم، ومنهم الشيخ عبدالظاهر أبو السمح - رحمه الله - فإنه كان يدعو إلى الله برمل الإسكندرية، وقد أنكر دعوته جميع من ينتسب إلى العلم في رمل الإسكندرية وفي الإسكندرية نفسها، وكان معلمًا لبنات محمد باشا الديب - بالدال المهملة كما ينطق به في العامية المصرية - ويدعو إلى الله بإلقاء الدروس في المسجد المذكور وصلاة الجمعة لوجه الله فمنع من ذلك؛ فدعاني لأن أنوب عنه. وعما قليل يأتيك سبب المنع، أي: بعد أن أتم قصتي مع المغاربة.

فلما سمع المغاربة من ذلك الرجل المصري التجاني ذلك الكلام غضبوا عليه غضبة مغربية فقالوا له: إنكم - معشر المصريين - عودتمونا سماع ما نكره في كل عزيز لدينا فلا يطيب لكم عيش إلا إذا أسأتم إلينا، نحن نعرف هذا الشاب وأباه وأمه وأهل بيته وهو لم يقدم من المغرب إلا منذ وقت قصير ونحن في المغرب ليس عندنا وهَّابيون فمن أين تعلم الوهابية. وصاحوا عليه صياحًا منكرًا.

وكان الرجل داهية فلم يغضب بل قابل غضبهم بحلم وسعة صدر وقال لهم: (يا إخواننا يا مغاربة ما تزعلوش المسألة بسيطة عندنا الشيخ محمد بن مبارك السوسي ولا تشكون في علمه وفضله، وأنه أكبر عالم تكاني في مصر نكتب له ونسأله عن الشاب ده إذا قال هو تكاني صحيح أنا أكي وأبوس روسكم وركليكم كمان، وأطلب منكم المسامحة وإذا قال غير ذلك تعرفوا أن الحق عليكم) معناه أن الشيخ محمد بن مبارك المغربي هو شيخنا في الطريقة التجانية وهو يعرف ضيفكم هذا فهلم نتحاكم إليه؛ فإن حكم بأن محمد تقي الدين الهلالي ضيفكم العزيز هو تجاني حقًّا اعتذرنا إليكم وقبلنا رءوسكم وأرجلكم.

وكان المغاربة قد هددوا المصريين بأنهم يفترقون عنهم ويتخذون زاوية خاصة لأنفسهم وأكون أنا مقدمهم، ففرحت أنا بهذا السراب الذي خيل لي أنه شراب ولكن الرجل المصري بدهائه أحبط عملي، ومن ذلك الحين علمت يقينًا أنني أخفقت في مسعاي؛ لأن الشيخ السوسي المذكور يعلم يقينًا أنني من المنتقدين

للطريقة التجانية وسبب ذلك: أن أخصَّ مريديه - وهو محمد الدادسي - كان يغسل رأسي في بيته بالقاهرة فقال لي: هنيئًا لكم معشر أهل البيت فإن الجنة مضمونة لكم على أي حال كنتم فقلت ومن ضمنها لنا؟ قال: ألم تطلع على ما ذكره الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ [الأحزاب: ٣٣] فقلت: قال وماذا قال؟ فقال الشيخ الأكبر: «إن أبناء فاطمة خلقهم الله طاهرين طهارة عينية فلا تصدر منهم المعاصي ألبتة، وكل ما نراه في الظاهر من صدور المعاصي منهم يجب أن نكذب أعيننا ونصدق الله تعالى».

فقلت: وهل ابن عربي معصوم من الخطأ؟ فقال لي: إن سيدنا الشيخ التجاني نقل عنه ذلك وصدَّقه. فقلت: وهل الشيخ التجاني معصوم من الخطأ؟ فأصابه حزن عظيم ظهر في وجهه واختصر غسل رأسي وسكت على مضض، فعلمت أنه لا بد أن يوصل ذلك إلى شيخه.

وغبت عن الإسكندرية أيامًا ثم رجعت (لأجس) النبض وليس لي إلا أمل ضئيل. فكظم المغاربة ما في أنفسهم، ولم يظهروا لي شيئًا ودعينا إلى العشاء عند بعض التجانيين عند المغاربة الآخرين فجرى ذكر الملك حسين بن علي ملك مكة فانتقدت أنا تحالفه مع الإنكليز والفرنسيين وإدخال جيوشهم إلى قرب الحرم المكي، فانفجر أحد التجانيين غيظًا، وقال: «صدق من قال: مثل العالم الذي لا يعمل بعلمه كجلد كلب مليء عسلًا» يعني أن الملك حسينًا وهو من أهل البيت لا يصدر عنه إلا الطاعات فانتقادي له جهل وسفاهة؛ لأن فيه إنكار على شيخ الطريقة. وسكت أصحابي ولم يدافعوا عني.

فلما خرجنا جذبني أحد المغاربة من التجانيين المعتدلين، وقال لي: ألم يبلغك ما أجاب به الشيخ السوسي؟ فقلت: لا. أفدني يرحمك الله، فقال: إنه أجاب التجانيين فقال في جوابه: إن محمدًا تقي الدين الهلالي من آل البيت، وقد أوصانا سيدنا - رضي الله عنه - التجاني بإكرام أهل البيت، فأكرموه ولا تأخذوا عنه شيئًا من أمور الدين. فعلمت أن القضية قد انتهت بالإخفاق كما كنت أتوقع، وعقدت العزم على أن لا أداهن ولا أداجي في دين الله ما دمت حيًا، بل أقول الحق من أول وهلة، للربح أو للخسارة، وما لقيت إلا الربح إلى حد الآن وسيأتيك الدليل فلا تعجل.

سبب منع أبي السمح من الصلاة والوعظ في مسجد أبي هاشم برمل الإسكندرية

تقدم أن المنتسبين إلى العلم في مدينة الإسكندرية ورملها أنكروا على الشيخ أبي السمح دعوته إلى السلفية، وسمَّوها وهَّابية، وكادوا له كيدًا عظيمًا واتهموه بتهم هائلة في ذلك الزمان: منها أنه يقول: إن العصا خير من النبي ﷺ لأن العصا تنفع في الدنيا والنبي ﷺ لا ينفع فلا يشفي مريضًا من مرضه ولا يغني فقيرًا من فقره ولا ينقذ عانيًا من سجنه ولا يغيث من استغاث به. وهذا عند عباد القبور طعن عظيم في مقام النبوة. ومنها: أنه صلى صلاة الجمعة في أحد المساجد ووجد العلمين منتصبين عن يمين المنبر وشماله فألقاهما على الأرض وقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. ومنها: أنه يدعو إلى مذهب خامس، ولا يؤمن بالمذاهب الأربعة، ومنها أنه أحدث فتنة في رمل الإسكندرية ففرق بين الأخ وأخيه والأب وابنه والقريب وقريبه، وكتبوا بذلك إلى محافظ الإسكندرية كتابًا يطلبون منه أن يمنعه من هذه الدعوة التي يعدونها من أعظم الفساد.

وفي الوقت نفسه دبروا له مكيدة أخرى، فدعوه إلى المناظرة في أحد المساجد وأحضروا رجلًا من العوام وقالوا له: أحضر معك عصا، وإذا أشرنا إليك فاضربه، فلما حمي وطيس الجدل بينهم وبينه في مسألة الاستغاثة بالنبي ﷺ وألجَؤوه أن يقول: إن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وإنما هو بشير ونذير، وأشاروا إلى الرجل فضربه في المسجد.

وبعد قليل جاء أمر محافظ الإسكندرية بمنعه من الصلاة والوعظ وسد المسجد، فأرسل إلي يدعوني دعوة عاجلة فحضرت في الليلة التي في غدها يسد المسجد ففتحته وأخذت أصلي فيه وأعظ الإخوان السلفيين فجاءت الشرطة ليسدوا المسجد فوجدوني فقالوا: من أنت؟ أنت أبو السمح؟ قلت: أنا محمد تقي الدين بن عبدالقادر الهلالي المغربي فتوقفوا ورجعوا إلى المحافظ وأخبروه، واختفى أبو السمح فصار لا يأتي المسجد أصلًا فأمرهم المحافظ أن يتركوا المسجد ولا يسدوه.

فاشتد غيظ أعداء السلفية من المنتسبين إلى العلم وأعوانهم، فكتبوا في هذه المرة إلى الملك فؤاد، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، وقالوا للملك مثل ما قالوا للمحافظ قبلُ وزادوا على ذلك أنه ثبت صدق اتهامهم لأبي السمح عند محافظ الإسكندرية؛ فأمر بطرده وسد المسجد فأتى بمغربي له حماية فرنسية فناب عنه في المسجد فلم ينفذ ما أمر به المحافظ، فبعث الملك بشكواهم إلى محافظ الإسكندرية نفسه، فلما قرأها غضب عليهم غضبًا شديدًا لأمرين: أحدهما: أنهم لم يكتفوا به فتخطوه وكتبوا إلى الملك، والثاني أن طعنهم في عمل هذا المغربي يفتح بابًا على الحكومة المصرية من النزاع مع دولة تتمتع بالامتيازات الأجنبية. والمطلعون على تاريخ مصر يعرفون معنى هذه الكلمة، فإن مقتضى الامتيازات الأجنبية يقضي على الحكومة المصرية - وكل حكومة تنكب بمثل هذه النكبة - أن ترد كل نزاع يقع بينها وبين أي شخص من رعايا الدولة صاحبة الامتياز إلى سفارة هذه الدولة، فتحكم السفارة بدون شك على المصري بأنه هو الظالم وتطلب من الحكومة المصرية أن تُنزل به أشد العقاب، وعليه أن يتحمل ويصبر على ظلمين: الظلم الأول: من الشخص التابع للسفارة الأجنبية. والظلم الثاني من السفارة نفسها، ولذلك لا يحب أي مصري كيفما كانت منزلته أن يدخل في نزاع مع أي سفارة، ومن أجل ذلك دعا المحافظ الموقعين على العريضة المرفوعة إلى الملك فأُدخلوا عليه واحدًا بعد واحد، وأخذ يسألهم، فقال للأول: هذا توقيعك؟ فقال: نعم، قال: وقع مرة أخرى، فوقع ثم أخرج إلى مكان لا يرى فيه أحدًا من أصحابه، وهكذا فعل بالثاني والثالث إلى آخرهم، ثم جمعهم وعبس وبسر عليهم وقال لهم: كتبتم إلي تزعمون أن الشيخ عبدالظاهر أبا السمح وهَّابي وأنه فعل كيت وكيت فصدقتكم وأمرت بمنعه من الصلاة والوعظ، ولم يكفكم ذلك حتى تخطيتموني وارتقيتم مرتقى صعبًا فكتبتم إلى الملك تعرضون مزاعمكم عليه وقلتم في عريضتكم: إنكم تخافون أن تحدث فتنة في رمل الإسكندرية تسفك فيها الدماء، فلله دركم من حفظة ساهرين على الأمن! فهل المحافظة على الأمن من اختصاصكم؟! ومن وكل إليكم ذلك؟! بعضكم إمام مسجد وبعضكم مأذون في المحكمة وبعضكم مدرس أو واعظ أو خطيب فكيف ارتقيتم حتى صرتم تحافظون على الأمن العام، وهذا شغلي أنا وشغل أعواني من الشرطة والحرس؟! أفأردتم أن تساعدوني؟! أنتم أصحاب الفتنة ودعاتها الموقدون لنارها، ولم يبق عندي شك في

أنكم مفسدون، قلتم: إن المصري وهابي فهل المغربي أيضًا وهابي؟ فقالوا: إي والله يا سعادة المحافظ هذا وهابي (زيُّه تمام). فقال: اسمعوا ما أقوله لكم أنتم تستحقون العقاب، ولكني أعفو عنكم في هذه المرة. وكل فتنة تقع في المستقبل في الإسكندرية أو رملها من هذا القبيل فأنتم المسؤولون عنها، أغربوا عني لا نَعِمَ عوفكم[1] ولا أمن خوفكم! فانطلقوا يتعثرون في أذيال الخيبة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ولما سمع بذلك الشيخ أبو السمح صار يحضر صلاة الجمعة ويصلي معنا مأمومًا، وبعد انقضاء شهرين على هذه الحادثة أمن أبو السمح وتجرأ فصلى بنا الجمعة إمامًا فاستأذنته أنا في إتمام السياحة في البلاد المصرية، ورجعت إلى القاهرة وقد نفد ما عندي من الدراهم، لأن التجانيين - بعدما وصلت إلى القاهرة - بعثوا إليَّ حوالة فقبضتها، وقلت في نفسي: إنني قصرت في عدم إعلان خروجي من الطريقة وأنا بين ظهرانيهم ولم أدع إلا أربعة أنفس سرًّا وقبلت مساعدتهم عند السفر، وهأنذا أقبل مساعدتهم بعد السفر؛ فإن بقيت على هذه الحال فأي فرق بيني وبين شيخ الطريقة؟ فكتبت إليهم رسالة في أربع صفحات وجعلت منها أربعة نسخ بعثت كل نسخة منها إلى أحد رؤسائهم فحرقوا الأرم[2] غيظًا، ولم يجبني إلا أحدهم بيني وبينه مصاهرة فقال لي في جوابه: لقد قرأتُ ما كتبتَ، والقلوب بيد الله يصرِّفها كيف يشاء ولئن كتبت إلي بعد هذا ولو حرفًا من الطعن في الطريقة التجانية لن أجيبك أبدًا، وتحمَّل أنت وحدك إثم قطع الرحم.

ولما نفد ما عندي من الدراهم جاءني الشيخ محمد الخرشي الشنقيطي - رحمه الله - سواء أكان حيًّا أو ميتًا - فأعطاني ريالين مصريين وكان من المتخرجين في الجامع الأزهر وله راتب من أوقاف الطلبة المغاربة قدره جنيهان (مشاهرة) وعشرة أرغفة يوميًا وهو من الستينيين. وكان الطلبة المغاربة في ذلك الزمان ثلاثة أقسام: ستينيين، وعشرينيين ومنتظرين، فالستينيون عددهم ستون رجلًا يأخذون راتبًا قدره جنيهان مشاهرة وعشرة أرغفة يوميًا، والعشرينيون عددهم عشرون رجلًا يأخذون

(١) العوف: الحال. ويقال في الدعاء: نعم عوفُك؛ أي: حالك.

(٢) الأُرَّم: الأضراس. يُقال: فلان يحرق عليك الأرَّم، إذا تغيظ فحكَّ أضراسه بعضها ببعض.

راتبًا قدره نصف جنيه مشاهرة، وخمسة أرغفة يوميًا، والمنتظرون يعدون بالمئات لا يأخذون إلا رغيفين في كل يوم. وكانت الحرب قائمة على الدوام بين الستينيين والمنتظرين، والعشرينيون على الحياد. وذات يوم هجم ثلاثة من المنتظرين على شيخ رواق المغاربة – بعد السلام من صلاة الجمعة – في الأزهر فطعنوه بالخناجر حتى مات، فهرب الناس من المسجد لا يلوون على شيء وركب بعضهم بعضًا حتى مات بعض الضعفاء من الزحام، وأظن أن الأخ القارئ يعرف طبعي في الاستطراد، فأنا لا أحول عنه ولا أزول، كما قال المتنبي:

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا)

فقال لي الشيخ محمد الخرشي: لا تقعد هنا مقيمًا على معيشة ضنك كالوتد، ألم تسمع قول الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلَّا الأَذِلَّانِ عِيرُ الْحَيِّ وَالْوَتَدُ

هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَاكَ يَشْجُو فَلَا يَرْثَى لَهُ أَحَدُ

معنى البيتين لا يرضى أحد أن يقيم على ذل إلا الأذلان: الحمار الأهلي، والوتد الذي تضرب به الخيمة وتثبت؛ فالحمار الأهلي مربوط بحبل لا يستطيع الفرار مع أنه يضيق عليه في العلف ويحمل من الأحمال ما لا يطيقه، وعلاوة على ذلك يضرب بالعصا، وينخس بالمنخاس وهو حاد كالإبرة، والوتد يضرب على رأسه ليدخل في الأرض كلما أريد نصب الخيمة ولا يستطيع أن ينجو بنفسه.

فقلت له: مكره أخاك لا بطل. وماذا عسيت أن أفعل وأنا هنا غريب؟! فمالي إلا الصبر الجميل. فقال لي: كل طلبة العلم الغرباء في مصر بدون استثناء وما أكثرهم يخرجون إلى الفلاحين ويلقون دروس الوعظ في المساجد، فلا يكاد الفلاحون يرونهم حتى يغمروهم بالإكرام وبالدراهم والثياب والزاد دون أن يحوجوهم إلى تذلل أو سؤال، فإن الفلاح المصري يضرب به المثل في الكرم وهذه عادتنا كلنا منذ حللنا هذه الديار فشكرته على هديته ونصيحته وعزمت على الخروج إلى الصعيد وهو الذي بقي لي لم أره، فإن الوجه البحري وهو ناحية الشمال في مصر قد رأيته من القاهرة إلى آخر الإسكندرية وبقي لي الوجه القبلي وهو ناحية الجنوب، فتوكلت على الله، وسافرت بالقطار إلى مدينة ملوي فكنت أسمع بالشيخ عبدالظاهر الريرموني أنه من دعاة السلفية فسألت عنه فوجدته، ونزلت

عند مغربي يسمى الشيخ إبراهيم الدادسي وهو طبيب عيون يقدح العيون على طريقة الطب الإسلامي القديم بميل من حديد بدون تخدير فيخرج البياض من العين ثم يعالج الجرح بالأدوية إلى أن تشفى العين التي كانت عمياء لا تبصر شيئًا ويعود إليها نورها بإذن خالقها، وهذه الطريقة لا تزال مستعملة إلى يومنا هذا في بعض القرى النائية عن المدن في بلاد المغرب وغيرها.

فوجدت الشيخ عبدالظاهر الريرموني وفرح بي وأظهر السرور وأكثر الترحيب واعتذر لي عن دعوته إياي إلى قريته الريرمون، فقال: أيها الأخ العزيز إن ضيافتك واجبة علي ولكن قريتي تبعد عن هذه المدينة بقدر نصف ساعة للراكب على الحمار الفاره، وأنا لا أشتغل في الغيط يعني - في المزرعة - وكل أهل القرية يخرجون إلى غيطانهم صباحًا ويرجعون مساءً وأنا أجيء كل يوم إلى هذه المدينة فأمكث فيها من الصباح إلى المساء، فإن دعوتك إلى القرية فإما أن تبقى وحدك أو تتكلف المجيء كل يوم معي صباحًا وترجع مساءً وفي ذلك من المشقة عليك ما لا يخفى فشكرته على ذلك ورأيت عذره قائمًا.

وأقمت عند الشيخ إبراهيم الدادسي بمدينة «ملوي» من مديرية أسيوط، من بلاد الصعيد أربعة أيام ثم عزمت على التوجه إلى قصبة المديرية وقاعدتها، وهي مدينة أسيوط، وكنت أجتمع بالشيخ عبدالظاهر الريرموني كل يوم ونتذاكر مسائل العلم. وفي صباح يوم الخميس استعددت للسفر بالقطار إلى أسيوط، فبينما أنا على ذلك إذا براكبين على حمارين قد أقبلا ونزلا وسلما على الشيخ إبراهيم الطبيب وقالا له: أين الأستاذ المغربي الذي بلغنا أنه عندك؟ فقال لهما وأشار إلي: هذا هو يريد أن يسافر إلى أسيوط الآن. فقال أحدهما وهو الشيخ عبدالعليم - رحمة الله عليه -: أيها الأستاذ إن إخوانك السلفيين في الريرمون يقرؤونك السلام ويلتمسون أن تتفضل عليهم بالزيارة ولو ليوم واحد فإن أستاذنا الشيخ عبدالظاهر أخبرنا منذ أربعة أيام بقدومك فالتمسنا منه أن يدعوك إلى قريتنا، فقال: إنك مستعجل تريد السفر إلى أسيوط ولا تستطيع أن تزورنا، فقلنا له: ولا يومًا واحدًا؟ فقال: ولا يومًا واحدًا. وكررنا عليه الطلب في اليوم الثاني والثالث حتى يئسنا منه، فأرسلنا إخوانك لندعوك إليهم لمّا علموا أنك عزمت على السفر إلى أسيوط وقالوا لنا: إن وجدتموه سافر فسافرا إلى أسيوط وأبلغاه دعوتنا، واعلم أيها الأستاذ المحترم أننا - معشر السلفيين- في قرية الريرمون لا يزيد عددنا على مائة بيت، وقد اشتدت العداوة بيننا

وبين قومنا المبتدعين عباد الأضرحة وشيوخ التصوف حتى انتقلت العداوة من أمور الدين إلى أمور الدنيا، وشيخ البلد منهم والعمدة معهم ونحن محاربون لأجل عقيدتنا فنرجو أن يهدي الله بك إخواننا ويجمع شملنا على كلمة التوحيد واتباع سنة النبي ﷺ فلا تخيِّب رجاءنا، فقلت لهما: أيها الأَخَوان العزيزان لستما في حاجة إلى كل هذا الإلحاح فإنني نذرت لله أن أدعو إلى توحيده وسنة نبيه ﷺ حيثما كنت وهذا أهم غرض لي في الحياة.



الدعوة إلى الله في الصعيد

فركبت أحد الحمارين وتوجهت إلى الريرمون مع الشيخ عبدالعليم، فلما وصلت نزلت في مندرة - أي: مضيف - الشيخ إسماعيل الصيفي - رحمة الله عليه -، واجتمع الإخوان السلفيون واحتفلوا بي كأني أحد الأمراء، ولم يكن عندي من الكتب إلا مجموعة الرسائل التي نشرها عيسى بن رميح - رحمه الله - وهي رسائل في التوحيد، فبدأت الدعوة بعد صلاة المغرب في المندرة المذكورة، واجتمع أهل القرية كلهم تقريبًا فلم تسعهم المندرة فجلسوا في الشارع. وكان في مقدمتهم شيخ البلد الشيخ يوسف - رحمة الله عليه - فأخذ يلقي علي أسئلة في التوسل بالأولياء وشد الرحال إلى زيارة قبور الصالحين والذبح والنذر وأوراد الطريقة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بالنبي ﷺ، وما إلى ذلك، وأنا أجيبه بحلم وأناة وصبر وَهَبَنِيهِ الله لم أعهده في نفسي قبل ذلك.

إِذَا اصْطَفَاكَ لأَمْرٍ هيَّأَتْكَ لَهُ ... يَدُ الْعِنَايَةِ حَتَّى تَبْلُغَ الأَمَلا

وحضر هذا الدرس أستاذ الجماعة الشيخ عبدالظاهر الريرموني فأخذ يبحث عن عثراتي في النحو والصرف واللُّغة، ويلقي علي أسئلة بقصد الزراية وإظهار نقصي فقابلت - بتوفيق من الله - كل ذلك بأدب وحلم كما يفعل التلميذ المتأدب مع أستاذه، وصرت إذا أجبته عن سؤال فلم يقبل جوابي أسلم له وأقول له: تفضل يا حضرة الأستاذ وأفدنا في هذه المسألة بما علمك الله، فصبر الجماعة لهذه المقاطعات على مضض ثم عيل صبرهم فقال الشيخ إسماعيل صاحب البيت: يا شيخ عبدالظاهر هذه المسألة اللغوية التي تقطع بها على الأستاذ المغربي كلامه لا فائدة لنا فيها دعها إلى الوقت المناسب لها، ثم انطلقت في الوعظ شوطًا أو شوطين، وإذا بالشيخ عبدالظاهر يعود إلى أسئلته فأعود أنا إلى التسليم والأدب، فيزداد المستمعون غيظًا ويعيدون عليه قولهم، واستمر الأمر على ذلك ثلاث ليال ولم ينته عما نهوه عنه؛ فخشنوا له القول وانتهروه؛ فقال لهم: هذا ضيفي أصنع به ما أشاء ويحق لي لو شئت أن أقول له: إن أيام الضيافة ثلاثة، وقد انقضت فتفضل

فارحل لقلت له ذلك. فقال له أحدهم -وأظنه الشيخ إسماعيل-: (إيه ده يا خوي؟! أنت ما تقدرش تقوله كده ده ما هو ضيفك ده ضيفنا إحنا دعوناه واحنا كبناه بعدما ترجيناك أنت تدعوه ويئسنا منك) معناه: ما هذا يا أخي؟! إنه ليس ضيفك وإنما هو ضيفنا نحن ولا تستطيع أن تقول له: ارحل فعند ذلك غضب الشيخ عبدالظاهر ولم يعد يحضر دروس الوعظ والدعوة.



السر الخفي

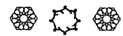
كأني بك أيها القارئ قد تلجلج في صدرك سؤال تريد الإجابة عنه، وهو لماذا امتنع الشيخ عبد الظاهر عن دعوتك، ولماذا يعكر درسك، وفي النهاية يريد أن يطردك؟

الجواب: إذا ظهر السبب زال العجب. اعلم يا أخي أن الشيخ عبدالظاهر كان قد خط لنفسه خطة في الدعوة، وهي أنه كان يفرض على كل واحد من السلفيين في الريرمون أن يبايعه بيعة تشبه في بعض نواحيها بيعة المريد المتصوف لشيخ الطريقة، وكانت شروط هذه البيعة شديدة إلى حد أنه لو وقع من أحد الإخوان شيء طفيف مما يخالف ما يريده الشيخ عبدالظاهر، يغضب عليه ويقول له: انتقضت بيعتك فتب إلى الله، وبايعني من جديد فلا يسعه إلا أن يتوب ويبايع من جديد وإلا طرده الشيخ وأخرجه من حظيرة الإخوان.

ومن أمثلة ذلك أن الشيخ عبدالظاهر كان قد بلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة ولم يتزوج فعتب عليه بعض الجماعة وقالوا له: أنت أستاذنا وإمامنا فلا ينبغي لك أن تبقي عزبًا وأنت تعلم ما فرض الله على مستطيعي الباءة فقال لهم: أنا فقير لا يرضى أحد أن يزوِّجَني ابنته، فقال أحدهم: أنا أزوِّجُك ابنتي فسكت الشيخ، ومضى على ذلك سنتان فجاء خاطب فخطب الفتاة فوعده أبوها خيرًا، فلما سمع بذلك الشيخ غضب عليه غضبًا شديدًا وقال له: انتقضت بيعتك فتب إلى الله واعدل عن تزويج الفتاة بذلك الخاطب فقد وعدتني بها منذ سنتين فكيف تزوِّجها

شخصًا آخر؟! فقال: أيها الأستاذ حقًّا عرضت عليك ابنتي فلم تجبني ببنت شفة، ومضى على ذلك سنتان فلم يبق عندي شك أنه لا أرب لك فيها. فقال الشيخ: كان الواجب يقضي عليك حين جاءك الخاطب أن تأتيني، وتسألني عن رأيي في التزوج بها فإما أن أتزوج وإما أن أرخِّصَ لك في تزويجها فاختلف الإخوان السلفيون في هذه القضية، فبعضهم صوَّب رأي الشيخ وبعضهم صوَّب رأي أبي الفتاة واشتد نزاعهم.

وكان كثير من الإخوان يشكون في البيعة، ويظنون أنها غير مشروعة وليست من السنة في شيء، لأنهم لم يروا أحدًا من الدعاة إلى السلفية فرضها عليهم قبل هذا الشيخ فهاتان مسألتان معضلتان تحتاجان إلى أبي حسن يكشف عنهما ظلام الإشكال ويبين حكم الله فيهم، ولما رآني الشيخ عبدالظاهر في مدينة «ملوي»، خاف أن أتصل بإخواننا فيسألوني عن القضيتين فأجيب بخلاف رأيه فلذلك فعل ما فعل ليحول بيني وبينهم، ولم يدر أنه لا حيلة تنفع في ردِّ المقدور، فوقع ما خافه ولذلك أخذ يعاكسني في دروس الوعظ وحاول أن يطردني.



عودة إلى دروس الوعظ

استمررت في إلقاء الدروس كل مساء في مندرة الشيخ إسماعيل الصيفي، ونسيت أن أقول: إن الشيخ عبدالظاهر الريرموني - رحمه الله - بلغ في المعارضة والمعاكسة إلى أن خالفني في أمر لم يزل يقرره ويدعو إليه، وهو منع شد الرحال إلى زيارة قبور الصالحين، فقال له إخوانه: يا لله العجب! أنت نفسك لم تزل تقرِّر المنع، فقال: تغير رأيي وهل أنا معصوم؟! ومن طباع المصريين المحمودة - وما أكثرها! - أن المرءوس إذا ظهر له الحق لا يفكر في مذهب الرئيس واعتقاده بل يتلقى الحق بالقبول وإن خالف رئيسه، ولذلك كان الناس في أثناء الوعظ يتوبون إلى الله ويعلنون توبتهم من الشرك والبدعة؛ ففي كل ليلة يتوب اثنان أو ثلاثة.

وفي الليلة السادسة أو السابعة قام شيخ البلد فأعلن توبته وقال: أيها الشيخ المغربي، إنك لم تأتنا بشيء جديد فكل هذه المسائل التي دعوتنا إليها سبقك إليها الشيخ علي التونسي والشيخ عبدالظاهر الريرموني وفلان وفلان، ولكن الفرق بين دعوتك ودعوتهم أننا إذا جادلناك تصبر على جدالنا وتجيبنا بلطف ولين حتى نقتنع وننتقل إلى مسألة أخرى ثم أخرى إلى أن يزول ما عندنا من الإشكال. وأما الدعاة الذين تصدوا للدعوة قبلك فقد كان لهم أسلوب آخر: متى جادلناهم وعرضنا عليهم شبهاتنا قالوا لنا: كفرتم! فنقول لهم: وأنتم أكفر ونفترق على أقبح ما يكون. ثم التفت إلى الشيخ إسماعيل الصيفي صاحب البيت وقال له: يا شيخ إسماعيل جزاك الله خيرًا على دعوة هذا الأستاذ المغربي الذي هدانا الله إلى الحق بسببه، ولك الفضل والحق أن تكون الدروس في مندرتك، وأن يكون الأستاذ المغربي ضيفك، ولكني أطلب من فضلك أن تسمح لي بأن يكون الأستاذ أسبوعًا عندك وأسبوعًا عندي. هذا في الدروس الخاصة التي تلقى في المنادر، وأنا أطلب من الأستاذ المغربي أن يلقي لنا درسًا في المسجد الجامع يوميًا وأن يصلي بنا الجمعة ما دام مقيمًا عندنا. فقال الشيخ إسماعيل: إني أقبل هذا الاقتراح بكل سرور.

فانتقلت إلى مضيف شيخ البلد واستمررت على إلقاء الدروس وأضفت إليها درسًا بعد العصر في المسجد الأعظم، واعتذرت إلى الشيخ يوسف عن قبول ما عرضه علي من صلاة الجمعة إمامًا وقلت له: إنني لا أحب الدعاء للملك فؤاد في كل خطبة ولا أريد أن أكون سببًا في شر يصيبك فحسبي أن ألقي الدروس. فقال - رحمه الله -: أيهما صواب، الدعاء للملك في كل خطبة جمعة أم تركه على ما جاءت به سنة النبي ﷺ؟ فقلت له: أنا أرى تركه هو الصواب فقال: (إيه ده يا خوي) نحن نعبد الله أو نعبد فؤادًا؟ إذا رأيت الملك فؤادًا أمامك في الصف الأول فلا تبال به أنا المسؤول وصل كما أمرك الله واخطب كما أمرك الله.

وبعد توبة الشيخ يوسف تاب أهل البلد عن بكرة أبيهم إلا بيتين: أحدهما: بيت شيخ الطريقة والثاني: بيت العمدة المرفوت، والمرفوت عندهم هو المعزول، وخدامهما، وبعدما كان السلفيون ممنوعين من جميع المساجد لأنهم وهابيون أهل مذهب خامس تصافح أهل القرية كلهم وزال ما كان بينهم من العداوة في الدين والدنيا، وانتقلت العزلة التي كانت ملازمة لهم إلى شيخ الطريقة والعمدة المرفوت وخدامهما، فأخذوا يصلون منعزلين في زاوية في وسطها قبر عليه تابوت كانوا

يعبدونه، وبلغت العداوة بين الفريقين إلى أن صار يتهم بعضهم بعضًا بإحراق الزروع في البيادر، واتهم المبتدعون السلفيين بإحراق تابوت ذلك الضريح الذي كانوا يعبدونه. والحقيقة أن امرأة أوقدت شمعة تتقرب بها إلى صاحب الضريح وجعلتها على التابوت فلما انقضت الشمعة وصلت النار إلى التابوت فأحرقت بعضه.

وكأني بعابد القبر يقول يا هذا لقد أسرفت في القول فهل يعبد مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبرًا؟ فأقول في الجواب: يمكنك أن تغالط بهذا الكلام غيري، أما أنا فلا تستطيع أن تغالطني لأنني أنا بنفسي كنت أعبد القبور، فهداني الله إلى توحيده وهدى بي خلقًا كثيرًا ولله الحمد، وأزيدك على ذلك ما يُخرسك ويُلقمك حجرًا: أن الجهال في هذا الزمان من أهل البلاد الإسلامية – وما أكثرهم! – يعبدون القبور والأنصاب بل والأشجار ويعبدون كل شيء حتى الحمير ودونك البرهان القاطع:

أما عبادة الأضرحة فأمر متواتر مشاهد بالعيان في أكثر البلدان المنتسب أهلها إلى الإسلام كما هو في بلاد النصارى وهؤلاء يزيدون التماثيل.

وأما عبادة الأشجار فقد حدثت من عهد بعيد فقد ذكر ابن أبي شامة في كتاب البدع له أن شجرة كانت تعبد في دمشق في زمانه. وأما في هذا الزمان فحدث عن البحر ولا حرج؛ فقد شاهدت شجرة عظيمة وافرة الأغصان تعبد في مصر، وأخبرني الشيخ محمد بن عبدالرزاق حمزة أنه هم بقطعها وأخذ فأسًا واشتغل طول الليل إلى أن كاد الفجر يطلع فلم يستطع أن يقطع إلا جزءًا يسيرًا من أغصانها، فجاء عبادها في الصباح بالنذور فوجدوا بعضها مقطوعًا فغضبوا غضب العابد لمعبوده، واتهموا الشيخ المذكور ورفعوا شكوى إلى العمدة فطالبهم بالبينة فقالوا: لا يوجد أحد في هذه الناحية يشنع على المتبركين بها إلا هذا الرجل. فقال العمدة: إنني لا أستطيع أن أعاقبه بهذه الحجة التي لا تتجاوز الظنون. وأخبرني الحاج (محمد أجانا) – وهو رجل قضى عمره في البدع حتى بلغ السبعين ثم هداه الله إلى التوحيد بدعوتنا – أن له شجرتين يعبدهما الفلاحون إحداهما اسمها أبوبكر والأخرى نسيت اسمها، وأن الفلاحين يضعون أدوات الحرث وغيرها مما يثقل عليهم حمله إلى جانب إحدى الشجرتين فلا يتجرأ أحد أن يسرق شيئًا من ذلك مع أنهم سرقوا حصر المسجد، ولو ذهبنا نعدد وقائع عبادة الأشجار لطال بنا الكلام.

وأما عبادة الأحجار فهي كثيرة، أورد بعض وقائعها: فمن ذلك حجر كبير ناشز

في جبل بالصعيد في مديرية أسيوط أخبرني أصحابنا أنه كان يسمَّى «الشيخ دغارا»، وأن جماعة منهم ذهبوا ذات ليلة بمعاولهم، واشتغلوا طول الليل فتركوا «الشيخ دغارا» أثرًا بعد عين. ومنها أن صخرة في مرسى مدينة طنجة داخل البحر تسمى سيدي ميمونًا يعبدها أهل تلك الناحية. وسبب اطلاعي على عبادتها أني كنت راكبًا في سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى وأتباعهم، وكان إلى جانبي رجل معه امرأة فسلم علي وقال لي: أنا ممن يحضر دروسك في الجامع الكبير، وقد هداني الله إلى التوحيد بسبب ذلك، ولكن زوجتي هذه لا تزال متمسكة بالشرك فأرجو من فضلك أن تعظها لعل الله يهديها بوعظك كما هداني أنا وذكر لي قضية اشتد نزاعهما فيها تتعلق بعبادة الصخرة البحرية المسماة بسيدي ميمون، وحاصلها أنها لا يعيش لهما الأولاد إذا بلغ الصبي سنة يموت، فنذرت زوجته أن تذبح عن ولدها في كل سنة شاة لسيدي ميمون، وقد حانت نهاية السنة الأولى من عمر الصبي قال: فامتنعت أنا من الوفاء بهذا النذر، وقلت: إن عمر الصبي بيد الله وميمون صخرة لا تضر ولا تنفع فلم تقبل. فوعظتها من طنجة إلى تطوان مدة ساعة، ولا أدري هل انتفعت بوعظي وتابت من الشرك أم بقيت على شركها. وأكتفي بهذا القدر من الشواهد على عبادة الأحجار.

ومن عبادة المياه أن بئرًا بالقصر الكبير يعبدها السفهاء ويسمونها «سيدي ميمونًا» ويزعمون أن ابن أمير الجن «شَمْهُورِشْ» كثيرًا ما يحضرها، خبرني بذلك غير واحد في البلد المذكور، وشاهدت حوادث أخرى من عبادة المياه فلا أطيل بذكرها.

وأما عبادة الحمير فأذكر فيها قصتين: إحداهما وقعت في طرابلس الغرب على ما حدثني به ثقة، وذلك أنه كان في تلك الديار شيخ متصوف اسمه عبدالسلام الأسمر كان يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الأرض ويعتقدون أن الدف الذي كان يضرب به الشيخ عبدالسلام نزل من الجنة، وكان يضرب به علي ابن أبي طالب للنبي، والشيخ عبدالسلام والمريدون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم لأنهم كانوا بزعمهم متوكلين. وكان للشيخ المذكور حمار يطوف على بيوت البلدة وحده كل صباح ومساء وعليه خرج فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئًا من الطعام في ذلك الخرج فيرجع إلى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية، فلما مات الشيخ وتفرق المريدون وبقي الحمار بلا عمل صار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به إلى أن مات فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه.

والقصة الثانية في المغرب الأقصى: قرأت في سنة ستين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى في صحيفة العلم مقالًا لمعلمة اسمها خديجة النعيمي من الدار البيضاء قالت خديجة: خرجت مع نسوة جاهلات نتجول خارج المدينة فمررنا بكوم من حجارة فأخذت النسوة يقبلن تلك الحجارة ويتمسَّحن بها قائلات: (أنتاع الله لله يا للاحمارة) معناه: نسألك متاع الله، أي: ما أعطاك الله من الكرامة يا سيدتنا الأتان، قالت: فأنكرت صنيعهن وقلت لهن: ويحكن تتخذن أولياء حتى من الحمير، فقلن لي: اسكتي إنك لا تعرفين قدر هذه الولية فكم قضت من حاجات ونخاف عليك أن تضربك ضربة يكون فيها حتفك فسلمي للفارغ لكي تنجي من العامر (قلت: وهذا مثل يضربه المغاربة لمن اعترض على عبادة شخص وقال: إنه لا ينفع ولا يضر يقول له عباده: (سلم للخاوي تنج من العامر) معناه هب أنه فارغ من الولاية فخير لك أن لا تعترض عليه وأن لا تنكر ولايته لأنك إن استمررت في الإنكار يخشى عليك أن تصادف وليًا حقيقيًا فيصبك بشر). ثم وجهت الكاتبة المذكورة دعوة إلى العلماء وقالت: يا علماء الدين اتقوا الله وعلموا الناس توحيد الله وشعائر دينهم، فإنكم ضيعتم الأمانة التي حملكم الله إياها حتى وصل الناس إلى عبادة الحمير دون الله. فكتبت ثلاث مقالات تلبية لدعوتها ونشرت في صحيفة العلم، ولم يلب دعوتها أحد غيري من قراء صحيفة العلم وهم يعدون بالآلاف، وأظن أن هذا القدر يكفيك إن كنت منصفًا ويقمعك إن كنت متعسفًا.

❁ ✡ ❁

عودة إلى الريرمون

أول جمعة صليتها إمامًا في الريرمون في المسجد الأعظم كانت يوم عيد عند أهل الريرمون، وتمكن السلفيون لأول مرة من الصلاة في المسجد الأعظم وتعانق الناس، وصاروا إخوانًا متحابين. وكان للسلفيين مسجد بنوه باللبن وسقفوا نصفه بخشب النخل فصلى في ذلك اليوم الشيخ عبدالظاهر في ذلك المسجد إمامًا، وقال

في خطبة الجمعة: يا إخواننا لا يخفى عليكم (أن المركب اللي فيها ريسين تغرك) يعني أن السفينة إذا كان لها ربّانان فمآلها الغرق لأن الرُّبانَيْن يختلفان فيؤدي اختلافهما إلى اختلاف النوتية ويفضي بهم ذلك إلى الغرق، وأن هذا المغربي قد فرق جماعتنا ووالى أعداءنا وأحدث فتنة في البلد، ولا يستمع لحديثه، فما فرغ من الصلاة ولم يصل معه إلا الشيوخ الضعفاء الذين شق عليهم المشي للجامع الأعظم - حتى غضبوا عليه وزجروه زجرًا شديدًا وقالوا له: ما نظن إلا أنك أصبت بالجنون وأن هذه الصلاة التي صليناها خلفك مشكوك في صحتها لأنك تكلمت باللغو الذي لا يناسب خطبة الجمعة، وهذا الرجل الذي تكلمت فيه بغير حق ما رأينا منه إلا خيرًا وهو يجلك غاية الإجلال فقال لهم: هذا فراق بيني وبينكم.

وقبل ذلك بيوم دعاني أحد الإخوان للغداء ودعا الشيخ عبدالظاهر، فقال لي: يا شيخ محمد سمعت بأن المنافق يوسف شيخ البلد جاءك وأظهر لك أنه تاب من شركه وبدعته؛ فقبلت توبته، وأظنك لا تعلم أنه أكبر عدو للسلفيين ولي أنا بالخصوص وأنا شيخ هذه الطائفة وإمامها، فإن كان صادقًا فيما يزعم فهلا جاء إلي والتمس مني العفو وبايعني، بل أنت بنفسك يجب عليك أن تبايعني وأن لا تخرج عن رأيي!! فقلت له: يا شيخ عبدالظاهر والله إني لأحب أن أرضي الله ثم أرضيك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فهب أن رجلًا في الروضة - وهي بلدة قريبة من الريرمون - يدعو إلى مثل ما ندعو إليه من التوحيد واتباع السنة، وهذا الشيخ يوسف عدو لي ولك، فجاءه هذا الداعي ودعاه فتاب إلى الله على يده من الشرك والبدعة، وبقي مع ذلك مصرًا على عداوتنا، ألا ينبغي لنا أن نفرح بتوبته لأنه أنقذ من شر عظيم يوجب له الخلود في نار جهنم، أما عداوتنا نحن فإنها معصية لا تخرجه من الإسلام وقد تزول فنصطلح معه ونعود إلى الوفاق فقال لي: هذا رأيك أنت، أما أنا فأقول: يجب على كل من أراد أن يتوب من الشرك والبدعة أن يرضيني ويبايعني فقلت: إني أوثر رضى الله على رضاك فقال: هذا فراق بيني وبينك. وسمعت بأنه كان يتعاطى الأفيون وهو مخدر سام - الله أعلم بصحة هذا الخبر - وبقيت في الريرمون على تلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم حان وقت الحج

وكنت في أثنائها أظهر الغنى ولم أسمح لأحد أن يدفع عني أجرة البريد لرسالة أرسلها في البريد فضلًا عن غير ذلك حتى صار الناس يعتقدون أنني غني، ولم يتجرأ أحد أن يقدم لي شيئًا لا دراهم ولا ثيابًا إلا شيئًا من الخبز اليابس وشيئًا من السمن في إناء من خزف انكسر حين ركبت العربة قبل أن أصل إلى مستقري في القاهرة، وإلا كسوة كسانيها الشيخ يوسف - رحمه الله - بعد أن قدم لها مقدمات من الإلحاح الكثير.



المناظرة

لما استجاب لي شيخ البلد وتبعه الناس كلهم إلا من ذكرت - أعني العمدة المرفوت وشيخ الطريقة - أصاب هذين الرجلين من الغم والحزن شيء كثير فبعثا إلى الجامع الأزهر ودعيا أحد كبار الأساتذة المعروفين بغزارة العلم وطلاقة اللسان لمناظرتي؛ فجاء الأستاذ الأزهري ونزل في قصر العمدة المرفوت، فجاء أصحابنا وأخبروني بقدومه وقالوا لي: ناظره فستنتصر عليه يقينًا فإن الأزهريين ضعفاء في علم السنة والتوحيد ونحن العوام نغلبهم. فقلت لهم: إني أرى في هذه القضية رأيًا مخالفًا لرأيكم، وهو أنني لا أناظره فأنا حارث وزارع، وقد دعوت أهل البلد فاستجابوا لي؛ فليتقدم وليدعهم هو إلى الرجوع إلى الشرك والبدعة فإن رجع معه أحد؛ فأبعده الله! ومن تبعه فهو له ومن تبعني فهو لي، والمناظرة تعتريها المشاغبة ثم المضاربة فلا تحق حقًا ولا تبطل باطلًا؛ فقالوا لي: كلامك هذا يسبب لنا الهزيمة ويصدق قول أعدائنا أنك مغربي حاج ما درست في الأزهر ولا عندك الشهادة العالمية؛ فقلت لهم: صدقوا أنا جاهل ما درست في الأزهر ولا عندي الشهادة العالمية، ولكن هذه المسائل التي أدعوا إليها لو جاء شيخ الأزهر ومعه علماء الأزهر كلهم لم يستطيعوا أن ينقضوا منها شيئًا غير أنني لا أحب المناظرة ودعوا الأعداء يقولون ما شاءوا، فلم يعجبهم كلامي.

وبقي الأستاذ الأزهري في بيت العمدة خمسة عشر يومًا حاول في أثنائها أن يهجم علي في الدرس الذي ألقيه كل يوم بعد العصر بالمسجد الجامع فنهاه شيخ البلد وقال له: نحن نثق بهذا الرجل ولا نشك في صحة ما دعانا إليه، والله إن فتحت (بقك) أي فمك بكلمة واحدة لآمرن خفيرين، أي: حارسين يأخذانك إلى محطة السكة الحديدية لأنك تريد أن تحدث تشويشًا وفتنة، فبقي شيخ الطريقة وصاحبه العمدة حائرين، وفي النهاية عمدا إلى حيلة مكنتهما مما أراداه.

وذلك أننا كنا في شهر رمضان، وفي ذات يوم دعاني العمدة الحقيقي وهو رجل ملحد إلى العشاء فأجبته، وألقيت كلمة أمامه فقال لي: أنا على الحياد، لست معك ولا مع خصومك -يعني شيخ الطريقة والعمدة المرفوت- ولكن عقيدتكم أنتم

أقرب إلى العقل من عقيدتهم؛ لأن عبادة القبور وشيوخ الطريقة إهانة للكرامة الإنسانية.

ولما انصرفت من عنده كان طريقي يمر على باب قصر العمدة المرفوت، فلما حاذيت بابه جاءني شيخ الطريقة وسلم علي وقال: إن سعادة العمدة يدعوك إلى فنجان قهوة. فقلت: عندي الآن درس، فقال لي: لا يستحسن أن ترد دعوته ولا تزيد على خمس دقائق، فذهب بي حتى أدخلني إلى مقصورة وجدت فيها شيخًا ذا عمامة ولحية؛ فظهر لي أنه هو العالم الأزهري الذي دعي إلى مناظرتي، وكان ظني صادقًا فلم يكد المجلس يستقر بي حتى هجم علي الأستاذ الأزهري وقال لي: يا فلان بلغني أنك تقول كذا وكذا وكذا وعدد مسائل من التوحيد واتباع السنة فقلت له: أما كذا وكذا فقلته حقًّا وذكرت له دليله، وأما كذا وكذا فلم أقله. ووقعت المناظرة فعلًا، فحانت مني التفاتة فرأيت حديقة القصر كلها عمائم وقلانس لم يبق أحد من أهل البلد إلا حضر وتركوا لذلك صلاة التراويح فلم تزد المناظرة على نصف ساعة، وكان الأستاذ الأزهري - نسيت اسمه الآن - من خيرة علماء الأزهر فجعل يقول في أثناء المناظرة: أشهدكم أني رجعت عن كل ما قلته في هذا الأستاذ المغربي؛ فإن الناس نقلوا لي عنه مسائل مكذوبة عليه، وأشهد أنه من العلماء المحققين وإن كنت أخالفه في بعض المسائل. فعند ذلك علم العمدة المرفوت أنه أخفق في سعيه، فقال: أيها الأستاذ أرجوكم أن تقطعوا هذه المناظرة، أنا ما دعوت الأستاذ المغربي إلى المناظرة، وإنما دعوته لأتعرف به ويشرب عندي فنجانًا من القهوة، فانتهت المناظرة على ما يحبه أصحابنا ويكرهه خصومنا، ومن رأيي أني أبعد عن المناظرة وأتجنبها؛ فإذا اضطررت إليها استعنت بالله وخضت غمارها. قال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[١].



(١) متفق عليه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -. انظر: صحيح الجامع (٧٢٢٢).

الدعوة إلى الله في تندا

تندا: هي قرية تبعد عن الريرمون، مسافة لا أحصيها وفيها سلفيون واثنان من العلماء.

جاءتني دعوة من السلفيين من أهل هذه القرية فلبيتها، وتوجهت إليهم وأقمت عندهم ثمانية أيام ألقي الدروس في المساجد فرجع عن البدعة والشرك خلق كثير، وقدر عددهم بنصف سكان القرية، وعندئذ قال لي بعض أصحابنا: اتق الله وامكث هنا في مديرية أسيوط على الأقل سنة كاملة، وأقسم بالله أني لو أقمت سنة ليهدين الله بي أكثر سكان المديرية، وقال لي: إن هذه الفرصة التي سنحت لك من إقبال الناس على مجالس دعوتك قل ما يسنح مثلها ولا يجوز لك أن تضيعها، فقلت له: يمنعني من ذلك أن الغرض الذي سافرت من أجله من المغرب هو طلب العلم ولقاء أصحاب الحديث أينما كانوا، وأنا لم أؤد فريضة الحج حتى هذه الساعة، فقال لي: أما طلب العلم فهذه المجالس الحافلة بالدعوة إلى الله هي من صميم طلب العلم، وأنت شاب يمكنك أن تستأنف رحلتك بعد ذلك.

وجاءني اثنان من أغنياء أصحابنا فقال لي كل منهما: امكث هنا وأنا مستعد أن أزوجك ابنتي وأكتب لك عند المأذون فدانين غلتهما تكفيك للمعيشة، فاعتذرت إليهما عن القبول، وقلت لهما: إن الشيخ عبدالظاهر الريرموني -عفا الله عنه- يظن أنني أقصد الإقامة هنا طلبًا للمعيشة لأقصيه وأحل محله، فقالا: معاذ الله أن يظن بك أحد مثل هذا الظن.

وفي أثناء إقامتي بالريرمون قرأ علي أخوان معلمان في المدرسة نسيت أسماءهما ختمة من القرآن بقراءة ورش، وكانت نادرة في مصر في ذلك الزمان؛ فلم تلبث أن انتشرت بعد ذلك وأولع بها القراء بقصد الإغراب على السامعين، واكتساب المعيشة أي التأكل بالقرآن. وفي صحيح البخاري، باب من تأكل بالقرآن أو فخر به، ذكر البخاري - رحمه الله - في هذا الباب حديث علي في الخوارج، واستدل به على أنه لا يحل الأكل بالقرآن فراجعه إن شئت.

قدم مراد الله يقدم الله مرادك

تقدم أني تعففت أثناء إقامتي بالريرمون وأظهرت الغنى.

تَـعَـفَّـفْ ولا تَـبْـتَـئِسْ فَـمَـا يُـقْـضَ يَـأْتِـيـكَـا

وإنما فعلت ذلك لعلمي أن الذي يأخذ من الناس لا يستطيع أن يعطيهم شيئًا، وأن من كان له غرضان متضادان لا يمكن الحصول عليهما جميعًا؛ فلذلك وحدت همي ووجهت همتي بعد فتح الله لي قلوب الناس إلى الدعوة وحدها كما قال الناصح:

اجْـعَـلِ الْهَـمَّ واحـدًا وَارْضَ بـالـلـهِ صَـاحِـبًـا

وكنت أظن قبل التوجه إلى الصعيد أن ييسر الله لي دراهم أحج بها حجة الفريضة. وبعدما أقمت في مصر سنة وشهرًا نفد كل ما كان عندي، وكنت أنفق على نفسي وأخي الأستاذ محمد العربي الهلالي الذي صحبته معي وكان صغيرًا، لكن لما حصلت على تلك الغنيمة فوضت الأمر إلى الله وقلت:

عَـسَـى فَـرَجٌ يَـأْتِـي بِـهِ الـلـهُ إِنَّـه لَهُ كُـلَّ يـومٍ فـي خَـلِـيقَـتِـهِ أَمْـرُ

وبعد وصولي إلى القاهرة ببضعة أيام جاءتني حوالة من الشيخ يوسف بثلاثة عشر دينارًا فكانت كافية لأن أحج بها أنا وأخي وهذا ما أردت بقولي: قدم مراد الله يقدم الله مرادك.



هل بقي أهل الريرمون ثابتين على الدعوة؟

الجواب نعم، بعدما سافرت إلى الحجاز ثم إلى الهند ثم إلى العراق رجعت إلى مصر سنة خمسة وأربعين وثلاثمائة وألف فزرت الريرمون، ووجدت الإخوان ثابتين على الحق لم يضرهم من خالفهم، وأخبرني الشيخ يوسف - رحمه الله - أنه لما شاع في أنحاء الصعيد أن أهل الريرمون بدلوا الدين وأحدثوا دينًا جديدًا بعثت وزارة الأوقاف مفتشًا ليعرف حقيقة ما وقع. قال: فجاءنا وقال: يا شيخ يوسف بلغنا أنكم تركتم الترقية وقراءة سورة الكهف والأذان الثاني في يوم الجمعة وكذا وكذا، قال: فقلت له: أنت عالم ونحن جهال، وسترى صلاتنا وعبادتنا فكلما رأيت أمرًا مخالفًا للسنة المحمدية فأخبرنا به نرجع عنه، وكلما رأيت أمرًا ناقصًا من السنة فأخبرنا به، فقال لي: يا شيخ يوسف السنة على الرأس والعين، ولكن لا يخفى عليك أنه قد حدثت أمور بعد زمان النبوة استحسنها الناس ودأبوا عليها، ومن الصعب إزالتها، وقد قال العلماء: إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة فقد تكون واجبة أو مستحبة أو مباحة أو مكروهة أو محرمة، قال: فقلت: أنا كما تعلم لست من العلماء ولكني سمعت غير واحد من العلماء الثقات الذين لا أشك في علمهم ولا في صدقهم يقولون: إن النبي ﷺ قال: «**كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**» وفسروا لنا هذا الحديث كما يدل عليه ظاهره. ولم يقل أحد منهم: إن بعض البدع واجب وبعضها مستحب وبعضها مباح، فقال المفتش: ثم لا يخفى عليكم أن المساجد للأوقاف هي التي بنتها، وهي التي تنفق عليها، وهي تريد أن تسير على ما كانت عليه، قال الشيخ يوسف: فقلت له: (إيه ده يا خوي بس كدا؟) أنا أستطيع أن أبني مسجدًا في سبعة أيام وأترك المسجد الجامع فارغًا لا يصلي فيه أحد إلا الإمام والمؤذن، قال: فقال المفتش: يا شيخ يوسف أو نعمل شيئًا آخر. قال: فقلت: هات ما عندك؛ فقال: أنا مبعوث إليكم من قبل الأوقاف لأقدم تقريرًا فيما نسب إليكم من المخالفات، فأقترح عليكم أن تأمر المؤذن والإمام يوم الجمعة بإعادة تلك الأمور التي كنتم تصنعونها من قبل لأستطيع أن أكتب تقريرًا أكذب فيه ما نسب إليكم، وبعد أن أفارقكم وأعود بالتقرير إلى من أرسلني اصنعوا ما شئتم،

قال: فقلت: أنا موافق فأمرت الإمام والمؤذن أن يفعلا تلك البدعة المخالفة للسنة يوم الجمعة ففعلاها وصلينا الجمعة كما أراد المفتش ثم عدنا إلى ما كنا عليه.

وهنا ينبغي أن أقتبس أبياتًا من القصيدة التائية التي نظمتها بالهند، وذكرت فيها توبتي من الشرك والبدعة ورحلتي في طلب العلم، وأقتصر على ما يخص الدعوة في الريرمون لأني قد أدرجت القصيدة كلها في كتاب (الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية). والأبيات التي تخص الريرمون هي:

أَتَيْتُ إلى مصرَ لأَخْبُرَ خَبْرَهَا ... وَأَنْظُرَ هَلْ فِيهَا شِفَاءُ لِعِلَّتي

وَكُنَّا سَمِعْنَا قَبْلُ أَنْ في رُبُوعِهَا ... رجَالًا لِنَصْرِ الدِّينِ أَصْحَابُ شِدَّةِ

وَصَلْتُ فَلَمْ أُلْفِ سِوَى أَهْلِ بِدْعَةٍ ... وَشِرْكٍ وَإِلْحَادٍ وَشَكٍّ وَرِدَّةِ

سَمِعْتُ بِهَا الإِلْحَادَ يُعْلَنُ جَهْرَةً ... بِجَامِعَةٍ لِلشَّرِ مَعَ كُلِّ فِتْنَةِ

رَأَيْتُ بِهَا الأَوْثَانَ تُعْبَدُ جَهْرَةً ... قُبُورًا عِظَامًا نَاخِرَاتٍ أَجِنَّتِ

وَيَدْعُونَ دُونَ اللهِ مَنْ لَا يُجِيبُهُمْ ... وَهُمْ عَنْ دُعَاءِ الْقَوْمِ فِي عِظَمِ غَفْلَةِ

لَهُمْ جَعَلُوا قِسْمًا بِمَالٍ وَلِدَةٍ ... فَلَا عَاشَ مَنْ قَدْ ظَنَّهُمْ أَهْلَ مِلَّةِ

حَشَا ثُلَّةٍ للهِ مُسْتَضْعَفِينَ رَأَيْتُهُم ... تَسُومُهُمُ الأَعْدَاءُ سُوءَ الأَذِيَّةِ

وَهُمْ صُبُرٌ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ ... وَيَدْعُونَ مَا اسْطَاعُوا لِبَيْضَا نَقِيَّةِ

وَمَا صَدَّهُمْ إِيذَاؤُهُم عَنْ جِهَادِهِمْ ... لأَنَّهُمُ أَهْلُ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ

أَقَمْتُ بِهَا عَامًا إِلَى اللهِ دَاعِيًا ... فَأَرْشَدَ رَبُّ النَّاسِ قَوْمًا بِدَعْوَتِي

يُعَدُّونَ بِالآلافِ في الريرمونِ كُلُّ ... لُهُمُ أَهْلُ إِخْلاصٍ وَأَهْلُ فُتُوَّةِ

❁ ✧ ❁

من مخارق شيوخ المتصوفة المبتدعين

حكى لي أصحابنا في الريرمون أنني بعد ما سافرت من بلدهم زارهم شيخ طريقة اعتاد من قبل أن يزورهم الفينة بعد الفينة، فاستقبلوه استقبال ضيف عادي ولم يقبلوا يديه ورجليه ولم يخضعوا له الخضوع المعتاد قبل توحيدهم لله، فأنكر ذلك وقال: ما خطبكم أراكم تبدلتم؟ قالوا: ماذا تريد منا؟ نحن مستعدون لضيافتك فاقترح ما تشاء؛ فقال لهم: ما هذه الوجوه هي التي أعرفها ولا الاستقبال الذي عهدته فيكم، فقال له أحدهم: وماذا تريد منا؟ أتريد أن نعبدك من دون الله؟ لقد تاب الله علينا وهدانا إلى توحيده واتباع رسوله، فنحن لا نريد منك شيئًا لا نسأل حاجتنا إلا من الله ولا نتبع في الدين إلا رسول الله ﷺ. فقال له الشيخ وهو غضبان تغلي مراجله: يا عكروت (العكروت كلمة شتم في العامية المصرية بمعنى اللئيم) أنا قتلت نفسًا لأجلك وتقابلني بهذه الوقاحة؟ فقال الرجل: وكيف كان ذلك؟ فقال الشيخ: جاء رجل يسرق من مزرعة البطيخ التي زرعتها على شاطئ فرع النيل فوجهت له همتي وقتلته؛ فضحك الرجل وقال له: يا سيدنا الشيخ قد أخطأت في حسابك، إن المزرعة التي تعني جاءها فيضان النيل، فأتى عليها قبل أن تثمر، فغضب الشيخ ورحل ولم يقبل ضيافتهم وعلم أن رزقه منهم قد انقطع فذهب يبحث عن غيرهم كما يبحث الذئب عن الحملان، ومن عرف معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وعمل بمقتضاها حفظه الله من شياطين الجن والإنس.

وحدثوني عن هذا الشيخ نفسه أنه كان في ضيافتهم في مندرة فنظر فلم ير أحدًا وأوحى إليه شيطانه أن يأتي بمخرقة ليرهبهم بها ويستدر خدمتهم وأموالهم، فنزل من فوق المقعد الخشبي، واندس تحته وقد سدل عليه ستار كما هي العادة في ذلك الزمان في المنادر فدخل أحدهم فلم يجده وهم يعلمون يقينًا أنه لم يخرج، فقال: يا جماعة قد فقد سيدنا الشيخ، فدخلوا كلهم ولم يشاهدوا شيئًا ثم خرجوا فلما خلا له الجو خرج من مخبئه وقعد في مكانه، وانطلقوا هم يفتشون عنه في البلد كله، فلم يجدوا له أثرًا ثم رجع أحدهم فوجده في مكانه فأحاطوا به يتمسحون به ويقبلون يديه وهم في هلع عظيم وقالوا: يا سيدنا الشيخ (كرى إيه؟) يعنون ماذا

جرى؟ عهدنا بك جالسًا على المقعد ثم دخلنا فلم نجدك وانطلقنا نبحث عنك ثم رجعنا فوجدناك، فقال: زرت إخوانكم المجاهدين في طرابلس الغرب (في هذا الزمان تسمى ليبيا) فوجدتهم في معركة عنيفة مع أعداء الإسلام الإيطاليين فأكبوا عليه مرة أخرى يقبلون يديه ويتمسحون بثياب هذا البطل المجاهد!! وما هي من أفعال المبطلين بالشيء الغريب.

❁ ✡ ❁

الدعوة إلى الله في تطوان

في شهر آذار «مارس» من سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى، اتفقت مع سماحة المفتي السيد أمين الحسيني على التوجه من برلين إلى شمال المغرب، وحملني رسالة شفوية إلى الأستاذ المجاهد رئيس حزب الإصلاح الوطني الزعيم عبدالخالق الطريس -رحمة الله عليه- تتعلق بإصلاح حال المسلمين في شمال المغرب. وكان في ذلك الزمان القسم الشمالي من المغرب يسمى المغرب الإسباني لأن المغرب كان مجزأ إلى ثلاثة أجزاء: المغرب الفرنسي، وهم القسم الأكبر من المغرب عدد سكانه زهاء أحد عشر مليونًا، والمغرب الإسباني وعدد سكانه زهاء مليون واحد، وطنجة ونواحيها وهي دولية، وكان الجرمانيون في أوج عزهم.

فلما وصلت إلى تطوان فزع الإسبانيون المستعمرون من قدومي وساء ظنهم، لأنهم وإن كانوا مع الألمانيين في السياسة ظاهرًا إلا أنهم لا يأمنون جانبهم، فظنوا أنني جئت مبعوثًا من الألمانيين لأتصل بزعماء المغاربة، وأسعى في إخراج الإسبانيين ليحل الجرمانيون محلهم - وهو ظن كاذب - فمنعوني من الرجوع إلى البلاد الجرمانية، بتواطؤ مع القنصلية الإنكليزية في تطوان؛ فاضطررت إلى البقاء في تطوان ونواحيها زهاء ست سنين، وجرت علي حوادث ذكرها هنا كلها يخرجني عن الموضوع، وإنما أذكر منها ما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، وكنت في ذلك الوقت

القديم عديم الجنسية لأن الإنكليز تواطؤوا مع السفارة العراقية في روما أن لا تجدد جواز سفري، فقدمت إلى تطوان بجواز ملفق بعثه إلي الأستاذ عبدالخالق الطريس، فسهل على الإسبانيين المستعمرين المستعبدين أن ينتزعوا مني ذلك الجواز، وأن يجعلوني تحت المراقبة، ثم استطعت أن أقنعهم بكذب ظنهم بعدما اقترحوا علي كتابة مقال أصرح فيه بأن الجرمانيين لا حق لهم في استعمار المغرب، فكتبت مقالًا قلت فيه: إن المغرب للمغاربة لا حق للفرنسيين ولا للإسبانيين ولا للجرمانيين في الاستيلاء عليه، فرضوا بذلك ولكنهم شرطوا علي أن لا أكتب مقالًا ولا ألقي دروسًا ولا خطبة إلا بعد اطلاعهم واستئذانهم وهددوني بأن يسلموني للفرنسيين الذين نفوني قبل من القسم الذي تحت أيديهم، ولو ظفروا بي لانتقموا مني أشد انتقام، وبقيت هنالك عاطلًا عن العمل.

فبعد مدة جاءني جماعة من محبي العلم والإصلاح والتمسوا مني أن ألقي دروس وعظ في المسجد الجامع ويسمى باللغة المغربية الجامع الكبير، فقلت لهم: إن الإسبانيين شرطوا علي أن لا ألقي درسًا بدون إذنهم، ثم جاءني جماعة من طلبة المعهد الإسلامي فالتمسوا مني مثل ذلك فأجبتهم بالجواب نفسه، فقالوا لي كلهم: إنهم لم يمنعوك منعًا باتًّا وإنما علقوا ذلك على إذنهم فاستأذنهم. وكان الحاكم المدني قد عين أحد الضباط اسمه بردا واسطة بيني وبينهم، فأخبرت بردا بطلب الجماعتين فبلغ الأمر إلى سيده فقال له: لا مانع عندنا من ذلك ولكن مدير المعارف (وهو إسباني طبعًا) متعصب جدًّا ومعتد بنفسه فإذا رأى الدكتور الهلالي يلقي دروسًا بدون استئذانه يخاف أن يكيد له كيدًا، فيستحسن أن يطلعه على ذلك لينجو من شره، فشاورت الأستاذ عبدالخالق الطريس -رحمه الله- وكان قد عينني أستاذًا في المعهد الحر وهو مؤسسة وطنية خارجة عن نفوذ المستعمرين نوعًا ما، فقال لي: اكتف بإلقاء الدروس في المعهد، ودع عنك هؤلاء الأرذال، فصرفت النظر عن ذلك.

ثم عادت الجماعتان إلى الالتماس وقلت: عسى أن يكون في إجابة طلبهم خيرًا، فقلت لبردا: أخبر مدير المعارف بأني أريد زيارته فأخبره، فرحب بذلك واجتمعت به بحضور مدير المعارف المغربي، وكان حضوره صوريًا لا حول له ولا قوة، ومع ذلك حاول أن يستغل وجوده فأراد أن يشترط علي شرطًا يتنافى مع الغرض المطلوب، فقال لي: إن الإسبانيين يشترطون عليك أن تكون دروس

وعظك خالية من السياسة وخالية من الآراء الشاذة، يريد بذلك إنكار الشرك والبدع، فقلت له: أنا لا أقبل هذا الشرط، وسأتكلم مع المدير الإسباني فإن أصر عليه عدلت عن إلقاء الدروس، فتكلم المدير الإسباني وقال لي: لقد فرحت بزيارتك لأني أحب العلماء وخصوصًا أمثالك الذين يجمعون بين الثقافتين الأوربية والإسلامية وهم قليل، بل ما رأينا منهم أحدًا قبلك، ولكني أكره للعلماء أن يشتغلوا بالسياسة لأنها تفسد عليهم علمهم، وفي رأيي أن على العالم أن ينقطع لخدمة العلم ويترك السياسة. فقلت له: يمكنك أنت أن تفعل ذلك أن تنقطع إلى العلم وتترك السياسة لأن لك دولة قائمة تغنيك عن ذلك، أما أنا فلا يمكنني ترك السياسة لأمرين: أولهما أن القرآن والحديث كلاهما مشحونان بالسياسة، فلا يمكن أن أفسر القرآن وأشرح السنة إلا بالخوض في السياسة، وثانيهما أن المغرب في هذا الزمان كالجسم المريض ونحن -أبناءه- يجب علينا السعي في استرداد ما فقد من الصحة والمحافظة على ما لم يفقده منها، فقال: أنا أوافقك على أن المغرب مريض، ولكن ينبغي لنا أن نعطيه الدواء إذا أردنا شفاءه بقدر محدود، فقلت له مغالطًا: إذًا نحن متفقون على السعي في علاجه وشفائه، وفهمت منه الموافقة على إلقاء الدروس.

وبدأت بإلقاء ثلاثة دروس في المسجد الجامع كل أسبوع، فأقبل الناس علماؤهم وعامتهم على هذه الدروس إقبالًا عظيمًا مع أن علماءهم إلا واحدًا وهو الأستاذ محمد الطنجي كانوا معادين ومحاربين للتوحيد واتباع السنة أشد المحاربة، وهددوا بأن يعينوا لجنتين إحداهما تناظرني في الأصول والأخرى تناظرني في الفروع فلم أعبأ بهم وأخذت أحطم أصنامهم في دروسي، ولما بدأت دروسي في الجامع الكبير لم يكن أحد يضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، ووضع اليمنى على اليسرى في الصلاة وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة أعظم شعار للمتبعين للسنة فبدأ العوام يعملون بهذه السنة وغيرها. وكان الناس يتعجبون من العاملين بها ولكن باستمرار الدروس بضع سنين كثر المتبعون للسنة في هذا المسجد حتى صار الناس إذا رأوا رجلًا سادلًا يديه في الصلاة لا يرفع عند الركوع ولا عند الرفع منه ولا يجهر بالتأمين يتعجبون منه.



الحوادث التي وقعت أثناء إقامتي في شمال المغرب

الأولى: كان في طنجة الشيخ أحمد بن الصديق شيخ الطريقة الشاذلية المسماة هناك بالدرقاوية، سمعت أن أباه محمد بن الصديق ورد طنجة منذ زمان غير بعيد من قبيلة غمارة فقيرًا لا يملك شيئًا ودعا الناس إلى الدخول في طريقته فاستجاب له بعضهم ونمت دعوته إلى أن أسس زاوية.

والزاوية في الحقيقة كالضرة للمسجد فهي بناء قصد به إقامة الصلوات الخمس مع الأذان في كل وقت وقراءة القرآن وإلقاء دروس الوعظ، فهي إلى هذا الحد تشبه المسجد وتكاد تكون إياه، ولكن قد قصد بها بالدرجة الأولى اجتماع طائفة مخصوصة لها اسم يعينها كالدرقاوية والتجانية والقادرية والزروقية والناصرية والكتانية والكرزازية والوزانية وهلم جرًا، يجتمعون فيها لما يسمونه بالذكر، وهذا الذكر يكون جماعة بلسان واحد كترانيم النصارى في كنائسهم، وبالنسبة للدرقاوية التي نحن بصدد الكلام فيها يكون معهم غناء ورقص وآلات اللهو كالطبل والدف والمزمار وسائر الآلات، ويجتمع فيها رجال ونساء على ذلك، وبذلك تخالف المسجد.

وبعد ما استقر الشيخ محمد بن الصديق في طنجة وانتشرت طريقته بعض الانتشار نشأ أولاده وشبوا، فأخذوا يقصدون مصر لطلب العلم وكبيرهم في السن والعلم هو الشيخ أحمد المذكور آنفًا أقام بمصر سنين جادًا مجتهدًا حتى حصل على نصيب وافر من علوم اللغة والعلوم الشرعية، وفتح له في التأليف فألف كتبًا كثيرة ورجع إلى طنجة، وكان أبوه وأصحاب طريقته إلى حين رجوعه مقلدين كغيرهم لا يعملون بالحديث ولو كان مثل الشمس، فدعاهم أحمد إلى ترك التقليد والعمل بالحديث في الفروع التي لا تمس الطريقة وعقائدها بشيء من التغيير فاستجاب له والده وأتباعه كلهم، وبذلك ضرب سورًا على أتباعه يحرسهم من فتنة الفقهاء المقلدين، فلا يمكن أن يسألوهم عن شيء ولا أن يأخذوا منهم شيئًا من العلم، أما عبادة القبور والرقص واعتقاد وحدة الوجود وتقديس زنادقة الصوفية كابن عربي الحاتمي، وتعاطي الأوراد المبتدعة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بهم فقد ترك كل ذلك على حاله ولم يغير منه شيئًا.

ولما استقررت أنا في تطوان وهي شرقي طنجة على مسافة أربعين ميلًا وعرفت ذلك كله ظهر لي أن دعوة الشيخ المذكور توافق دعوتي في جانب وتخالفها في جوانب، فعزمت على أن أدعو إلى توحيد الله واتباع السنة دون أن أتعرض للشيخ أحمد بطعن ولا بتزكية من الوجهة الشخصية فأنا أدعو إلى توحيد الله وأعلم الناس معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله أي جميع مدلولات الكلمتين وأبين لهم أن من عبد غير الله بشيء من أنواع العبادات المذكورة أعلاه بعد أن يعرف أن هذا شرك ويصر على عمله فهو مشرك، ومن اعتقد وحدة الوجود فهو كافر، ومن استمد أو استغاث بغير الله فهو كافر، ومن ترك الكتاب والسنة وقلد الرجال قلادة سوء فهو ضال، وقد يفضي به إصراره على ذلك إلى الشرك كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النـــور: ٦٣] قال الإمام أحمد لصاحبه الفضل بن زياد -رحمهما الله-: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله (يعني النبي ﷺ) أن يقع في قلبه زيغ فيهلك، وهذا تفسير للآية في غاية التحقيق من وجهة الدلالة ومن وجهة العلم والمعرفة الذوقية لا يرتاب فيه إلا جاهل غمر.

وانتظرت من الشيخ أحمد بن الصديق أن يسلك معي هذا المسلك نفسه، فلا يدعو إلى تلك الضلالات ويذم أهل التوحيد، بل يتمسك بعقيدة السلف الصالح وذلك لازم لدعوته على سبيل العموم دون أن يسميني ولكنه سلك طريقًا آخر، فغره استيطانه في طنجة وما له من أتباع، وعلم أني غريب في تلك الناحية يحاربني الاستعمار - ولا يخفى ما كان له في ذلك الزمان من سلطانه - ويحاربني جميع الناس تقريبًا؛ فبعضهم يحاربني لأنه طرقي لأني أطعن في الطرائق كلها إلا طريقة النبي والصحابة والتابعين وهي الحنيفية، وبعضهم يحاربني لأنه مقلد جامد يقلد خليل بن إسحاق مؤلف المختصر الفقهي وشروحه لا يخجل أن يقول: نحن خليليون؛ إن دخل خليل النار دخلناها معه وإن دخل الجنة دخلناها معه!! هكذا يقول غلاة السفهاء الذين يسمون بالفقهاء.

حدثني الشيخ الورع الصالح محمد بن أبي طالب الحسني الهاشمي أن الفقهاء اجتمعوا في مدينة فاس في الضريح الإدريسي الذي يكاد يكون كعبة عندهم، وكان الشيخ الإمام المحدث الداعي إلى الله على بصيرة شيخ شيوخنا عبدالله السنوسي نزيل طنجة -رحمة الله عليه- يطعن في أولئك الجامدين ويضللهم، فجاءه أحدهم

بعد انفضاض الاجتماع في الضريح المذكور فقال له: يا سيدي! لِمَ لَمْ تشرفنا بحضورك؟ فقال: أنت تعلم لماذا؛ فإنكم اجتمعتم للصلاة عند القبر وأنتم أسارى التقليد الأعمى؛ فقال له المقلد: نحن خليليون إن دخل خليل النار دخلناها معه وإن دخل الجنة دخلناها معه؛ فقال الشيخ على البديهة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء ٦٧].

فبدأ الشيخ أحمد يطعن في علمي عندما أخذت أدعو الناس إلى اتباع الكتاب والسنة يقول: هذا طفيلي جاء من أوربا يتزيا بالزي الأوروبي، وهو زي الكفار فمن أين جاءه علم الكتاب والسنة وأين درسه أفي برلين أم في بون؟

ثم بدا للإسبانيين المستعمرين أن يؤسسوا صحيفة عربية يومية جامعة فطلب مني الحاكم الإسباني بواسطة بردا أن أنشر فيها مقالات في الدين والعلم والأدب دون أن أتعرض للسياسة. وكان هذا امتحانًا ثانيًا أرادوا أن يمتحنوني به فقبلت، وكتبت مقالات على شريطتهم، منها مقال في حل حديث مشكل ذكره الإمام ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية) وذكر من خرجه مع أسانيدهم وقال: إنه على شرط مسلم، إلا أن بعضهم علله باضطراب متنه ثم أجاب ابن القيم عن ذلك، وأثبت صحة الحديث، وسأسوق الحديث هنا ليطلع عليه القراء بلفظ النسائي.

قال ابن القيم ص ٦٢ ما نصه: قال النسائي «حدثنا محمد بن يحيى بن كثير الحراني، وحدثنا عمر بن حماد بن طلحة، حدثنا أسباط بن نصر عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه «أن امرأة وقع عليها رجل في سواد الصبح - وهي تعمد إلى المسجد - بمكروه على نفسها، فاستغاثت برجل مر عليها وفر صاحبها، ثم مر عليها ذوو عدد فاستغاثت بهم فأدركوا الرجل الذي كانت استغاثت به فأخذوه وسبقهم الآخر فجاءوا به يقودونه إليها فقال: أنا الذي أغثتك وقد ذهب الآخر، فأتوا به رسول الله ﷺ فأخبرته أنه وقع عليها وأخبر القوم أنهم أدركوه يشتد فقال إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركني هؤلاء فأخذوني، فقالت: كذب هو الذي وقع علي، فقال رسول الله ﷺ: «**انطلقوا به فارجموه**» فقام رجل، فقال: لا ترجموه وارجموني فأنا الذي فعلت بها الفعل واعترف فاجتمع ثلاثة عند رسول الله ﷺ الذي وقع عليها والذي أغاثها والمرأة، فقال: «**أما أنت فقد غفر لك**»، وقال للذي أغاثها قولًا حسنًا، فقال عمر - رضي الله عنه -: ارجم الذي اعترف بالزنا فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**لا إنه قد تاب**».

وكان بحثي في هذا المقال منصبًا على الإشكال الواقع في الحديث وهو كيف أمر النبي ﷺ برجم الرجل الأول الذي أغاثها دون أن تثبت عليه بينة الزنا وهي الاعتراف أو شهادة أربعة شهداء؟ فما كاد المقال يقع في أيدي الناس ويقرأ حتى اشتد غضب الشيخ أحمد بن الصديق، وكأنني هجمت على بيته ونهبت أثمن ما عنده وقال: ما شأن هذا الرجل والحديث؟! هذا رجل متفرنج أقام زمانًا طويلًا في أوروبا متطفل على الكلام في حديث النبي ﷺ، فكتب مقالات هو وأعوانه في الرد علي. وكان محرر صحيفة الأخبار شخصًا اسمه عرفة الغماري بينه وبين الشيخ المذكور قرابة فكان إذا جاءه مقال منه أو من أحد أعوانه الذين كانوا يحاربونني معه يبادر بنشره ويؤخر مقالي بعض التأخير، لكنه لا يستطيع أن يترك نشره؛ لأن سادته المستعمرين لا يسمحون له بذلك، واستمرت المعركة مدة من الزمان فيما بيني وبينهم، وكانوا كعادتهم يمزجون الشتم بالعلم فأدَعُ الشتمَ لا أجيبهم عنه وأجيبهم عن المسائل العلمية فقط، فاكتسبت بذلك وبالحجج القوية التي أدليت بها كثيرًا من الأنصار من قراء صحيفة الأخبار.

وكان مدار رد الشيخ أحمد على مقالي غريبًا لا يتعلق بأصل الإشكال بل سلك سبيلًا أخرى، وهي قوله: إن الحديث ضعيف لا بالاضطراب في المتن كما قال بعض الحفاظ ولا بالانقطاع في بعض أسانيده كما قال غيرهم، ولكن بدعوى أن سماك بن حرب الذي عليه مدار الحديث ضعيف، وإذا كان الحديث ضعيفًا لا يثبت فلا حاجة إلى البحث في الإشكال الذي وقع فيه. فأثبت في محاجتي لهم أن أكثر النقاد وثقوا سماكًا وهو من رجال مسلم، ثم وجدت أن الشيخ أحمد بن الصديق نفسه يحتج بسماك هذا في أحد كتبه.

وبينما المعركة جارية قد حمي وطيسها إذا برجل اسمه عبدالقادر الجزائري كان من جماعتهم الطرقيين ثم صار من جماعتنا السلفيين يكلمني بالهاتف من طنجة ويقول: قد جاءني السيد محمد الزمزمي بن الصديق وأخبرني أن أخاه الشيخ أحمد ابن الصديق يريد الاجتماع بك لإزالة ما حصل من الخلاف وإصلاح ذات البين، ولما كانت إقامتك في طنجة لا تطول فهو يرجو أن تعرفه باليوم الذي تتوجه فيه إلى طنجة ليتم اجتماعكما، وقد يخفى على من يعرف الأحوال هناك أن الشيخ الزمزمي لا يتنازل ليذهب إلى رجل ليس في مستواه، يضاف إلى ذلك أنه كان من مريديهم فخرج عن طريقتهم وإن تنزل إلى أن يكلمه ويوسطه فلا يتنزل إلى أن يأتي إلى

بيته، ولكنه فعل كل ذلك رغبة في إصلاح ما وقع بيننا، وهذا أمر يدل على عقل وفضل وإنصاف لأن هؤلاء الإخوة كان لهم مقام مرموق وأتباع وأعوان، أما أنا فقد كنت غريبًا ليس لي أنصار ولا أعوان، وعبدالقادر الجزائري تقدم ذكر حاله. فقلت له: لا حاجة إلى تعيين اليوم لأني سأقدم طنجة وأقيم فيها ثلاثة أيام، وفي أثنائها يمكن الاجتماع بالسيد محمد الزمزمي. ولما قدمت اجتمعت فعلًا به في بيت الجزائري وتحدثنا ساعتين فقال لي: إنك قدمت هذه البلاد بزي إفرنجي وهيئة إفرنجية، ولم نعهد من أصحاب هذا الزي إلا الكفر والإلحاد، ولم نكن نعرفك من قبل فظننا أن تدخلك في أمور الدين كتدخل كثير من أعدائه المفسدين، ثم تبين لنا بيقين علمك وفضلك وصدقك، فأراد أخي الشيخ أحمد أن ندعوك إلى الصلح والتعاون على ما اتفقنا عليه من دعوة الناس إلى اتباع حديث الرسول وترك التعصب للمذهب، وكلانا غريب في هذه البلاد في دعوتنا إلى اتباع الهدي النبوي - وكلامًا طويلًا في هذا المعنى - فقلت له: أنا منذ قدمت هذه البلاد وخبرت أحوالها عرفتكم، وعرفت دعوتكم وعزمت على التعاون معكم فيما اتفقنا عليه، وأما ما اختلفنا فيه، فكل منا يدعو إلى ما يعتقد، دون أن يتعرض بعضنا للطعن في بعض، فقال لي: إن الأخ الشيخ أحمد يدعوك إلى الغداء في بيتنا غدًا بعد الظهر فقبلت.

ولما وصلت إلى الشيخ أحمد رحب بي واحتفل بيَ أعظم احتفال، ووجدته قد دعا للغداء كثيرًا من أعيان البلد، ووضع لنا ثلاثة عشر لونًا من الطعام باعتبار أنواع الحلوى ولم أر في عمري كله غداء بلغ ذلك العدد من الألوان، ولما فرغ الناس من الأكل دعاني إلى خزانة الكتب التي يشتغل فيها بتآليفه الكثيرة، وليس فيها إلا خزائن الكتب وحصير مفروش في أرضها يقعد عليه ويشتغل بالتأليف على الطريقة المغربية القديمة. وكان في إمكانه أن يؤثث مكتبًا كمكاتب الوزراء ولكنه زهد في ذلك مع أنه كان يعيش معيشة الترف في قصر فخم، ولكنه أراد أن يترك خدمة العلم تسير في نهجها القديم، وبعد محادثة ودية طويلة افترقنا على أن لا يتعرض بعضنا إلى الطعن في صاحبه، ولكن كل منا يدعو إلى ما يعتقد أنه حق ويرد ما يعتقد أنه باطل.

واستمررنا على ذلك مدة إقامتي بتطوان ونواحيها، وقد استمرت من ربيع ١٩٤٢ إلى صيف ١٩٤٧ . وفي أثناء هذه المدة ألفت كتابًا سميته (الصراط المستقيم في صفة صلاة النبي الكريم) فقرظه الشيخ أحمد في صحيفة الأخبار، وبقي الأمر

فيما بيننا كذلك إلى أن سافرت قافلًا إلى العراق لم يحل ولم يتغير، ولما سمعت وأنا في تطوان أن الشيخ أحمد أفتى بزيادة (سيدنا) في الأذان وأن مؤذنه يقول: أشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله أنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء، ولما وصلت إلى العراق كتب إلي أحد الإخوان أنه ألف جزءًا سماه إحياء المقبور في استحباب البناء على القبور، فأنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء، وبذلك تعلم كما يعلم كثير من أهل طنجة وأهل تطوان، ومنهم الأستاذ العالم الداعي إلى الله على بصيرة: فخر آل الصديق ورائدهم في طريق الحق وفرطهم إلى الهدي صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الزمزمي بارك الله في حياته ونفع بعلمه.

فتبين بما ذكرناه أن ما سطره هذا الناعق كله افتراء من بنات غيره[1]. وهنا أذكر الألفاظ البذيئة التي وصمني بها كذبًا وزورًا ثم أنقضها بالتفصيل حتى يعلم من لا يعلم أنه مفتر يكذب على الحاضرين ويعرض نفسه لزيادة سخرية الساخرين، فقد ألف هذا المسكين كتيبًا سماه (التيمم في الكتاب والسنة) خبط فيه خبط عشواء وملأه بسب العلماء الأئمة المتقدمين والمتأخرين وهذا نص ما كتبه في صفحة (٥٧): «فقد جاء إلى طنجة رجل من هؤلاء الدعاة مدعيًا محاربة البدع، فأصبح ذات يوم حليقًا فأرسل إليه شقيقي الحافظ أبو الفيض من يسأله كيف يتفق حلق اللحية مع أمر النبي ﷺ بإعفائها وزعمه العمل بالسنة الدعوة إليها؟ فأجاب السائل بقوله: معنى الحديث اعفوا لحاكم إن شئتم، فقال شقيقي للسائل: ولِمَ لَمْ تقل له: أقيموا الصلاة إن شئتم. ولا تقربوا الزنا إن شئتم؟ فهذه هي السنة التي يدعو إليها هذا الضال وأمثاله، وقد انتقل ذلك الضال إلى بعض مدن الجنوب عاملًا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين. وإني أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الإنكليزية أو الأمريكية لإيقاع التفرقة بين المسلمين لأن التفرقة بينهم هي الوسيلة التي ينال بها الاستعمار أغراضه».

في هذا الكلام أنواع من البهتان: **الأول**: قوله: فأصبح ذات يوم حليقًا يوهم أنني جئت إلى طنجة بلحية ثم حلقتها، وهذا كذب محض يلعنه عليه خلق كثير لا يزالون أحياء يرزقون، والحقيقة أنني جئت إلى طنجة من برلين عاصمة ألمانيا بعدما أقمت في تلك البلاد زهاء ست سنين لتحصيل العلوم العصرية وشهادة الدكتوراه

---

(١) يقال: جاء ببنات غَير: أي بأكاذيب.

الجامعية، وقد حصلتها ولله الحمد في مدة لا تزيد على أربع سنين، وسبب توجهي إلى طنجة أن سماحة المفتي السيد أمين الحسيني -بارك الله في حياته- بعثني إلى الأستاذ الزعيم المجاهد عبدالخالق الطريس لغرض سياسي فيه خير للمسلمين المغاربة كما تقدم، وكنت مدة إقامتي في ألمانيا أحلق لحيتي متأولًا حديث الأمر بعفو اللحى على أن الأمر للندب. وقد خيل إلي في ذلك الزمان أن الأوامر الواردة في خصال الفطرة كإحفاء الشارب وعفو اللحى ونتف الإبط وتقليم الأظفار ينبغي أن يسلك بها مسلك واحد، فإما أن تحمل على الوجوب كلها وإما أن تحمل على الندب كلها، وأن في حمل الأمر الوارد في اللحية وحده على الوجوب وحمل سائرها على الندب تناقض.

وكذلك قول النبي ﷺ في صبغ الشعر «**خالفوا اليهود والنصارى فإنهم لا يصبغون**»، واستأنست بأقوال بعض العلماء الذين سلكوا هذا المسلك، وقد ذكرهم أخوه عبدالعزيز في تأليفه الذي رد فيه على أخيهما الأستاذ الزمزمي، وهو لا شك يعرفه، ثم ظهر لي أن الداعي إلى الله لا ينبغي له أن يعتمد على التأويل ولا يكون له عليه تعويل، بل يجب عليه أن يكون قدوة حسنة في أقواله وأفعاله وسيرته فعفوتها ولله الحمد ولا آخذ منها شيئًا.

على أن حلق اللحية على ما ذهب إليه جمهور الأئمة من التحريم لا يتعدى أن يكون من الصغائر، ولا يصل إلى حد الكبائر، وقد بسط القول في ذلك شارح العقيدة الطحاوية. انظر كلامه في ص ٣٥٦؛ فقد اختار في حد المعصية الكبيرة أنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليه بالنار أو اللعنة أو الغضب وهذا أمثل الأقوال اهـ. والصغيرة ضدها وهي ما لم يترتب عليها حد ولا توعد بالنار أو اللعنة أو الغضب، ثم قال: وترجيح هذا القول من وجوه: أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل - رضي الله عنهم - وغيرهم.

ولا أقول ذلك تصويبًا لحلق اللحية أو تهوينًا لشأنه، فإن الواجب على كل مسلم أن تكون له في رسول الله أسوة حسنة وأن يبذل جهده في موافقة قدوته وإمامه صلوات الله وسلامه عليه في الظاهر والباطن، ولكني أعجب لهذا الإنسان الذي يأتي بالطوام الكبرى التي لا تحلق الشعر بل هي الحالقة للدين والمروءة، ثم لا يجد ما يطعن به في أحد الدعاة إلى الله على بصيرة إلا بالتشنيع عليه في معصية من الصغائر قد تاب منها وتركها وهذا من الإفلاس.

الثاني: زعمه أن شقيقه - وهو عوض أبيه وليس له ولا عشر معشار علمه وعقله - زعم أنه أرسل إلي رسولًا وهو كاذب مفتر فإنه لم يرسل إلي قط إلا أخاه السيد الزمزمي في طلب الصلح كما تقدم.

الثالث: قوله: إني قلت له: معنى الحديث اعفوها إن شئتم، أقول فيه: سبحانك هذا بهتان عظيم، لو أرسل إلي رسولًا وأجبته بذلك فإن العادة تقضي عليه أن يحضر دروسي في الجامع الكبير بتطوان، وكان يحضرها فئام من الناس من الموافقين والمخالفين، فلو قلت ذلك لسمعه الحاضرون. وقد سئلت عن هذا الحكم في تلك الأيام مرارًا وتكرارًا فأجبت بما تقدم من التأويل، وكل من كان يحضر دروسي يعلم ذلك ولا يشك في كذب هذا المفتري وسيزداد كذبه وضوحًا حتى يصير كشمس الضحى ليس دونها غمام ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] وحينئذ يعلم أنه كان في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع بكفه مارن[1] أنفه فنعوذ بالله من الخذلان.

الرابع: قوله: وقد انتقل ذلك الضال إلى بعض مدن الجنوب عاملًا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين أقول: هذا مضرب المثال: رمتني بدائها وانسلت، أتدري أيها المأفون الذي يهرف بما لا يعرف لماذا انتقلت إلى الجنوب؟ لأن الاستعمار الفرنسي كان قد نفاني من وطني الجنوب ومن الجزائر وتونس أيضًا، ولم نر أحدًا من المنفيين نفاه الفرنسيون مثل هذا النفي المشدد، وبذلك تعلم ما أدركك من الشقاء حين تجرأت على ذكر الاستعمار بوقاحة ليس لها نظير.

يَا لَيتَ لي مِنْ جِلْدِ وَجْهِك رُقْعَةً فَأَقُدُّ مِنْها حَافِرًا لِلأَدْهَمِ

مثلك يتجرأ على ذم الاستعمار، وهل نشأت أنت ومن معك إلا في حجر الاستعمار، وهل جلب عليك وعلى إخوانك الشقاء إلا تقلص ظل الاستعمار؟!

الخامس: أن هذا المفتري لما رأى دعوتي إلى توحيد الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ في مكناس ونواحيها قد أينعت وآتت أكلها شوى الحسد قلبه فسمَّى ذلك شقاقًا وتفرقة بين المسلمين، ولو كان له من الحياء والتفكير فيما يقول مثقال ذرة لاستحى أن يذكر التفرقة بين المسلمين، ويرمي بها بريئًا حنيفًا ويحتمل بهتانًا

(١) المارن من الأنف: هو ما لان منه.

وإثمًا مبينًا، وهل كتابك هذا من أوله إلى آخره الذي شتمت فيه الأولين والآخرين - لا شتم الأشراف بل شتم أرذال السوقة - إلا شقاق، ونفاق وتفرقة بين المسلمين؟! وإلّا فمسألة التيمم واضحة وقد قتلها الناس بحثًا من قبل أن تميز، والحق فيها واضح، أنا أدعو الناس إلى أمرين في كل مكان دعوت فيه إلى الله في الشرق والغرب وفي أوروبا:

أولهما: تحقيق معنى لا إله إلا الله بجعل جميع أنواع العبادة، من دعاء واستغاثة، واستعانة فيما يخرج عن الأسباب، ونذر، وحلف، وتوكل، واستعاذة، واستمداد، وعبودية، وخوف، ورجاء، وجعل شيء من الأحكام الخمسة، وصلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وسفر يراد به التقرب إلى الله، وما أشبه ذلك، لله وحده لا شريك له لا يجعل شيء منه ولا مثال ذرة لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا غير مرسل ولا لصديق ولا لصالح ولا لأحد من الجن والإنس فهذا مجمل الأمر الأول.

الأمر الثاني: تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يحول دون اتباعه حب شيء من المحبوبات الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ويدخل في العشيرة المذهب والطريقة والحزب، ومن يعد هذين الأصلين اللذين قامت عليهما الحنيفية السمحة ملة إبراهيم وخير أبنائه بل خير خلق الله على الإطلاق محمد رسول الله ﷺ؛ من يعد ذلك شقاقًا وتفريقًا بين المسلمين إلا شيطان رجيم أفاك أثيم؟!

السادس: قوله: وإني أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الإنكليزية أو الأمريكية لإيقاع التفرقة بين المسلمين لأن التفرقة بينهم هي الوسيلة التي ينال بها الاستعمار أغراضه. أقول:

وَإِذَا اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنِحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُهْ

بهذا الكلام أمكن هذا الغبي من نفسه وعرضها للهلاك، ألا تعلم أيها البليد أن الناس لهم أعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها وقلوب يفقهون بها، فأقرب الناس إليك من حيث السكنى أهل طنجة يكذبونك ولو استطاعوا لرجموك بالحجارة

فاسألهم ماذا صنع السفير الفرنسي حين ردع الحلفاء الغربيون إلى طنجة حين دب الضعف إلى قوة ألمانيا الهتلرية يخبرونك ويخرجون لك الجريدة الرسمية بالعربية والفرنسية وفيها ما معناه: أن محمدًا تقي الدين الهلالي من وكلاء ألمانيا، وقد طلب السفير الفرنسي من السفير الإنكليزي والسفير الأمريكي - يعني سفير الولايات المتحدة الأمريكية - أن يوافقوه على القبض عليه متى دخل حدود طنجة الدولية فوافقه السفيران على ذلك، وحينئذ انهالت علي المحادثات الهاتفية من طنجة تحذرني من دخولها فهلا سألت الناس يا مغرور قبل أن تسطر ذلك الخذي المبين؟

ولما أردت السفر قافلًا إلى العراق كتبت إلى السفارة المصرية من تطوان أطلب منها سمة الدخول إلى القطر المصري، فبعث إلي قنصلها استمارة طلب مني أن أملأ مواضع البياض فيها، وهي مكتوبة بالإنكليزية، ومن جملة ذلك هل عندك سمة تمكنك من الخروج من مصر إلى لبنان؟ ولم أجد ما أملأ به هذا الموضع، فكتبت إلى أمير البيان المجاهد الأكبر حقًا وصدقًا الأمير شكيب أرسلان وكان لا يزال منفيًا في جنيف بسويسرا، فكتب إلي يقول: إن لي فضلًا على رئيس الجمهورية اللبنانية (بشارة الخوري) فإني أنقذت أباه من الموت في زمان حكم الأتراك العثمانيين، ولم أقتصر على ذلك حتى طلبت له راتبًا من الدولة العثمانية، فاكتب إليه كتابًا وابعثه إلي وأنا أشفعه بكتاب آخر من عندي ليبعث إليك سمة الدخول إلى لبنان لتتمكن من الدخول إلى مصر، فكتبت إليه الكتاب وبعثه هو إلى رئيس الجمهورية اللبنانية، فجاءني كتاب من وزارة الخارجية اللبنانية، موجه إلى القنصل الفرنسي في تطوان يلتمس منه أن ينوب عن وزارة الخارجية اللبنانية في إعطاء الدكتور محمد تقي الدين الهلالي سمة الدخول إلى لبنان، وكان هذا القنصل قد طلب من المستعمرين الإسبانيين إنزال العقوبة بي ثلاث مرات للمقالات التي نشرتها في صحيفة الحرية في محاربة الفرنسيين، والدفاع عن الملك المجاهد الراحل محمد الخامس -قدس الله روحه- على رغم أنف أصحاب الطرائق المبتدعة الذين كانوا يعادونه خدمة للاستعمار وخيانة للمسلمين.

فأخذت كتاب وزارة الخارجية وتوجهت إلى السفارة الفرنسية في تطوان، ولم يكن لهم في ذلك الوقت سفير وإنما كان لهم قنصل، فما رآني حتى عبس وبسر ولم يأذن لي في الجلوس على الكرسي بل تركني واقفًا انتقامًا مني لجهادي الذي أقض مضجعه - واسم هذا القنصل سوفوليس - ولما قرأ الكتاب قال لي بعنف

وغضب: هؤلاء قد استقلوا ولم يبق بيننا وبينهم علاقة، فقلت له: اكتب لي هذا الجواب، فقال: أنا لا أستطيع أن أكتب حتى أكتب إلى المقيم العام في الرباط فهو الذي يستطيع أن يجيب في هذه القضية وسأكتب إليه فانتظر الجواب، فقلت: كم أنتظر؟ فقال: شهرين. فانتظرت شهرين ثم جئته، فلقيني بغير الوجه الأول ووضع لي كرسيًا للجلوس عليه وقال: إن المقيم العام في الرباط قد وافق على إعطائك سمة الدخول، ولكن بشرط أن لا تمر لا على الجزائر ولا على تونس أما فرنسا فيمكنك المرور عليها، ولكن بشرط أن نتحقق أن عندك ما يكفي للنفقة على نفسك في مرسيلية لمدة شهر، لأن البواخر التي تسافر منها إلى بيروت بعد الحرب قليلة فقلت له: أعطني سمة الدخول إلى لبنان ودعني أفكر في طريق سفري فإن قررت السفر بطريق فرنسية رجعت إليك، ثم أراد أن يكفر عن ذنوبه السابقة فقال: إن أعداء فرنسا ينفقون الأموال الكثيرة لبث الفتنة والعداوة بين الفرنسيين والمغاربة، وينبغي للفرنسيين والمغاربة أن يتعاونوا على المصلحة العامة ولا يندفعوا مع الأعداء الذين لا يريدون بهذا الوطن إلا شرًا، فقلت له: أما قولك إن أعداء فرنسا ينفقون الأموال إلى آخره فأنا لست ممن يشترى بالأموال وإنما أنا من المدافعين عن أوطانهم، وقد اتفق العقلاء والنبلاء على أن هذا مقصد شريف، ثم قلت له: إن السفير الفرنسي في طنجة ذهب إلى السفير الإنكليزي وسفير الولايات المتحدة وقال لهما: إن محمدًا تقي الدين الهلالي وكيل لألمانيا وطلب منهما الموافقة على نفيي من طنجة وأنا لست وكيلًا لألمانيا وإنما أنا وكيل للمغرب وهو وطني أدافع عنه، فقال لي: لست مسؤولًا عما يقوله السفير في طنجة، وإنما أريد أن تعلم وتقول: إن مسيو سوفوليس القنصل الفرنسي بتطوان تلقاني باستقبال حسن، فأردت امتحانه وقلت له: إنني عازم على السفر إلى العراق وأنت تعلم أني منفي من وطني في الجنوب منذ زمان طويل فإذا أردت أن أتوجه إلى الرباط لأودع أستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي وغيره من الأصدقاء أتأذن لي في ذلك؟ فقال: ذلك ليس إلي ولا هو بيدي وإنما هو بيد المقيم العام في الرباط فإن أردت أن أكتب إليه؛ كتبت إليه وتنتظر الجواب، فقلت: لا تكتب إليه الآن حتى أعزم على ذلك؛ فقال لي: اذهب إلى الكاتب يعطيك سمة الدخول إلى لبنان فذهبت إليه فطلب مني ثمانين بسيطة -أي درهما إسبانيًا- فسلمتها له فأعطاني السمة.

هذا ما كان من أمر الفرنسيين معي ومعاملتهم لي في تطوان وطنجة. ونسيت أن

أقول: إن صحيفة الحرية التي كانت لسان حزب الإصلاح الوطني عطلت بسبب مقالاتي التي أغضبت القنصل الفرنسي ثلاث مرات، كل مرة شهرًا، وغرمت ألف بسيطة في كل مرة.

أما عداوة الإنكليز لمؤلف هذا الكتاب فهي كالشمس في رابعة النهار. ولولا أن مؤلف كتاب التيمم بين جدران الزاوية وفي وسطها للاطلاع على العورات أو في المقاهي والمتنزهات - على خلاف ما يدعيه من التصوف الكاذب - ولا يعرف من أخبار الدنيا الماضية والحاضرة شيئًا لعرف عداوة الاستعمار ومحاربته لي التي بلغت في الوضوح عند أهل المغرب والمشرق أنها لا تخفى إلا على أعمى البصيرة، فمن أدلة عداوة الإنكليز ومحاربتهم لي أنهم سبوني مرارًا وتكرارًا في إذاعتهم العالمية من أول ابتداء الحرب إلى نهايتها، والسامعون في مشارق الأرض ومغاربها لا يزالون أحياء يرزقون.

وهل علمت يا مسكين أنني أول ما لقيت المجاهد الكبير السيد أمينًا الحسيني في برلين نوه بجهادي ومحاربتي للاستعمار بلساني وقلمي وخطبي المجلجلة في إذاعة برلين العربية التي كان يهتز لها طربًا كل مجاهد مخلص في الشرق والغرب، وكان يشرق بها كل مدجل من عبيد الاستعمار خائن غدار. وبلغ صاحب السماحة الحاج أمين الحسيني - بارك الله في حياته - من تعظيمي إلى أن قال ذات يوم للزعيم رشيد عالي الكيلاني - كبير آل الشيخ عبدالقادر الكيلاني ورئيس وزراء العراق سابقًا الذي قاد ثورة مروعة على الاستعمار البريطاني في العراق - قال له ما نصه: أسأل الله ألا يحرمنا من وجود أمثال الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وقال كلامًا أعظم من هذا تركته اقتصادًا، واستمر على التنويه بجهادي إلى يومنا هذا. وآخر مرة نوه بجهادي كانت في قصره بظاهر بيروت في الصيف الماضي حين دعاني إلى مأدبة جمعت خلقًا كثيرًا من أهل الفضل والعلم والأدب.

وأورد لك هنا أيها المسكين شهادة أخرى وزنها عند المجاهدين ثقيل ألا وهي شهادة المجاهد المغربي العظيم السيد محمد بن عبدالكريم قائد ثورة الريف المشهورة التي بهرت العالم، لأنه حارب دولتين أوروبيتين هما فرنسا وإسبانيا لمدة سنتين لمّا ذهبت لزيارته بالقاهرة في صيف سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى كان مريضًا في الطبقة الرابعة ملازمًا للفراش، وجاء خلق كثير إلى مقصورة الاستقبال من الصحفيين ورجال الدولة المبرزين فاستقبلهم أخوه وسميه المجاهد

محمد بن عبدالكريم واعتذر في الحال بأن أحضر عنده فجلست على كرسي إلى جانب سريره، فتلقاني بغاية الشوق والمحبة والترحيب وقال لي: لم يكن شيء يسليني في منفاي وغربتي مثل خطبك البليغة الرائعة التي كنت تلقيها في إذاعة برلين العربية، فأثنيت على جهاده وفضله فقال لي: أنت مجاهد أكثر مني، وما كنت لأغتر بهذه الكلمة التي صدرت من هذا الرجل العظيم لشدة إعجابه بتلك الخطب.

فكيف مع ذلك تتجرأ[١] أن تصمني بخدمة الاستعمار أو أخذ الأجرة من دعاة النصرانية الأوروبية أو الأمريكية؟ ومن يصدقك في هذا؟. ومتى رأيت أنت أو رأى أحد من البشر غيرك جماعة من دعاة النصرانية تبذل الأموال لدعوة الناس إلى توحيد الله واتباع رسول الله ﷺ؟! فقد انقلبت هذه الجماعة من دعوتها إلى النصرانية إلى الدعوة إلى الدين الحنيف ملة إبراهيم! ومن كان يعطيني أجرة على الدعوة إلى الله في صعيد مصر حين كنت أنت لم تخرج إلى الدنيا سنة ١٣٤١هـ؟! ومن كان يعطيني أجرة على الدعوة إلى الله في تطوان؟! ومن كان يعطيني أجرة في الدعوة إلى الله في بغداد؟! أنا لم أعش بالدين قط مع أني ولله الحمد على دين الحق.

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً ضَعِيفُ الْهَوَىٰ يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابَا

ولكنك أنت ومن يحلب في إنائك تعيشون وتأكلون بدين الشرك، وتصدون الناس عن سبيل الله وتبغونها عوجًا، وسنرى من يصدق الناس كلامه؛ أأنت أم أنا؟، ولكن ما جاء في المثل بل هو من كلام النبوة القديمة «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ونظمه بعضهم فقال:

فَلَا وَاللهِ مَا فِي الدِّينِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

وقد سمعت بعد ما رجعت من العراق إلى المغرب بعد الاستقلال أن أخاك العلامة المحقق الشيخ أحمد بن الصديق - الذي تدعي الاقتداء به زورًا وبهتانًا وأنت سالك غير سبيله - حين رجع المجاهد الأكبر في المغرب العربي محمد

(١) الخطاب موجّه لمن افترى على الدكتور الهلالي. والكلام السابق كان استطرادًا أثناء الحديث عن النوع السادس من أنواع البهتان التي افتريت على المؤلف.

الخامس -رحمة الله عليه- إلى عرش آبائه الأكرمين توجه إليه وطلب أن يدخل عليه للسلام والتهنئة، فرفض الملك أن يأذن له، ثم توجه إلى مصر وسمعت أن الحكومة المصرية اتهمته وأخاه عبدالله بالتجسس فحكمت عليه بسجن طويل وعلى عبدالله بالسجن المؤبد كما يسمونه، وأسفت لذلك لما أعرف فيه من العلم والفضل، ولما عاملني به من البر والكرم، وإني لأرجو أن يكون الله سبحانه وتعالى قد ختم له بالحسنى فتاب من الطريقة ومن كل ما كان مخالفًا لعقيدة السلف الصالح. والله على كل شيء قدير.

أما أنت فلا أعرفك ولا تعرفني، ولكن غلبت عليك شقوتك فتعرضت لشتمي بدون مناسبة، أما قولك في الوهابية فسأفرد له كتابًا علميًا ليس فيه لغو ولا تهور ولا شتم ولا كذب وسأسميه: (الدفع بالتي هي أحسن) وقد جنيت على نفسك، وعلى أهلها براقش تجني وأقول لك غير مفتخر:

وَإِنَّ لِسَانِي شَهَادَةٌ يُشْتَفَى بِهَا ... وَهُوَ عَلَى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

وأنشدتُ أيضًا:

دَعَانِي لِشبِّ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... فَقُلْت لَهُ: لا لا.. هَلُمَّ إِلَى السِّلْمِ

فَلَمَّا أَبَى أَلْقَيْتُ فَضْلَ عِنَانِهِ ... إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِحَزْمٍ وَلَا عَزْمِ

فَكَانَ صَرِيعَ الْخَيْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ ... فَبُعْدًا لَهُ مُخْتَارُ جَهْلٍ عَلَى عِلْمِ

وقد تعرض لي لما كنت مقيمًا في الشمال زمان الاستعمار رجال لا تساوي أنت قلامة ظفر أحدهم، فانقلبوا خائبين لأني بالله أستعين وإياه أستنصر وأستهدي وأدعو إلى سبيله على بصيرة، لا أريد بدعوتي إلا وجه الله ومنه أرجو القبول، فقل لي بالله: أي فائدة في الدعوة إلى رد التقليد وحده مع نصر الشرك الأكبر وعقيدة الاتحاد وتقديس إمامها ابن عربي الزنديق الذي أجمع الأئمة على كفره؟!

ولا يتسع المقام هنا لذكر أسماء الأئمة الذين حكموا بكفره في عصور مختلفة، وقد ألف الإمام إبراهيم بن عمر القاعي الحافظ كتابين في إقامة البرهان على كفر ابن الفارض وابن عربي أحدهما سماه: (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي) والثاني سماه: (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد)، أقام البرهان فيه على كفر ابن الفارض وأمثاله من أصحاب وحدة الوجود، ونقل في هذين الكتابين نقولًا وافية شافية عن اثنين وثلاثين إمامًا من بلدان مختلفة في عصور مختلفة تقتصر على ذكر

أسماء اثني عشر إمامًا منهم لهم قدم صدق عند جميع المسلمين: الأول سلطان العلماء الإمام عزالدين بن عبدالسلام، والثاني الإمام ابن دقيق العيد، والثالث الإمام الحافظ زين الدين العراقي، والرابع شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والخامس تلميذه الحافظ شمس الدين ابن القيم، والسادس الإمام أبو حيان الأندلسي، والسابع الإمام تقي الدين السبكي، والثامن الإمام جمال الدين بن هشام صاحب المغني، والتاسع الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي مؤلف تذكرة الحفاظ، والعاشر الإمام الحافظ تقي الدين الفاسي مؤلف تاريخ مكة، والحادي عشر إمام الصوفية في عصره أبو القاسم القشيري، والثاني عشر الإمام السهروردي مؤلف عوارف المعارف، فأي امرئ عنده ذرة من الإيمان والنصيحة لنفسه وللمسلمين يخالف هؤلاء الأئمة ويقدس الشيخ الأشد كُفْرًا ابن عربي الحاتمي وشيعته؟! لا جرم أنه لا يفعل ذلك إلا زنديق مثلهم. ولا يجوز التوقف في الحكم عليهم، قال الإمام البقاعي في كتابه تحذير العباد المتقدم الذكر ما نصه: «ولا يسع أحدًا أن يقول: أنا واقف أو ساكت لا أثبت ولا أنفي لأن ذلك يقتضي الكفر، لأن الكافر من أنكر ما علم من الدين بالضرورة، ومن شك في كفر مثل هذا كفر، ولهذا قال ابن المقري في مختصر الروضة: من شك في اليهود والنصارى وطائفة ابن عربي فهو كافر».



الحدث الثاني في تطوان ونواحيها

وضعت حاشية على كتاب كشف الشبهات لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب وطبعتها ونشرتها، ولكنني استعملت في ذكر اسمه ما يسمى في مصطلح الحديث بتدليس الشيوخ، وهو جائز بل مستحسن إذا أريد به الإصلاح، وذلك أن الشيخ يكون له اسمان اشتهر بأحدهما ولم يشتهر بالآخر فيذكره الراوي عنه بالاسم الذي لم يشتهر به لمصلحة في ذلك، أما إذا فعل ذلك، ليوهم الناس علو سنده وترفعه عن الراوية عنه ليوهم الناس أنه لا يتنزل الرواية عن مثله لصغر سنه أو عدم شهرته أو غير ذلك من حظوظ النفس الأمارة فهو مذموم، وقد سميت الشيخ محمد عبدالوهاب بن سليمان الدرعي فنسبته إلى جده ثم نسبته إلى الدرعية وذلك حق فهي بلدته ولكن لم يشتهر بذلك، وزاد الأمر غموضًا أن في المغرب كورة تسمى (درعة) والنسبة إليها درعي، فنجحت فيما قصدته من ترويج الكتاب، فقد طبعت ألف نسخة فبيعت في وقت قصير.

ولم يتفطن أحد لذلك حتى الشيخ أحمد بن الصديق مع سعة اطلاعه وعلو همته في البحث وكثرة ما في خزائنه من الكتب بقي في حيرة لأنه بحث في تاريخ المنسوبين إلى (درعة) فلم يجد أحدًا منهم يسمى بذلك ولا أثر عنه هذا الكتاب، فبعث إلي يسألني عن هذا المؤلف من هو فأخبرته بالحقيقة، ولما اطلع العلم الأجلّ مفتي المملكة العربية السعودية وشيخ شيوخها الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمة الله عليه- على هذا العمل استحسنه كل الاستحسان.

وإنما فعلت ذلك لأن المتأخرين من رجال الدولة العثمانية حرضوا شرار العلماء في جميع البلاد الإسلامية على تشويه سمعة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وكذبوا عليه، وأوهموا أتباعهم أنه جاء بدين جديد، وأنه يتنقص جانب النبي الكريم ويكفر المسلمين، إلى غير ذلك من الأكاذيب. وقد تبين لأكثر الناس بطلان تلك الدعوى وعلموا علم اليقين أن محمد بن عبدالوهاب من كبار المصلحين الذين فتح الله بدعوتهم عيونًا عميًا وآذانًا صمًا، وأنه أحيا العمل بكتاب الله وسنة رسوله في جزيرة العرب بعد ما كاد يندثر.

وإلى الآن لا يزال بعض الغربان ينعقون بسببه؛ كالغراب الذي تقدم ذكره، وذلك لا يضره؛ إن كانوا مسلمين فإن سبهم له يجعل حسناتهم في صحيفته وإن كانوا مشركين فإن الله يزيدهم عذابًا.

ولما طبع هذا الكتاب غضب عباد القبور وأصحاب الطرائق، وخطب كثير من أئمة المساجد خطبة الجمعة ونبهوا المستمعين إلى ما في هذا الكتاب من الضلال بزعمهم، لأن توحيد الله عندهم أعظم الضلال، ولكن لم يستمع لهم أحد، أما العلماء المحققون، كالأستاذ محمد الطنجي والأستاذ المجاهد عبدالسلام المرابط والأستاذ العبقري عبدالله كنون فإنهم رحبوا بطبع هذا الكتاب وأثنوا عليه وعلى مؤلفه وناشره، ولا يضر السحاب نبح الكلاب.

مَا ضَرَّ بَدْرَ السَّمَا فِي الأُفْقِ تَنْبَحُهُ   سُوْدُ الْكِلَابِ وَقَدْ مَشَى عَلَى مَهَلِ

ثم طبعت رسالة زيارة القبور مع حواشٍ قليلة لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية وسميته أحمد عبدالحليم الحراني، ولم أذكر لفظ ابن تيمية للعلة السابقة الذكر، فراج الكتاب وانتشر ونفع الله به المسلمين، ولما بعثت من كل من الكتابين نسخة إلى الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمة الله عليه- فرح بنشرهما واستحسن الطريقة التي سلكتها لبعد نظره ووفور عقله وحكمته.

وقد جربت في بلاد المغرب في الشمال والجنوب أن نشر كتب التوحيد واتباع السنة يتوقف على نجاح الدعوة إلى الله في المساجد؛ فإذا درس الداعي كتابًا من كتب التوحيد، وبين للمستمعين ما فيه من كنوز العلم والحكمة يرغب المستمعون في اقتناء ذلك الكتاب، وبقراءته تتسع معرفتهم للحق ويزدادون اطمئنانًا ويقوى إيمانهم وتندفع عنهم الشبهات.

فمن ذلك: أنني درست في الجامع الكبير كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب وختمته في ذلك المسجد مرتين، فانتشر هذا الكتاب انتشارًا عظيمًا حتى أني طلبت من جلالة الملك فيصل -جزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء- بواسطة فضيلة الشيخ عبدالملك بن إبراهيم بارك الله في حياته أن يمدني بنسخ من فتح المجيد، فأمر بإرسال ثلاثمائة وثلاث وأربعين نسخة بالبريد الجوي، فبدا لي أن لا أوزعها مجانًا لأمرين: أحدهما: أنني لا آمن أن تقع بعض النسخ في أيدي أعداء التوحيد فيحرقوها، وقد رأيناهم يفعلون ذلك في المشرق والمغرب؛ فإذا فرضنا أن شخصًا أو أشخاصًا بلغ بهم التعصب

إلى أن يشتروا الكتاب ويحرقوه فإن ذلك لا يضرنا، لأننا نجمع دراهمه ونطبعه مرة أخرى، ولا شك أنه لا يفعل ذلك منهم إلا قليل، لأن الناس مجبولون على حب المال والبخل به ولا يبذلونه إلا فيما هو أحب منه إليهم، الأمر الثاني: ما قاله المؤلف الإنكليزي الطائر الصيت (برنارد شو) أن الكتاب الذي لا يدفع ثمنه لا يقرأ.

فبيعت تلك النسخ كلها إلا قليلًا منها منحته للمستحقين ولم آخذ منهم لعلمي بفقرهم وصدقهم. بيعت في مدة قصيرة وصار الكتاب في حكم المفقود، وكنت أبيع النسخة بستة دراهم فقط، ولم يكن يروج إلا في البلدان التي تلقى فيها دروس التوحيد كمكناس وتطوان وأرفود، أما مكناس وأرفود فإنني ألقي فيهما دروسًا في التوحيد، وأما تطوان فقد تقدم أني دعوت إلى التوحيد فيها. وفي هذا الزمان يوجد فيها داع وهو أخي الأستاذ محمد العربي الهلالي، وصار الناس في هذه النواحي يبحثون عن هذا الكتاب ليشتروه بضعف ثمنه فلم يجدوا منه شيئًا، ولما ذكرت ذلك لصاحب السماحة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز -أمتع الله المسلمين بطول بقائه- وأخبرته أنني جمعت من بيع تلك النسخ ألفًا وثمانمائة وخمسين ريالًا سعوديًا قال لي: وأنا أتبرع بستمائة ريال تضاف إلى ذلك ونشترك في طبعه من جديد، والكتاب الآن تحت الطبع، وذكرت ذلك أيضًا للعالم الجليل بقية السلف الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ -أمتع الله المسلمين بطول بقائه- فوعدني بتحصيل ألف نسخة، وهو كريم لا شك أنه يفي بوعده. وهذا الكتاب مع وجود الداعي الناجح في دعوته يساعد على نشر الدعوة مساعدة عظيمة لا ينقضي منها العجب. أما البلد الذي ليس فيه داع فإنه لا يروج فيه أصلًا، فقد بعثت خمس نسخ إلى مدينة مشهورة في المغرب فبيع منها في سنة ثلاث نسخ فقط.



الحدث الثالث
هَمُّ جماعة من الناس بقتلي

وهذا الحدث فيه عبرة لمن اعتبر. فإني أصبت بداء الربو في تطوان واشتد علي ففرح المشركون عباد القبور وأصحاب الطرائق، وقالوا إن الولي الأكبر رئيس الأولياء في تطوان واسمه السعيدي وله ضريح عليه قبة يعبده كثير من الناس، وإذا قحطوا يذهبون إليه ويسألونه المطر ويوافقهم سفهاؤهم الذين يسمونهم فقهاء.

فبينما أنا مريض ملازم للفراش في بيت منفرد خارج تطوان وزجاج طاقته مكسور، فمن أراد أن يرميني برصاصة لا يحتاج إلا إلى حجر واحد يضعه إلى جانب الجدار فيطل علي ويرميني، بينما أنا كذلك جاءني أحد تلامذتي - وهو السيد محمد العبودي - فقال لي: إن فلانًا جاءني وقال لي: إنه هو وأمير قبيلة بني عروس وجماعة معهم وعدد الجميع خمسة وعشرون رجلًا قد اجتمعوا في بيت أحدهم وتعاهدوا على قتلك، وجمعوا الدية حتى إذا كان لك ورثة يدفعونها لهم، وقال لي: إن صاحبكم في حكم الأموات فعما قريب نقتله ونريح الناس من شره، لأن الوقاحة بلغت به على أن طعن في جدنا القطب عبدالسلام بن مشيش، قال لي ذلك وأنا مريض ملازم للفراش كما تقدم فقلت: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥١ - ٥٢].

ولما أصبحت تحملت كلفة المشي إلى الزعيم عبدالخالق الطريس - رحمه الله - وأخبرته الخبر فقال لي: إن هذا الرجل ومن معه هم أتباع وأقارب خالد الريسوني أمير العرائش، وقد أطلق المستعمرون يده يفعل ما يشاء ففوض أمرك إلى الله وتوكل عليه، فقلت له: هذا هو الرأي الذي عزمت عليه وإنما قصدت إخبارك.

ومضت على ذلك سنتان وأنا أقاسي ألم الربو وأبيت الليالي الطوال جالسًا أسعل وألهث، وكلما اشتدت نوبة الربو تخور عزيمتي وأقرر في نفسي أنني متى أقلعت عني هذه النوبة أذهب إلى القنصل الفرنسي وأستسلم وأطلب العفو، لأني

أعلم بواسطة الأطباء أن دوائي هو الهواء الناشف، والأراضي الشمالية التي بأيدي الإسبانيين كلها رطبة قريبة من البحر الذي كان يسمى بحر الروم، ويسمى الآن عند الأوربيين ومن تبعهم بما معناه البحر الأبيض المتوسط وهو الذي عليه مراسي شمال المغرب والجزائر وتونس وطرابلس - التي تسمى اليوم ليبيا - والإسكندرية وبيروت ومراسي أوروبا والبلاد التركية، فأعرض مكان في هذا القسم من المغرب لا يزيد عرضه على ثلاثين ميلًا وهو مستطيل من الغرب إلى الشرق، ولكني حين تزول عني نوبة الربو تعود إلي شجاعتي وتجلدي. بقيت على ذلك ثلاث سنين ونصفًا إلى أن يسر الله لي الرجوع إلى العراق ولم أستسلم، وتقدمت محاورتي مع القنصل الفرنسي في تطوان، وفررت من الرطوبة إلى غرناطة من بلاد الأندلس وأقمت فيها أربعة أشهر، ولكنها هي أيضًا ليست بعيدة من البحر.

ثم رجعت إلى تطوان وقيل لي: إن مدينة شفشاون على جبل عال ثم إنها بعيدة من البحر نحو خمسة عشر ميلًا فلو جربت الإقامة بها، فسافرت إليها يرافقني تلميذي الحاج أحمد هارون -بارك الله فيه- فلما أردنا أن نأخذ غرفة في الفندق الجميل المخصص للسائحين امتنع صاحبه - وهو نصراني إسباني - أن يعطينا غرفة لما رآني أسعل وألهث وأبصق في كل حين، ورأى أن ذلك يتقزز منه النازلون في الفندق وكلهم من المترفين، فبقيت في مكتب الفندق جالسًا على كرسي أفكر أين أنزل، فجاءني رجل أبيض أشيب تدل هيئته على أنه من أعيان البلد، فقال لي: تعرفني؟ قلت: لا. فقال لي: أنا أحمد الريسوني، وأنا من المحبين لك وأنا مستعد لإنزالك في بيتي على الرحب والسعة وسأكون سعيدًا بإقامتك عندي ما شئت من الزمن، ولكن الحكومة سنت قانونًا يمنعنا من إنزال الضيوف عندنا في الليلة الأولى، ويوجد هنا فندق حقير يمكن أن تمضي فيه هذه الليلة وفي الغد تنزل في بيتي فقلت له: جزاك الله خيرًا، فأمضيت تلك الليلة في ذلك الفندق الذي أخبرني به ثم نزلت عنده وبقيت عنده بضعة أشهر وأكرمني غاية الإكرام.

وحين استقررت في بيته حكى لي حكاية المؤامرة على قتلي بالتفصيل فقال لي: بلغنا أنك تطعن في كرامات الأولياء وولايتهم وتطعن بالخصوص في جدنا مولاي عبدالسلام بن مشيش، فغضبنا لذلك وعزمنا على قتلك وجمعنا أن نشاور رئيسنا سيدي خالد الريسوني فذهبنا إليه ثلاثتنا وتكلم أمير بني عروس وهو يبكي وقال: يا ابن العم لا خير في الحياة بعد أن نسمع القدح والطعون في شيخ الشيوخ

وإمام العارفين جدنا عبدالسلام بن مشيش والذي يطعن فيه وينتهك حرمته رجل غريب حقير وهو فلان - وسماني - وقد عزمنا على قتله وجمعنا ديته وما بقي لنا إلا إذنك، فأيدت أنا وفلان كلامه وإذا بالأمير خالد يتكلم ويقول: إن محمدًا تقي الدين الهلالي عالم من خيرة العلماء وأنتم لا تعرفونه وأنا أعرفه، وجدنا عبدالسلام عالم فاتركوا العلماء إذا تكلموا بعضهم في بعض فليس للجهال أن يتعرضوا لهم. ثم قال لنا: أيكم سمع طعنه في جدنا؟ فقلنا: هذا متواتر على ألسنة الناس، فقال: الناس يكذبون ويفسدون في الأرض ولا يصلحون. كل منكم ينصرف إلى شأنه واتركوا هذا الأمر فهذا ليس من شأنكم.

قال: فأما أمير بني عروس فقد رضي بقوله ولم يبق في قلبه شيء وقال: يا بن عمي أنت عالم ونحن جهال؛ إذا أخطأنا تردنا إلى الصواب قال: أما أنا وفلان - ولم أسمه؛ لأنه حي يرزق ولم يبلغني ندمه على ذلك - فإننا لم نقتنع بما قاله لنا سيدي خالد، ولكننا لا نستطيع أن نعمل شيئًا بدون رضاه، قال: فتفرقنا فانطلق فلان إلى أهله وتوجهت أنا إلى تطوان لا ألوي على شيء حتى لقيت وزير الأوقاف محمد بن موسى، فقلت: أيها الوزير، أما تخاف الله؟ كيف تعطي من أوقاف المسلمين خمسمائة بسيطة لهذا الضال المضل الهلالي الذي ما ترك أحدًا إلا طعن فيه؟! طعن في مذهب الإمام مالك ورجاله، وطعن في الأولياء كلهم وأنكر كرامتهم، وبلغت به الوقاحة إلى أن طعن في جدنا القطب عبدالسلام بن مشيش قال: فقال لي: لا ينبغي لنا أن نحكم بقيل وقال، إنه يلقي ثلاثة دروس في كل أسبوع فماذا يضرك أن تحضر دروسه وتسمع كلامه قال: فقلت: أفعل إن شاء الله.

قال: وأقمت أسبوعًا في تطوان حضرت دروسك فيه فما سمعت إلا خيرًا وندمت على ما كان مني. وقد مضت علي سنتان طالما هممت أن آتيك وأطلب منك العفو فلم أوفق إلى أن سنحت لي هذه الفرصة السعيدة، فحياك الله وأهلًا وسهلًا بك.

ووجدت أن هواء شفشاون خصوصًا في الصيف أقل ضررًا من هواء تطوان فبقيت فيها خمسة أشهر إلى أن حدثت الحادثة الآتي ذكرها إن شاء الله.



معركة مع شيخ متصوف من أهل تطوان

كان هذا الشيخ – ولا أسميه – كأكثر متصوفة الوقت آلة بيد المستعمرين يمدحهم ويثني عليهم، وقد ولوه وزارة العدل في وقت من الأوقات وجعلوه رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى في وقت آخر، فضيفني أول ما قدمت تطوان وأملى علي الحديث المسلسل بالأولية إلى سفيان الثوري عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبدالله بن عمرو عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» أخرجه جماعة منهم البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي وصححه. وفعل ذلك طمعًا أن أرويه عنه، وأنا لا أروي شيئًا عن طرقي وهذا الشيخ المفتون تجاني فنسأل الله العافية.

فلما رآني جردت السيف في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة البدع ذمني في دروس وعظه، فهجوته بثلاث قصائد ضاعت مني الأولى وهي التي أقضت مضجعه – ومن عادتي إذا أردت أن أهجو أحدًا أن أبحث عن عيوبه التي يؤلمه نشرها وسماعها فأنظمها في سلك القصيدة، ولا أقتصر على الشتم المجرد، لأن ذلك لا يؤلم كثيرًا ولا عبرة بقول من قال: أحسن الشعر أكذبه، بل أحسن الشعر أصدقه – وعدد أبيات هذه القصيدة ستة وعشرون، وكان ساعدي الأيمن في نشر قصائد الهجو لمن يستحقه تلميذي البار الحاج أحمد هارون فكان يطبع القصائد في آلة المعهد الحر، ويخرج منها نسخًا كثيرة يوزعها على الناس بإلقائها في دكاكينهم أو في جيوب ثيابهم المعلقة حين يتوضأون، وقد قامت هذه القصائد الهجائية اللاذعة لي مقام العشيرة والعصبة والمناظرين، وقرض الشعر أمر محمود إذا كان صاحبه لا يظلم الناس ولا يكذب في مدحهم وذمهم. قال ابن الوردي في لاميته:

أَنْظُمُ الشِّعْرَ وَلَازِمْ مَذْهَبِي ... اطِّرَاحُ الرِّفْدِ فِي الدُّنْيَا يُجِلْ

فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا ... أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذْ لَمْ يُبْتَذَلْ

وقال بعض العلماء وأظنه محمدًا الأمير الصنعاني –رحمة الله عليه– ما معناه:

إن من أفضل ما يتحلى به العالم أن تكون عنده ملكة قرض الشعر ينتصر به على خصومه ويبين به الحق.

والمخازي التي ذكرتها في القصيدة المذكورة أهمها قصة وقعت له مع شخص محتال - لا أسميه لأنه لا يزال في قيد الحياة - وكان ذلك الرجل شابًا يحسن الاحتيال فجاء إلى ذلك الشيخ المتصوف المفتون، وكان يعلم أنه يعتقد أن في كل زمان القطب الغوث الفرد الذي لا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه، وهو المتصرف في السماوات والأرض وبه تقوم السماوات والأرض وهو محل نظر الحق من خلقه، وهو خليفته في خلقه، ولو غفل عن العالم طرفة عين لاندك العالم وصار عدمًا محضًا (انظر كتابي الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية) فجاء ذلك الرجل إلى الشيخ المذكور وادعى له أنه القطب؛ فافتتن به وأخذ يخدمه بنفسه مع أن الخادم تجاوز السبعين والمخدوم في أوائل الشباب، وكانت عند الشيخ ابنة استحسنها القطب الكاذب فأمره أن يزوجه إياها فأحضر الشهود في الحين وزوجه بها وصار أهل المدينة يسخرون منه وقد دنا وقت الحج.



السفر إلى مكة في لحظة

قال الشيخ للقطب: يا سيدي سمعنا أن بعض الشيوخ يحج بطريق الخطوة بحيث يسافر إلى مكة بخطوة واحدة فما رأيكم في ذلك؟ فقال: ذلك صحيح، وأنا من الذين يحجون على هذه الطريقة، فقال: يا سيدنا وهل يمكنك أن تصحب معك أحدًا؟ فقال: كيف لا يمكن؟! كل شيء عند أولياء الله ممكن. قال: يا سيدي فهل لك أن تحج بنا في هذه السنة؟ فقال: يكون ذلك؛ قال: أريد أن ترافقنا زوجتي أيضًا، فقال: لا بأس. وعند ذلك ازداد الشيخ تعظيمًا لهذا المحتال، وبالغ في عبادته هو وأهل بيته، ولما جاء يوم عرفة اغتسل وزوجته ولبسا ثياب الإحرام، وبقيا ينتظران القطب يأخذ بأيديهما ويطير بهما إلى مكة إلى أن كادت الشمس تغرب،

فعيل صبر الشيخ وقال: يا سيدي إن الفقهاء يقولون لابد من الوقوف بعرفة قبل غروب الشمس وقد كادت الشمس تغرب. فقال: بسم الله قوما. فصعد بهما إلى السطح.

ومن عادة أهل تطوان أن يجعلوا في كل سطح جلاء. وهذا الجلاء يكون على قدر ما تدخل الشمس والنور والهواء ويكون مربعًا في كل ركن من أركانه تبنى سارية قصيرة ويوضع على السواري سقف فيدخل النور والهواء إلى أسفل من أربع جهات ولا يدخل المطر، فذهب القطب يتقدمهما حتى وقف على الجلاء وقال أنتما أعميان ألا تنظران هذه الكعبة؟! فهلم نطوف بها فطافوا بذلك الجلاء سبعة أشواط، ولكن الشيخ لم ير كسوة الكعبة ولا الحجر ولا مقام إبراهيم ولا زمزم ولا أحد يطوف بتلك الكعبة ولكنه لم يستطع أن يتكلم تعظيمًا للقطب.

ولما سمع أهل تطوان بهذا الحج المبرور ازدادوا سخرية وصار الناس لا يتحدثون ويتفكهون إلا بهذه الحكاية، فجاء أصدقاء الشيخ وأخبروه بأنه صار مضغة في الأفواه وأن هذا الشاب قد جعله أضحوكة ونصحوا له بطرده فطرده وأجبره على تطليق ابنته.

ولما شاعت القصيدة عند الناس بلغه خبرها، وكان في ذلك الوقت مشرفًا على التعليم الديني ورئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى، فبلغه أن نسخة من القصيدة في مكتب مدير المعارف فأمر بإحضارها فكذبوا عليه، وقالوا: ما عندنا شيء، فبعث خادمه إلى فضيلة الأستاذ محمد الطنجي رئيس قسم الوعظ والإرشاد في وزارة الأوقاف المغربية في الوقت الحاضر، وكان في ذلك الوقت تاجرًا؛ لأن الاستعمار حرمه من جميع المناصب العلمية، فقال له: يسلم عليك الشيخ ويطلب منك نسخة من القصيدة التي هجاه بها الهلالي، وهذه ست عشرة بسيطة مع أن القصيدة في صحيفة واحدة لا تساوي ربع بسيطة، فقال له الأستاذ المذكور: سلم عليه وقل له: ما عندي منها شيء. والقصيدة الثانية فيها إقذاع ضربت عنها صفحًا، أما الثالثة فقد كانت، بإذن الله الذي وعد رسله وأتباعهم بالفتح والنصر المبين، كانت مقرونة بالقضاء على هذا الشيخ.



عزل الشيخ المتصوف الذي حج على سطح بيته من جميع المناصب العلمية والدينية

كنت قد سميت القصائد الثلاث بأسماء مطابقة لحوادث ذلك الزمان ففي ذلك الزمان كان الجرمانيون في أوج عزتهم، وكانوا قد اخترعوا القنبلة الموسومة برقم (١) ثم القنبلة الموسومة برقم (٢) ثم القنبلة الموسومة برقم (٣) وكانت هذه القنبلة الأخيرة ترسل من البلاد الجرمانية إلى مبنى بعينه في لندن عاصمة بريطانيا فتصله في بضع دقائق وتدمره في أسرع من طرفة عين، وقد سمعت رجلًا يتحدث في إذاعة لندن من الذين نجوا من الموت بعد ما أرسلت قنبلة رقم (٣) على المبنى الذي كان يسكن فيه فدمرته في لحظة، قال الرجل: كنت نائمًا في غرفتي فما شعرت إلا وأنا في المستشفى لأن رجال الإسعاف أخرجوني من تحت الأنقاض مغمى عليّ وأسعفوني بالعلاج، سمعت ذلك من إذاعة لندن باللغة الإنكليزية.

وبإلهام من الله تعالى سميت القصائد الثلاث بالأسماء المذكورة، فكانت القنبلة ذات رقم (٣) كما أملت مقرونة بالكارثة التي أصابت هذا الشيخ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] والحنفاء أهل لا إله إلا الله يتقون الله بتوحيده وترك الشرك به واتباع نبيه الكريم، فيجعل الله لهم مخرجًا من كل شدة ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وينصرهم على أعدائهم. فيا أيها المسلم الموفق حقق التوحيد والاتباع تر العجب العجاب؛ قال تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

كان هذا الشيخ أكبر مفت في شمال المغرب، وتقدم أنه كان قد تولى وزارة العدل مدة من الزمان، وكان - كأكثر المفتين - من المقلدة الأغمار إذا جاء أحدهم سائل عن حكم قضائي يقول له مثلًا: تعطيني الآن نقدًا خمسمائة درهم أجرة البحث في كتب الفقه، فإن وجدت لك قولًا يمكنك من الغلبة على خصمك تعطيني خمسة آلاف درهم، وإن لم أجد شيئًا لم آخذ منك إلا ما تقدم، فإذا وجد

قولًا من أقوال مجتهدي المذهب ينصر قضيته أخذ منه المقدار المشروط وأعطاه الفتوى، وإن لم يجد شيئًا غنم خمسمائة درهم وصرفه. كذلك خصمه يذهب إلى مفت آخر فيعامله بالمعاملة نفسها، فإذا اجتمعت الحجج والفتاوى عند القاضي في مدة سنين طويلة وكان نزيهًا لا يأخذ رشوة - وذلك نادر - يرجح إحدى الفتويين ويحكم لصاحبها بغير ما أنزل الله، فيحل الفروج ويسفك الدماء في زمان الاستقلال. أما في زمان الاستعمار فإن أحكام القتل والجروح جعلت لها محاكم عرفية، وعزلت المحاكم الشرعية عنها، وكذلك ينقل الأموال من ملك زيد إلى ملك عمرو بآراء الرجال التي ما أنزل الله بها من سلطان فينطبق عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] والظالمون والفاسقون، وهذا أمر معروف في بلاد المغرب لا يزال العمل جاريًا به.



فتوى الشيخ المتصوف

أما هذا الشيخ العارف باللاهي لا بالله فقد أفتى فتويين متناقضتين غريبتين عجيبتين:

وقعت خصومة على مال بين تاجرين مغربيين أحدهما يهودي والآخر مسلم، فانطلق اليهودي إلى الشيخ المفتي فعامله بالمعاملة التي تقدم ذكرها وأخذ منه آلافًا من الدراهم وأصدر له فتوى تحتم على القاضي أن يحكم له، فقال القاضي للتاجر المسلم: هات ما ينفعك من الحجج، فذهبت زوجته وكانت إسبانية إلى المفتي نفسه الشيخ المتصوف العارف وسلمت له ستة آلاف درهم فأصدر لها فتوى تحتم على القاضي أن يحكم لزوجها على خصمه اليهودي.

وكانت المحاكمات في زمان الاستعمار كلها تترجم باللغة الإسبانية ويطلع عليها الحكام الإسبانيون قبل إصدار الحكم، فترجمت الفتويان المتناقضتان ورفعتا من حاكم إلى حاكم حتى بلغتا إلى المقيم العام وهو الحاكم الأعلى فغضب غضبًا شديدًا، وكتب إلى خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي يقول: نحن لم نرد أن نتدخل في شريعتكم فتركناكم أحرارًا تحكمون في محاكمكم بشريعتكم، وأنتم تزعمون أن هذه الشريعة وضعها لكم محمد، وهو أخذها من القرآن الذي هو كلام الله حسب اعتقادكم؛ فانظر إلى هاتين الفتويين المتناقضتين الصادرتين من مفت واحد يقول: إن الشريعة الإسلامية تجعل الحق لليهودي ولخصمه في قضية واحدة؛ فإما أن تكون شريعتكم في أصلها فاسدة باطلة، وإما أن تكونوا قد كذبتم على الله وعلى محمد. هذا معنى ما كتب به المقيم العام إلى خليفة السلطان في شمال المغرب.

فلما قرأ الخليفة كتاب المقيم العام أصابه من الغم والحزن ما كاد يقتله، فدعا الوزراء والمستشارين وغضب عليهم غضبًا شديدًا، وقال: ألا ترون إلى هذا المجرم كيف فضحنا عند الأجانب وألصق بشريعتنا كذبًا وزورًا وطمعًا هذا الخزي، فماذا يستحق من العقاب؟ فقالوا كلهم: الرأي لسيدنا؛ فقال: اتقوا الله وقولوا ما أوجب الله عليكم فأعادوا جوابهم. فقال: أنا أحكم عليه بالعزل من جميع المناصب

الدينية والعلمية والدنيوية، ولو قدرت على أكثر من هذا لحكمت عليه به، فعُزل من الإمامة والخطابة والوعظ والشهادة ولم يبق له شيء إلا منصبًا واحدًا وهو رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، لأن هذه لم تكن بيد الخليفة بل كانت بيد المستعمرين الإسبانيين، ولكن الإسبانيين لما رأوا الخليفة قد عزله من جميع المناصب التي في يده عزلوه هم أيضًا من رئاسة المجلس الإسلامي فبقي لا يجد ما ينفق.

وقد رأيت من المستحسن أن أذكر هنا نخبة من القصيدة الموسومة «فاو(٣)» وهذا لفظ ألماني وترجمته القنبلة الموسومة برقم (٣) وفرق بين هذه القنبلة الحنيفية وبين القنبلة الهتلرية، فإن العدو الذي كان يحارب بالقنبلة الهتلرية استرجع قوته وانتصر على هتلر، أما عدو الحنيفية فكانت تلك القنبلة قاضية عليه ولم تقم له بعدها قائمة، وهذه نخبة من القصيدة المشار إليها:

أَتَشْتُمُنِي يابنَ اللِّئَام بِلَا سَبَبْ ... وَأَنْتَ - يَمِينُ اللهِ - قِرْدٌ بِلَا ذَنَبْ

فَلَا أَنْتَ ذُوْ عِلْمٍ وَلَا أنتَ ذُو حِجًا ... وَلَا أَنْتَ ذُو تَقْوَى، وَلَا أَنْتَ ذُو حَسَبْ

وَلَا أَنْتَ ذُو عِرْضٍ مَصُونٍ مُوَقَّرٍ ... وَلَا أَنْتَ ذُو حِلْمٍ وَلَا أَنْتَ ذُو نَسَبْ

شَوَى الحَسَدُ المَمْقُوتُ قَلْبَك فِي لَظَى ... فَأَصْبَحَ يَبْدُو اليَوْمَ مِنْ فَمِكَ اللَّهَبْ

رَأَيتَ صَنِيعَ اللهِ بِي وَهِبَاتِهِ ... فَنَالَكَ مِنْهَا كالْجُنُونِ وَكَالْكَلَبْ

تُرِيدُ بِقَوْلِ الهَجْرِ تُطْفِئُ نُوْرَهُ ... وَمَنْ رَامَ يُطفِي نُورَهُ مَسَّهُ العَطَبْ

وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَا ... فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْطِيعُ مَنْعًا لِمَا وَهَبْ

تُحَارِبُ ربَّ النَّاسِ فِي أَوْلِيَائِهِ ... وَمَنْ حَارَبَ الجَبَّارَ أَوْدَتْ بِهِ الحرَبْ

وَقَدْ وَعَدَ الرَّحْمَنُ بِالنَّصْرِ حِزْبَهُ ... بأَنَّ لَهُمْ دومًا عَلَى المُعْتَدِي الغَلَبْ

وَمَنْ يَقْفُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ وَهَدْيَهُ ... وَيَنْصُرُهُ يُصْبِح ظَافِرًا عَالِي الرُّتَبْ

وَمَنْ يُخْلِصِ التَّوْحِيدَ للهِ وَحْدَهُ ... يَكُنْ مُمْسِكًا في دِينِه أَيَّمَا سَبَبْ

فَلَا نَزَغَاتِ الشِّرْكِ تُوْهِنُ عَزْمَهُ ... وَلَا نَفَثَاتِ البَطْلِ تُثْنِيه إِنْ وَثَبْ

وَلَا هَجْرَ دَجَّالٍ مَهِينٍ يُضِيرُهُ ... مَتَى كَانَ نَبْحُ الكَلْبِ يَسْتَوْقِفُ الشُّهبَ؟!

وَذَلِكَ وَلِيُّ اللهِ جَلَّ جَلالُه ... يُدافِعُ عَنْهُ رَبُّهُ حَيْثُمَا انقَلَبْ

فَفِي يُونُسٍ فانْظُرْ كَرِيمَ صِفَاتِهِ ... وَدَعْ عَنْكَ قَوْلَ الْمُسْرِفِينَ ذَوْي الشَّغَبْ

فَإِيمَانُنَا بِاللهِ ثُمَّ تُقَاتِهِ ... وِلايَتُنَا للهِ كُلٌّ بِهَا اقْتَرَبْ

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيْثِ فَإِنَّهُمْ ... هُمُ الأَوْلِيَا حَقًّا وَغَيْرُهُمُ كَذِبْ

همُ حكَّموا قَوْلَ الرَّسُولِ وَقَدْ قَفُوا ... مَنَاهِجَهُ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ بِالأَدَبْ

وَكُلُّ نِزَاعٍ يَرْجِعُونَ لِقَوْلِهِ ... وَيَرْضَوْنَ حُكْمَ الْمُصْطَفَى حَيْثُمَا وَجَبْ

فَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيْجَةٍ ... وَلَا مَذْهَبَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو لَهُ ذَهَبْ

يَدِينُونَ بِالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ ... نَبِيٌّ وَرَبٌّ ثُمَّ دِينٌ لَهُ انْتَسَبْ

فَلَا ربَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مُحَمَّدٌ ... إِمَامٌ وَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي قَفْوِهِ سَبَبْ

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ الَّتِي يَسْتَجِيْبُهَا ... وَمَنْ يَدْعُ غَيْرَ اللهِ قَدْ خَابَ فِي الْطَّلَبْ

وَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيْثِ مُنَافِقٌ ... عَلِيْمَ لِسَانٍ لِلْفَضَائِلِ مَا انْتُدِبْ

وَمَنْ يَتْرُكَنْ يَوْمًا حَدِيْثًا مُصَحَّحًا ... فَمَا لَهُ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيْثِ سِوَى النَّصَبْ

دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ غَيْرَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ ... أَتُسْتَبْدَلُ الأَحْشَافُ يا قَوْمِ بالرُّطَبْ؟!

وَمَنْ يَعْدِلَنْ قَوْلَ الْرَّسُولِ بِغَيْرِهِ ... فَقَدْ عَدَلَ الْهِنْدِيَّ وَالْنَّدَّ بِالْحَطَبْ

انتهى المراد نقله منها.

عقيدة الأشعرية المخالفة لعقيدة السلف الصالح

بعدما استقررت في تطوان أنشأت هناك مجلة شهرية سميتها «لسان الدين» ونشرت فيها مقالات، بينت فيها بطلان عقيدة الأشعرية التي يدين بها أهل المغرب منذ عهد محمد بن تومرت ودولة الموحدين التي هي ثمرة دعوته إلى يومنا هذا، وكان أهل المغرب قبل ذلك على عقيدة السلف الصالح حتى أنهم لما وصل إلى المغرب كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي أجمعوا كلهم على إحراقه، واتفق علماء العدوتين الأندلسية والمغربية على ذلك لما فيه من علم الكلام المذموم فمن ذلك قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» يعني لا يمكن أن يخلق الله سبحانه عالمًا أفضل من هذا العالم. قال الغزالي: إذ لو كان ذلك ممكنًا وادخره لكان ظلمًا ينافي العدل. هذا معنى كلامه نقلته بمعناه ليفهمه عامة القراء، فهرب من نسبة الظلم المتوهم إلى الله تعالى إلى نسبة العجز إلى قدرته -تعالى الله عن ذلك-.

وآخر الدول المغربية التي كانت متمسكة بعقيدة السلف الصالح هي دولة المرابطين ويسمون أيضًا بالملثمين واللمتونيين نسبة إلى لمتونة وهي قبيلة من قبائل البربر. وفي ذلك قلت شعرًا من بحر المواليا:

يَا قَوْم إِنِ اعْتِقَادِي الدَّهْرَ لُمْتُونِي وَإِنْ زَرَّيْتُم عَلَى عَقْلِي ولـمُـتـوني

ون يو آر نت ستسفايد فجيئوني (أم دسكوتيرن) كنسوس لبروس أود رأوني

وهذا البيت الثاني يشتمل على أربع لغات العربية وهي فجيئوني، والإنكليزية وهي الكلمات التي قبلها، والجرمانية. وهي التي بعد فجيئوني، ثم الإسبانية ثم الجرمانية مرة أخرى ومعناه: إن كنتم لا تسلمون ذلك فجيئوني للمناظرة بكتبكم أو بدونها.

ونظم الشعر المؤلف من عدة لغات من المستملحات عند أهل الأدب، وقد نظم العالم الأديب المشهور الحسن اليوسي المغربي بيتًا من هذا القبيل فقال عند

وفاته:

(أتدرا تنومن) العلوم التي (ديكم) قد اندرست حقًا وصارت إلى (يركي)

ومعنى هذا البيت: يا داري أين العلوم فيك؟ قد اندرست حقًّا وصارت إلى الله. وهذا البيت مؤلف من ثلاث لغات: البربربة، والعربية، والفلاتية من لغات السودان لأن (يركي) هو اسم الله تعالى بهذه اللغة. يريد بذلك أن العلوم التي كانت في داره قد اندرست بوفاته.

وبينت في تلك المقالات أن الإمام أبا الحسن الأشعري - رحمه الله- برئ من العقيدة المنسوبة إليه، لأنه رجع عنها وألف كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)، وبين فيه أنه على عقيدة أصحاب الحديث والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وسمى منهم أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- وألف أيضًا كتاب (الإبانة عن أصول الديانة)، وألف الحافظ ابن عساكر كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري). والطائفة التي تسمي نفسها أشعرية تركت كتبه التي رجع إليها وتمسكت بالعقيدة الكلابية والمعتزلية التي كان عليها وتاب منها.

فما انتشرت تلك المقالات وأضفت إليها كتاب (مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل)، وهو كتاب مختصر ألفته لإخواني السلفيين بطلب منهم يشتمل على عقيدة أهل الحق وأحكام العبادات، مأخوذة من نصوص الأحاديث الصحيحة، فظن السفهاء الذين يزعمون أنهم فقهاء أنهم وجدوا فرصة تمكنهم من القضاء على دعوتي، فذهبوا إلى الخليفة مولاي الحسن بن المهدي وقالوا له: إن الهلالي قد طعن في عقيدة أسلافك الطاهرين وضللهم. وهذا الأمير من أهل العقل الثاقب والهمة العالية لذلك توقف في قبول دعواهم ودعا الأديب العبقري والمؤلف الموفق فخر المغرب في هذا الزمان الأستاذ عبدالله كنون عضو المجمع العلمي في القاهرة، وسأله عما نقله إليه أولئك السفهاء، فقال له: يا صاحب السمو لا تسمع لقولهم فإن العقيدة التي يدعو إليها الهلالي هي عقيدة النبي ﷺ والسلف والخلف ومنهم آباؤك الأكرمون، وقد بين ذلك الإمام محمد بن عبدالله العلوي عالم الملوك وملك العلماء في كتبه، فبطل كيدهم.



التعيين في خزانة الكتب العامة

جاءني ذات يوم شخص مغربي فدعاني بقوله: إن الحاكم الإسباني فلانًا يدعوك للحضور في مكتبه فانطلقت معه حتى وصلت إلى مكتب فخم يجلس فيه شاب إسباني فقام وصافحني، وأشار علي بالجلوس وقال لي: أبشرك بأن المقيم العام قد أسند إليك منصبًا شريفًا وهو إدارة خزانة معهد الباحثين، وهذا المنصب عندنا في إسبانيا لا نولي فيه إلا كبار العلماء الذين يعرفون أصناف العلوم والكتب المؤلفة فيها، ويرشدون الباحثين والمؤلفين إلى الكتب التي تفيدهم في بحوثهم، وجعلنا لك راتبًا قدره ثلاثمائة بسيطة فباشر عملك على بركة الله، فقلت له: كيف تسندون إلي هذا المنصب دون أن تستشيروني وتعرفوا رأيي في قبوله؟ فظهرت على وجهه أمارات الاستغراب وقال لي: لم نستشرك لأنه لم يخطر ببالنا أنك تتردد في قبوله، ولو عينا غيرك فيه من المغاربة لتلقاه بفرح عظيم واستبشر وبشر أصدقاءه وأقام مأدبة كوليمة العرس، وهذه عادتنا في إسناد المناصب، فقلت له: أنا لا أقبل هذا المنصب. فقال لي: كيف لا تقبله وقد عينك فيه المقيم العام؟! فقلت له: إن المقيم العام لا يعرفني ولا بد أن يكون قد استشار ذوي رأيه قبل أن يسنده إلي فأشاروا عليه دون أن يعرفوا رأيي فعليهم يقع اللوم، ثم أعاد الإلحاح فأعدت الرفض وانصرفت من عنده.

وعند نهاية ذلك الشهر كنت في دكان السيد محمد العبودي الذي تقدم ذكره وإذا بموزع الرواتب يقبل علي متقلدًا حقيبته الكبيرة ويفتحها ويخرج دفترًا ويطلب مني التوقيع على قبض الراتب، فقلت له: أنا لا أقبض هذا الراتب لأنني رفضت المنصب، ولم أشتغل فبأي وجه آخذ راتبًا؟ فقال لي: من ذا الذي يأتيه راتب ويرده؟! فقلت له: أنا ذلك الرجل الذي لا يأخذ شيئًا من المال إلا بوجه شرعي لا يخل بالمروءة فانصرف.

وفي اليوم التالي جاءني خادم الموظف الإسباني يدعوني فانطلقت معه حتى وصلت إليه فقال لي: حتى الدراهم لا تقبلها، فقلت له: بأي وجه أقبلها أنا لم أعمل عملًا فكيف آخذ أجرًا؟ فقال لي: نحن لم نطالبك بعمل، فقلت له: إذًا أنا

لا آخذ أجرًا على عمل لم أقم به ولم أقبله، وانصرفت.

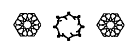
ثم بعد شهرين دعاني ذلك الموظف مرة ثالثة وقال لي: الآن نريد أن نتفق معك على إسناد المنصب المتقدم الذكر، ونرجو أن تقبله وأن تشترط ما تريد فقلت له: إن إسناد هذا المنصب على الوجه المتقدم فيه إهانة عظيمة من وجهين: أحدهما أنكم لم تستشيروني ولم تعرفوا رأيي، والثاني أنكم جعلتم لي راتب بواب فأنتم تعطون فلانًا ألفًا ومائتي بسيطة وهو شخص توجه إلى الأزهر فأقام فيه سنتين ورجع بلا شهادة، وأنا أحصل على شهادة دكتوراه من جامعة برلين تجعلون لي ثلاثمائة بسيطة فقال لي: أنا معترف بالخطأ، وأنا ما كنت أعرف رتبتك العلمية والآن نتفق على ما تحب فقبلت ذلك المنصب براتب مناسب.



خمسمائة بسيطة من وزارة الأوقاف

فإن قلت: إذا كنت عالي الهمة داعيًا إلى الله تريد وجهه فلماذا كنت تأخذ من وزارة الأوقاف خمسمائة بسيطة على الوعظ والإرشاد؟ أقول: إنني - كما قلت من قبل - شرعت في إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في الجامع الكبير بتطوان استجابة لطلب أولئك القوم وقيامًا بالواجب الحتم، ولم أطلب على ذلك أجرًا إلا من الله وبقيت على ذلك سنة كاملة، وذات يوم قال لي الزعيم عبدالخالق الطريس -رحمة الله عليه-: إنني قد سعيت في أمر يخصك دون أن أعرف رأيك فيه اجتهادًا مني وأرجو أن أكون مصيبًا، وذلك أني رأيت أن دراهم الأوقاف تنفق في أمور لا تجدي نفعًا، فعزمت أن ألتمس لك شيئًا منها تستعين به فكلمت أحمد بن البشير الكاتب العام للخليفة أن يكلم الخليفة ليأمر وزير الأوقاف أن يجعل مكافأة شهرية على دروسك في الجامع الكبير، وقلت في نفسي: إن نجحت في هذا السعي أخبرتك، وإن لم أنجح تركت الأمر مكتومًا عنك. وقد نجحت الآن فقد أمر الخليفة وزير الأوقاف محمد بن موسى أن يجعل لك خمسمائة بسيطة مشاهرة.

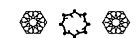
فإن قلت: فهلا ترفعت عنها ولم تقبلها فالجواب أن النبي ﷺ قال: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله أو تصدق به وما لا فلا تتبعه نفسك**».



غضب رئيس الوزراء أحمد الغنيمة

لما نشرت كتاب كشف الشبهات ورسالة زيارة القبور، وقررت - فيما لا يحصى من الدروس - أن شد الرحال إلى قبور الصالحين حرام شرعًا، وأن إقامة المواسم وتقريب القرابين عند قبورهم وسؤالهم قضاء الحاجات كنزول المطر وإعطاء الأولاد للعقيم من الرجال والنساء، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله- شرك يخرج فاعله من الملة خصوصًا إذا دعي إلى التوحيد وتبين له الحق وأصر على ذلك، غضب عباد القبور - كما تقدم - وكان من أشدهم غضبًا رئيس الوزراء في ذلك الوقت أحمد الغنيمة.

وكان متصرف تطوان - والمغاربة يسمونه الباشا - وكان متولي هذا المنصب في ذلك الزمان أحمد عشعاش قد أظهر لي المحبة والتعظيم بعدما عقدت الهدنة مع المستعمرين، وكان يقول لي: لا تسمني باشا حسبك أن تقول لي: أخي أحمد عشعاش، فلما رأى رئيس الوزراء قد غضب وضاق ذرعًا بدعوتي إلى التوحيد قال له: لا يهمنك أمره؛ فإنني سأزوده برغيفين مأدومين بزيت وسكر وأبعثه محروسًا مع شرطيين إلى الحدود يسلمانه للفرنسيين فأرضاه بذلك الكلام، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا أمره سادته الإسبانيون، فلم أحفل بذلك وتوكلت على الله.



معركة مع فقيه مقلد مشرك

كان من جملة من عاداني وحاربني شخص من فقهاء تطوان وكان مستشارًا للمستعمرين في كل أمر يتعلق بالإسلام، وكان مشهورًا بالخيانة عند الناس كلهم يسمونه بياعًا، والبياع هو الذي يبيع قومه إلى المستعمرين، ويتجسس على أبناء وطنه ويبلغ سادته المستعمرين أسرار شعبه تزلفًا لهم، وكل ذنب عند المغاربة يمكن أن يغفر إلا هذا فإن مرتكبه قد أجمع الناس على مقته ولعنه وسقوطه إلى الحضيض الأسفل ولا ينفعه مع ذلك نسب ولا حسب ولا علم.

ولما أنشأت مجلة «لسان الدين» وأعلنت فيها الحرب على المشركين والمبتدعين شرق بها هذا الرجل؛ فذهب إلى الحاكم الإسباني (بليدا) وقال له: إن الهلالي أنشأ مجلة وأخذ ينشر مقالات يفسد بها عقائد المسلمين ويطعن في عقائدنا ومقدساتنا، وأنا أطلب منك - باسم علماء الدين - أن تلزمه بعرض المقالات قبل نشرها على لجنة من العلماء، فما أذنت له في نشرِه نَشَرَه، وما لم تأذن له في نشره يلغى، فدعاني (بليدا) وأخبرني بذلك على سبيل العرض، ولم يأمرني بشيء فذهبت إلى من هو أعلى منه من الإسبانيين، وقلت لهم: إن (بليدا) قال: كيت وكيت ونحن مختلفون في العقيدة اختلافًا شديدًا فلا يمكن أن يتحكم بعضنا في بعض، وضربت له مثلًا فقلت لهم: إن آل النصرانية مختلفون في العقيدة بعضهم كاثوليكيون مثلكم وبعضهم بروتستانتيون فهل يجوز عندكم أن يتدخل أحد الفريقين في عقيدة الآخر؟! فقالوا: لا، اذهب وانشر مجلتك ونحن نتكلم مع (بليدا) أن يترك هذا الأمر فإنه ليس من اختصاصه فحبط عمل هذا المبتدع.

ولما اشتد علي مرض الربو استأذنت الحكام الإسبانيين في السفر إلى قبيلة تغزوت ببلاد الريف، فأذنوا لي وأقمت هناك عند الشيخ محمد بن أحمد وهو من خيرة السلفيين كان يحضر دروسي في الجامع الكبير كلما ورد تطوان، وطلب الشيخ محمد بن أحمد التغزوتي من الحاكم الإسباني أن يأذن لي في إلقاء دروس لتعليم الناس كيف يصومون رمضان لأن شهر رمضان كان قريبًا فأذن لي، وكنت ألقي في كل يوم درسين في بيان توحيد الله واتباع الرسول ﷺ ومحاربة الاستعمار فتاب من

الطرائق والبدع كثير من الناس، وتنورت أفكار أهل ذلك البلد وأفاقوا من سكرتهم إلا القاضي وشرذمة قليلة، فإن القاضي أكرمني إكرامًا عظيمًا وفرح بي أول ما قدمت ولما سمع دروسي انقبض منها وأعرض، أمًّا نائبه فكان على عكس ذلك فإنه لم يسلم علي أول ما قدمت ولم يتصل بي، وكان يقعد وراء سارية من سواري المسجد ويستمع حتى عرف ما أدعو إليه وتبين له الحق، فجاءني ودعاني إلى بيته وأكرمني ولم يزل محافظًا على العهد إلى يومنا هذا.

وأهل تغزوت كسائر أهل الريف يتكلمون بالبربرية وهي أخت قديمة للغة العربية، كما أن البربر إخوان قدماء للعرب لا يشك في ذلك من عنده أدنى علم باللغات السامية. ولذلك لم ينجح الاستعمار في التفرقة بين العرب والبربر وحدث يومًا أني كنت جالسًا في دكان عند أحد إخواننا الذين تابوا من البدع، وأخوه الأكبر كان حافظًا للقرآن وحافظًا لمختصر خليل، وكان تجانيًا فتاب من التجانية وعمره سبعون سنة واغتبط بالعقيدة السلفية، فجاء سائل عربي وقال لصاحب الدكان: أعطني صدقة لوجه غياث البر والبحر سلطان الأولياء مولاي عبدالقادر الجيلاني، فقلت له: أما نحن عبيدالله ولسنا عبيدًا لعبدالقادر الجيلاني، فاذهب إلى عبيده فنحن ليس لنا غياث إلا الله في البر والبحر ولا نتخذ من دون الله أولياء، فقال لي: أنت لا تساوي تراب نعل سيدي عبدالقادر الجيلاني، فقلت له: أنا لا أساويه ولكني لا أعبده، فقال صاحب الدكان للسائل: اذهب من هنا وأرنا قفاك، فإن هذا الرجل عندنا أفضل من عبدالقادر الجيلاني، فقلت: إنك أخطأت، فقال: أمهلني حتى أشرح لك مرادي ثم احكم علي، فقلت: قل! فقال: أنت مقيم بين ظهرانينا تعلمنا مما علمك الله ونسألك فتجيبنا وعبدالقادر ليس كذلك فقلت له أنا: إن كان هذا مرادك فهو حق.

ولما رجعت إلى تطوان علمت أن ذلك الفقيه البياع ذكرني بسوء في درس وعظه فقال لمستمعيه وهو يحثهم على الصلاة بسدل اليدين وترك سنة وضع اليمنى على اليسرى. ماذا تقولون في سيدي محمد السلاوي أكان عالمًا بالحديث والفقه أم جاهلًا بهما؟ فقالوا: كان من كبار العلماء، فقال: وماذا تقولون في سيدي أحمد الرهوني وسيدي فلان وفلان؟ فقالوا: علماء فقهاء. قال: فهل كان أحد منهم يضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة؟ قالوا: لا. قال فكيف تخالفونهم لقول شخص مجهول لا نعرف من أين خرج؟! فأنشأت فيه قصيدة دالية أنقل نخبة منها هنا:

تَجَاهَلْتَ يَابْنَ الْقَيْنِ فَضْلِي وَسُؤْدُدِي   وَمِنْ شِقْوَةٍ أَقْبَلْتَ بِالظُّلْمِ تَبْتَدِي

زَعَمْتَ بِأَنْ لَمْ تَدْرِ أَصْلِي وَمَنْشَئِي   وَلَا عَجَبَ إِذْ أَنْتَ بِالْجَهْلِ مُرْتَدِي

سِجِلْمَاسَةُ الْغَرَّاءُ يَا قَيْنِ مَوْطِنِي   وَجَدِّي هِلَالُ بنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَد

وَجَدِّي هِلَالٌ صَالِحٌ وَابْنُ صَالِحٍ   وَجَدِّي حُسَيْنٌ سَيِّدٌ نَجْلُ سَيِّدِ

وَرَيْحَانَةُ الْمُخْتَارِ جَدِّي يَشُمُّهُ   وَجَدُّكَ حَدَّادٌ بِوَجْهٍ مُسَوَّدِ

ضَرَبْنَا عَلَى الإِسْلَامِ أَسْلَافَكَ الأُلَى   قَرَيْنَاهُمُ بِالْمَشْرِفِيِّ الْمُهَنَّدِ

فَإِمَّا عَقَقْتَ الْيَوْمَ سَادَاتِكَ الأُلَى   حَبَوْكَ بِإِسْلَامٍ وَفَضْلٍ مُمَدَّدِ

فَيَا رُبَّ عَبْدٍ مِثْلُكَ الْيَوْمَ آبِقٌ   وَيَا رُبَّ قَيْنٍ مُمْعِنٌ فِي التَّمَرُّدِ

غَدَا بَعْدَ سِنْدَانٍ وَكِيرٍ وَحُفْرَةٍ   وَفَحْمٍ وَمِطْرَاقٍ عَلَى الْفِقْهِ يَعْتَدِي

دَعِ الْعِلْمَ إِنَّ الْعِلْمَ لَسْتَ بِأَهْلِهِ   وَخُذْ مِنْ جَدِيدٍ فِي الْحَدِيدِ لِتَهْتَدِي

فَفِي الْحِرْفَةِ الأُولَى لَقَدْ كُنْتَ كَاذِبًا   لَدَى بَيْعِ مِفْتَاحٍ وَقُفْلٍ وَمُحْصَدِ

وَفِي الْحِرْفَةِ الأُخْرَىٰ عَلَى اللهِ تَفْتَرِي   وَتَلْحَدُ فِي دِينِ النَّبِيِّ الْمُمَجَّدِ

وَمَيْنُكَ فِي دُنْيَاكَ أَهْوَنُ مَأْثَمًا   مِنَ الْمَيْنِ فِي أَمْرٍ بِهِ النَّاسُ تَقْتَدِي

وَعَيْشُكَ مِنْ صُنْعِ الْحَدَائِدِ طَيِّبٌ   وَأَنْ تَأْكُلَنْ بِالدِّينِ تَأْكُلْ مِنَ الرَّدِي

فَدُونَكَ يَابْنَ الْقَيْنِ نُصْحًا مُسَدَّدًا   وَمِثْلُكَ لَا يَرْضَى بِنُصْحٍ مُسَدَّدِ

كَذَبْتَ عَلَى شَيْخٍ كَرِيمٍ تَحَلُّمًا   بِرُؤْيَا مَنَامٍ فِي حَدِيثٍ مُنَضَّدِ

عَلَى ابن مَشِيشٍ قَدْ كَذَبْتَ بِلا حَيَا   فَأَخْزَاكَ رَبُّ النَّاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

وَتَزْعُمُ أَنَّ الشَّيْخَ جَاءَكَ قَائِلًا   إِلَى الْقَصْرِ فَاذْهَبْ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدِ

وَقُلْ لِفُلَانٍ يَشْتَرِي بَيْتَكَ الَّذِي   بِمَرْتِيل إِنْ رُمْتَ النَّجَاحَ بِمَقْصِدِ

فَكَذَّبَكَ الشَّخْصُ الَّذِي قَدْ قَصَدْتَهُ   وَبُؤْتَ بِخِزْيِ اللهِ شَرَّ مُفَنَّدِ

تَرُومُ بِرَغْمٍ نَصْرَ مَذْهَبِ مَالِكٍ   وَمَذْهَبُهُ قَفْوُ النَّبِيِّ الْمُؤَيَّدِ

وَمَعْصِيَةُ الْمُخْتَارِ لَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ   لَهُ أَبَدًا فَاقْصُرْ عَنِ اللَّغْوِ والدَّدِ

وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْبَعْلِ وَالزَّوْجِ ظَالِمًا ... بِعُنْفٍ وَإِكْرَاهٍ فَهَلْ أَنْتَ مُهْتَدِ

وَأَنْكَحْتَهَا فِي عِصْمَةِ الْبَعْلِ دُونَ أَنْ ... يَصِحَّ طَلَاقٌ فِعْلُ أَرْعَنَ مُفْسِدِ

أَهَذَا الَّذِي تَدْعُو بِمَذْهَبِ مَالِكٍ ... كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ يَا قَيْن فَاقْصُدِ

فَهَذَا الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَالَ مَالِكًا ... نَكَالٌ وَلَمْ يُذْعِنْ لأَمْرِ الْمُهَدِّدِ

فَفِعْلُكَ ذَا نَقْضٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ ... وَفِسْقٌ بِدِينِ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدِ

تَكَلَّمْتَ فِي قَبْضٍ وَسَدْلٍ مُضَلِّلًا ... وَأَهْمَلْتَ أَصْلَ الدِّينِ إِهْمَالَ مُلْحِدِ

حُرِمْتَ وُصُولًا لِلْحَقِيقَةِ عِنْدَمَا ... أَضَعْتَ أُصُولًا مَنْ يُضِعْهَا يُلَدَّدِ

فَكِلْمَةُ تَوْحِيدٍ بِهَا ابْدَأْ مُحَقِّقًا ... فَإِنْ تَدْرِ مَعْنَاهَا إِلَى الْحَقِّ تَهْتَدِ

فَوَحِّدْ إِلَهَ الْحَقِّ لَا تَدْعُ غَيْرَهُ ... لِنَفْعِكَ أَوْ دَفْعِ الْمَصَائِبِ تَرْشُدِ

فَمَنْ يَدْعُ غَيْرَ اللهِ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... يُدَنَّسْ بِإِشْرَاكٍ وَيُرْدَى مَعَ الرَّدِي

وَذَلِكَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ فَادْرِهِ ... فَمَنْ يَجْهَلْنَهُ فِي الْجَحِيمِ يُخَلَّدِ

سَوَاءٌ أَصَلَّى قَابِضًا فِي صَلَاتِهِ ... أَمِ اخْتَارَ سَدْلًا نَقْلُهُ لَمْ يُؤَيَّدِ

وَمَنْ رَدَّ قَوْلَ الْمُصْطَفَى بَعْدَ صِحَّةٍ ... فَذَلِكَ كَفَّارٌ أَثِيمٌ وَمُعْتَدِ

سَيُحْرَمُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً ... وَإِنْ يَأْتِ لِلْحَوْضِ الْمُبَارَكِ يُطْرَدِ

وَيَسْوَدُّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجْهُهُ ... وَيَثْوَى ثُوَاءً فِي الْجَحِيمِ وَيُخْلَدِ

وَيَبْرَأُ مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَالِكٌ ... وَكُلُّ تَقِيٍّ لِلْإِلَهِ مُوَحِّدِ

وَذَلِكَ فِي أَصْلِ الشَّهَادَةِ وَاضِحٌ ... لِكُلِّ صَحِيحِ الْفَهْمِ لَمْ يَتَبَلَّدِ

فَدُونَكَ يَا شَيْخَ الْقُيونِ فَوَائِدَ ... مِنَ الْعِلْمِ إِنْ تَرْجِعْ لَهَا الْيَوْمَ تَسْعَدِ

فَدَعْ عَنْكَ تَقْلِيدًا وَشِرْكًا وَبِدْعَةً ... فَذَلِكَ مَا يُرْدِيكَ فِي الْيَوْمِ وَالْغَدِ

صَدَدْتَ الْوَرَى عَنْ قَفْوِ سُنَّةِ أَحْمَدَ ... وَلَنْ يُفْلِحُوا إِلَّا بِسُنَّةِ أَحْمَدِ

فَبُؤْتَ بِسُخْطِ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... وَسُخْطِ شُيوخٍ كَابْنِ جَعْفَر زُهَّدِ

وَكَانَ الَّلوَاجرِيُّ يُقْلِيكَ كَالْعَمَى ... مَتَى جِئْتَهُ يَاقَيْنُ تُصْفَعْ وَتُطْرَدِ

وَأَسَخَطْتَ كُلَّ الصَّالِحين مِنَ الوَرَى ... مِنَ الجُرْمِ وَالبَغْيِ الَّذي لَمْ يُحَدَّدِ
وَإِنَّكَ وَايمُ اللهِ أَحْمَقُ مَنْ مَشَى ... عَلَى الأرْضِ طُرًّا في تُهُومٍ وَأَنْجَدِ
فَخُذْهَا غُذِيتَ التِّبْنَ مِنِّي قَصِيدَةً ... تَزِدْكَ جُنونًا مِثْلَهَا لَمْ يُقَصَّدِ
فَتَخْرُجُ فِي الأَسْواقِ نَاتِفَ لِحْيَةٍ ... وَلاطِمَ خَدٍّ عَارِيًا غَيْرَ مُرْتَدِ
وَلَمْ يَكُ قَصْدِي ذِكْرَ عَيْبِكَ كُلِّهُ ... فَذَلِكَ لا يُحْصِيهِ أَلْفُ مُجَلَّدِ

وانتشرت هذه القصيدة عند أهل تطوان وأعجبوا بها أيما إعجاب لأنهم كانوا حاقدين على ذلك الرجل، وكانت هذه القصيدة مقرونة بسوط عذاب من الله تعالى صب على ذلك المشرك فحدثت له حوادث من الخزي أذكر هنا بعضها:

الأولى: أن شخصًا من شيوخ الصوفية كان محترمًا عند أتباعه من أهل تطوان وهو الشيخ الفاسي جاءه ذلك البياع ومد يده لمصافحته فقبض الشيخ يده أمام جماعة من الناس وقال له: أنا لا أنجس يدي بمصافحتك، فكانت ضربة قاتلة له.

الثانية: ماتت امرأة فخرج الناس بجنازتها إلى باب المقابر حيث يصلى على الجنائز لأن المغاربة لا يصلون على الجنازة في المسجد، ويزعمون أن ذلك مكروه ويعللونه بنجاسة الميت، وذلك جهل ومخالفة للسنة الصحيحة، فإن النبي ﷺ صلى على ابن بيضاء في المسجد.

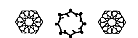
ولما وضعت الجنازة نظر الحاضرون فرأوا هذا الفقيه بزعمه هو أولى أن يؤم الناس في الصلاة على الجنازة لسنه وما اشتهر به من الفقه عند العامة، فقال له بعضهم: تقدم يا فقيه صل بنا، وكانت فيه حماقة فقال رافعًا صوته: أنا لا أصلي بكم وأنتم تقولون أنا بياع وخائن فقدموا غيري، وكان يؤمل أنهم يتملقون له ويمدحونه ويقولون: حاشا لله أن نظن بك هذا، ولكن خاب أمله؛ فإن الناس اختلفوا وكثر القيل والقال حتى بلغ النزاع إلى أولياء المرأة فقائل يقول: هو أولى بالصلاة، وقائل يقول: ليس الأمر كذلك لأنه بياع، فاتفق المتنازعون على أن يردوا نزاعهم إلى أولياء المرأة ففعلوا فقال أولياء المرأة: لا نرضاه إمامًا للصلاة على الجنازة فقدموا غيره. ولو أنه حين دعي للصلاة تقدم وصلى لم يقع شيء من ذلك ولكن الأمر كما قال الشاعر:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ... إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

فهذه المخزية الثانية.

الثالثة: اتفق أن هذا الفقيه كان في مسجد صغير فحانت صلاة العصر وكان إمام المسجد قد قرأ عليه شيئًا من الفقه فاستحى أن يتقدم أمامه فقال له تقدم يا أستاذ صل بنا، فقال الحاضرون كلهم: لا نقبله لأنه بياع والصلاة خلفه باطلة.

الرابعة: أنه دعا رئيس البلدية الإسباني (بليدا) إلى مأدبة أقامها في مارتيل، وهي قرية معدة للاصطياف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بينها وبين تطوان ستة أميال، أكثر أهل تطوان يملكون بيوتًا فيها يهبطون إليها في وقت الصيف فقط فتكون عامرة وفي شواطئها مسابح للرجال والنساء وفي سائر الفصول تكون فارغة تقريبًا.



ترف أهل تطوان

كلمة تطوان محرفة عن (تطاون) -بكسر التاء وتشديد الطاء وكسر الواو- وهي كلمة بربرية معناها العيون، ولا يزال جزء من تطوان إلى الآن يسمى بالعيون. ولم يكن لها شأن يذكر قبل هجرة أهل الأندلس إليها في أواخر القرن التاسع الهجري حين استولى النصارى على ما بقي من الأندلس وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة. ولما جاء الأندلسيون إلى تطوان - وكان عندهم من الحضارة والمدنية ما لم يكن عند المغاربة - أسسوا مدينة تطوان على النحو الأندلسي واستنبطوا المياه وجلبوها من الجبال المجاورة إلى المدينة وغرسوا فيها الجنات الجميلة وأسسوا مدينة مارتيل للاصطياف، وكان لكل أهل بيت أربعة مساكن، كما أخبرني بذلك السيد محمد المؤذن الإدريسي -رحمة الله عليه- وهو من أعيان تطوان، فكان لكل أهل بيتٍ بيتٌ في تطوان وبيت في البستان وبيت في مارتيل وبيت في ناحية أخرى قد تركت، فكانوا يقضون فصل الشتاء في تطوان وفصل الربيع في البستان وفصل الصيف في مارتيل على شاطئ البحر وفصل الخريف في الناحية الأخرى التي تركت، ولا يزالون مستمرين على هذه العادة حتى الآن، إلا أنهم لا يقضون شهر رمضان والعيدين إلا في تطوان، ولو كانوا ساكنين قبل ذلك في إحدى النواحي المذكورة ينتقلون إلى تطوان فيمضون فيها تلك الأيام ثم يعودون إلى مساكنهم خارج تطوان.

قلنا: إن ذلك الفقيه أقام مأدبة في وضح النهار في بيته في مارتيل على أعين الناس، ولما جاء الضيف الإسباني تلقاه أمام بيته ولم يكتف بمصافحته بل عانقه، فما رأى ذلك أهل تطوان وهم أهل غيرة وشجاعة حتى اشتد غمهم وحنقهم على الفقيه البياع ففكروا في عقاب ينزلونه به دون أن يتعرضوا لانتقام (بليدا)، فاتفق رأيهم على أن يجمعوا مقدارًا كبيرًا من العذرة الطرية، ويلصقوه على باب بيته في جنح الليل ففعلوا ذلك، فلما أصبح الناس اجتمع الذباب على باب بيته وجاء الناس

يتفرجون، وقد كثر عددهم، وعادة أهل تطوان أنهم لا يقومون من النوم إلا في الضحى، فأخبر بعض الجيران الفقيه وأهله بما جرى فقاموا فزعين وأخذوا ينظفون بابهم والناس تنظر إليهم وبعضهم يضحك وبعضهم يتشفى ويقول: هذا جزاء البياع الذي يوالي أعداء وطنه وينصرهم على قومه.

الخامسة: (وحقها أن تكون الأولى): أن هذا الفقيه كان تلميذًا للشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي المغربي الذي قضى شطرًا كبيرًا من عمره في دمشق، وكان محترمًا عند المغاربة وأهل الشام، ولما استولى الإسبانيون على تطوان وقسم من شمال المغرب استشار الفقيه التلميذ أستاذه الكتاني في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فاستحسن الشيخ ذلك وحثه عليه، فهاجر الفقيه إلى المدينة النبوية وأقام بها مدة، فلما خلع الفرنسيون السلطان عبدالحفيظ بن الحسن الأول سافر هذا السلطان إلى مصر ثم إلى الحجاز، فذهب إليه الفقيه المبتدع وشكا له حاله وأنه يريد أن يرجع إلى المغرب ويعود في هجرته، فأعانه على ذلك ورجع إلى تطوان، ولم يقتصر على هذا الذنب حتى صار بياعًا فسخط عليه الشيخ الكتاني وهجره واستمر على ذلك حتى مات، وقد أشرت إلى ذلك في القصيدة حين قلت:

فبؤتَ بسخطِ اللَّهِ ثُمَّ رسولِهِ وسُخطِ شيوخٍ كابنِ جعفرِ زهَّدِ

السادسة: كان في تطوان فقيه مشهور بالصلاح والعفة والزهد والاستقامة يقدسه أهل تطوان وهو الشيخ محمد اللواجري، وكان معتكفًا في بيته لا يشهد جماعة ولا جمعة، وعلل ذلك بأنه يرى المنكرات ولا يستطيع أن يغيرها، وكنت أزوره الفينة فكان يفرح بزيارتي ويأنس لها ولم أر منه معارضة في التوحيد، والذي يظهر لي أنه كان بريئًا من الشرك، وكان هذا الفقيه من تلامذته، ولما أراد الهجرة من تطوان استشاره فاستحسن ذلك فلما رجع من هجرته غضب عليه اللواجري غضبًا شديدًا وحذر الناس منه ولاسيما حين صار بياعًا، وكان هذا الفقيه يجتهد بكل وسيلة أن يجد سبيلًا لإرضاء الشيخ اللواجري، فكان يضرب في حديد بارد؛ لأن اللواجري أصر على السخط عليه وبغضه لله، فلما حضرت الوفاة الشيخ اللواجري اغتنم هذا الفقيه الفرصة وظن أن شيخه وهو في غمرات الموت لا يعرفه إذا سلم عليه وودعه وبذلك يخرج من سخطه ولو فيما يظهر للناس، فقصده، وحدثني أحد أعيان تطوان وأشرافها - وهو الحاج محمد الشرتي - أنه كان جالسًا عند الشيخ اللواجري - رحمه الله- وقد حضرته الوفاة، فجاء هذا الفقيه وقبَّل رأسه وقال: سامحني أيها

الشيخ الصالح. فما كان من الشيخ المحتضر إلا أن استوى جالسًا كأن لم يكن به مرض ورفع يديه ولطم الفقيه لطمة شديدة ثم اضطجع فمات في الحال وإلى ذلك أشرت في القصيدة بقولي:

وكانَ اللَّواجري يَقْليك كالعمَىٰ   متَى جئته يا قينُ تُصْفَعْ وتُطْرَدِ

فإن قيل: لماذا سميته قينًا وهو فقيه؟ فالجواب أن القين في اللغة العربية هو الحداد وكان أبوه حدادًا وكان هو يشتغل معه في صباه، ولما تعلم الفقه أعني فروع المذهب المالكي - وليس ذلك بفقه ولكنه اصطلاح وعرف، كتسمية اللديغ بالسليم - ترك تلك الحرفة، وكان دكان أبيه الذي كان يشتغل معه فيه بهذه الصنعة لا يزال تحت تصرفه يكريه. فإن قيل: وهب أنه كان حدادًا فأي نقص في ذلك وقد كان نبي الله داود يصنع الدروع من الحديد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠] فمعرفة هذه الصنعة نعمة فكيف يعيَّر بها؟

فالجواب: أنها في حق داود -عليه السلام- نعمة وفضيلة وفي حق غيره أمر مباح لا يحمد فاعله ولا يذم، فلو كان هذا الفقيه مستقيمًا في دينه ولم يبدأني بالظلم ما عيرته بذلك لأن هذه الصنعة لا يضيره التعيير بها لو لم يكن موصوفًا بتلك الطوام، وإذ كان مشركًا مبتدعًا بياعًا فإني لم أر حرجًا في تذكرته بحرفته السابقة وحرفته اللاحقة، قال الشاعر:

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلَى ذِمَّةِ   ذَمُّوهُ بِالْحَقِّ والْبَاطِلِ

ولما انتشرت القصيدة وصارت حديث الناس، نظم نظمًا ركيكًا هجاني به، ولم يجد ما يعيبني به إلا زعمه أن أبي كان حقيرًا يكنس الشوارع، وأن أمي كانت خادمة في البيوت، وأني مصاب بداء السل لا أزال أبصق وأسعل والمخاط يسيل من أنفي وأن الشباب الذين صحبوني أصفرت وجوههم، فلم يعبأ أحد بقصيدته لركاكتها ولأنها شتم وكذب وتناقض، فإنه قال في الجامع الكبير على رءوس الأشهاد في حقي إنني شخص مجهول لا يعرف من أين خرجت، وهذا كذب مفهوم، فإن كان يجهلني ففي تطوان من يعرفني ويعرف أبي وأمي وأن أبي كان عالمًا وجيهًا وأمي كانت شريفة عزيزة، وقد تقدم أن الهجو بالكذب لا يضر، فلما رأيت قصيدته وهي في مائة وخمسين بيتًا وكلها هذيان وشتم كما تقدم هجوته بقصيدة أخرى نظمت

أربعة أبيات منها في تطوان وسائرها بالأندلس، وينبغي أن أثبتها هنا كلها أو بعضها:

يَا أَهْلَ تَطْوَانَ إِنَّ السَّاعَةَ اقْتَرَبَتْ ... شُدُّوا حَيَازِيمَكُم يا أَهْلَ تَطْوانِ
شَيْخُ الْحَدِيدِ غَدَا شَيْخَ الْحَدِيثِ لَدى ... دَارٍ يُرَادُ بِهَا تَثْقِيفُ فِتْيَانِ
وَهَلْ سَمِعْتُمْ بِقَيْنٍ صارَ ذَا أَثَرٍ ... يَرْوِي الْحَدِيثَ بِإِحْكَامٍ وَإِتْقَانِ
عَنْ فَحْمَةِ بْنِ دُخَانٍ عَنْ أَبِي شَرَرٍ ... كِير عَنِ الشَّيْخِ مِطْرَاقِ بْنِ سِنْدَانِ
يَقُولُ: لَا تَثِقُوا فَإِنَّ صَاحِبَنَا ... حَدِيثُهُ مَحْضُ تَدْلِيسٍ وَبُهْتَانِ
وَقِيلَ: لَا صَانِعًا إِلَّا وَيَكْذِبُ فِي ... قَوْلٍ وَأَكْذَبُهُ حَدِيثُ أَقْيَانِ
وَمَنْ عَلَى ابْنِ مَشِيشٍ افْتَرَى كَذِبًا ... لَمْ يَحْتَرِمْ جَدَّهُ سَلِيلَ عَدْنَانِ
وَصَحَّ مَنْ جَالَسَ الْحَدَّادَ سَوَّدَهُ ... أَوْ أَحْرَقَ الثَّوْبَ مِنْهُ لَفْحُ نِيرَانِ
فَيَا تَلَامِيذَهُ أَنَا النَّصِيحُ لَكُمْ ... فَإِنَّهُ فَاجِرٌ عَدِيمُ إِيمَانِ
وَيَا تَلَامَيذَهُ كُونُوا عَلَى حَذَرٍ ... مَنْ خُبْثِهِ فَهْوَ شَرُّ الإِنْسِ والْجَانِ
فَقَبِّلُوا يَدَهُ وَاحْنُوا رُءوسَكُمُ ... كَيْ لَا يُصِيبَكُمْ يَوْمًا بِعُدْوَانِ
فَإِنَّ تَقْبِيلَ كَفِّ الْقَيْنِ صَارَ لَهُ ... كَالْقُوتِ لَلْطَاوِ أَوْ كَالْمَا لِظَمْآنِ
لَا تَعْجَبُوا مِنْ يَدٍ مِنْ كِيرِهَا انْتَقَلَتْ ... لِلْكُتْبِ يُعْجِبُهَا تَقْبِيلُ فِتْيَانِ
فَالْكُتْبُ شَاكِيَةٌ بِالدَّمْعِ بَاكِيَةٌ ... تَقُولُ يَاذِلَّتِي فِي شَرِّ أَزْمَانِ
مَازِلْتُ فِي ضَعَةٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى ... قَيْنٍ يُبَهْدِلُنِي مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِي
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَبْقَى إِلَى زَمَنٍ ... فِيهِ يُدَنِّسُنِي قَيْنٌ بِأَدْرَانِ
تَاللهِ لَوْ كَانَ لِلتَّدْرِيسِ مُحْتَسِبًا ... لَظَلَّ مُنْكَمِشًا فِي قَعْرِ دُكَّانِ
يَرْوِي الْحَدِيدَ وَيَطْوِيهِ وَيَنْشُرُهُ ... أَوْلَى بِه ذَاكَ مِنْ عِلْمٍ وَعِرْفَانِ
دَقْ دَقْ دَقْ دَقْ دَقْ دَقْ ... دَقْ دَقْ فَانْفُخُوا بِالْكِيرِ صِبْيَانِ
لَكِنَّ ذَا زَمَنٌ بِهِ الْبُغَاثُ غَدَا ... مُسْتَنْسِرًا صَائِلًا فِي زِيِّ عُقْبَانِ

وَالذِّئْبُ أَصْبَحَ مِسْكَ الضَّأْنِ مُرْتَدِيًا ... لِيَبْتَغِي الصَّيْدَ مِنْ أَغْرَارِ خِرْفَانِ
وَأَصْبَحَ الدِّينُ لِلدُّنْيَا تَعَلُّمُهُ ... وَقَدْ تَمَوَّلَ مِنْهُ كُلُّ خَوَّانِ
لَوْ كَانَ يُجْدِي الْبُكَا يَوْمًا بَكَيْتُ عَلَى ... عِلْم الْحَدِيْثِ وَتَفْسِيرِ وَقُرآنِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الأَسْمَاءِ خَالِيَةً ... مِنْ كُلِّ مَعْنَى سِوَى تَحْرِيْفِ كُهَّانِ
وَكَمْ أَهَبْتُ بِقَوْمِي صَارِخًا أَبَدًا ... أُوبُوا لِهَدْي نَبِيِّ اللهِ إِخْوَانِي
دَعُوا دَجَاجِلَةً يَبْغُونَهَا عِوَجًا ... فَلَنْ يَقُودكُمُ إِلَّا لِخُسْرَانِ
أَسْلَافُنَا ارْتَفَعُوا، أَسْلَافُنَا سَعِدُوا ... لِقَفْوِهِمْ أَحْمَدَ الْهَادِي بِإِحْسَانِ
قَدِ اقْتَفُوا سُنَّةَ الْمُخْتَارِ خَالِصَةً ... مِنْ غَيْرِ شَوْبٍ بِزَيْدٍ أَوْ بِنُقْصَانِ
وَمُنْذُ بَدَّلَ قَوْمٌ هَدْيَهُ سَقَطُوا ... إِلَى الْحَضِيْضِ وَنَالُوا كُلَّ حِرْمَانِ
أَوْطَانُهُم بِهِمُ وَاللهِ قَدْ شَقِيَت ... وَالأَرْضُ تَسْعَدُ أَوْ تَشْقَى بِسُكَّانِ
وَاللهِ لَنْ تَسْعَدُوا إِلَّا بِما سَعِدُوا ... فَلَا يَغُرنَّكُمْ وَسْوَاسُ شَيْطَانِ
وَمَنْ يَرُدُّ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى سَفَهًا ... يَارَبِّ فَالْعَنْهُ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسَانِ
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا ... مَا غَنَّتِ الْوُرْقُ فِي دَوْحٍ بِأَلْحَانِ
وَالآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِيْنَ لَهُ ... وَاجْعَلْ مَحَبَّتَهُ رُوحِي وَرَيْحَانِي
فَرِّجْ بِهَا كُرَبِي وَاجْمَعْ بِهَا شَعْثِي ... وَأَصْلِحِ الْحَالَ فِي سِرِّي وَإِعْلَانِي
وَانْصُرْ بِهَا حِزْبَنَا طُولَ الْحَيَاةِ وَفِي ... يَوْمِ الْجَزَا جُدْ لَنَا طُرًّا بِغُفْرَانِ

السابعة: أن هذا الفقيه - المتحمس للمذهب المالكي بزعمه - كانت له ابنة زوجها بشاب كاتب في وزارة العدل التي كان يتولاها أفيلال، وكانت بينه وبين الفقيه عداوة لأن كليهما فقيه أحدهما محظوظ والآخر محروم، فكان الفقيه يسأل صهره عما يجري في الوزارة ليتوسل به إلى الطعن في الوزير، فلا يكاد يسعفه بشيء مما يريد، ولما ألح عليه قال له: أيها الفقيه لا تسألني عن شيء من أسرار الوزارة فإني أقسمت يمينًا على الإخلاص في عملي، وإفشاء الأسرار يعد خيانة وعواقبه وخيمة، فغضب عليه وقال له: هذا قدري عندك يا ناكر الإحسان، زوجتك

ابنتي، وفضلتك على غيرك، ثم أنت تتألب علي مع عدوي؛ فسترى كيف يكون عقابي لك، فأمر ابنته أن تنشز فنشزت، ثم أجبره على تطليقها فطلقها كارهًا، وهو يستغيث بالناس فلم يغثه أحد، ولما تزوج شرط على أولياء الزوجة الجديدة أنه متى يسر الله له أن يرجع زوجته ابنة الفقيه فإنه سيطلق ابنتهم!! وإلى ذلك أشرت بقولي في القصيدة الدالية:

وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْبَعْلِ وَالزَّوْجِ ظَالِمًا بِعُنْفٍ وَإِكْرَاهٍ فَهَلْ أَنْتَ مُهْتَدِ

الأبيات.. إلى أن قلت:

أَهَذَا الَّذِي تَدْعُو بِمَذْهَبِ مَالِكٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ يَا قَيْنِ فَاقْصُدِ

ومن أشهر ما وقع لمالك -رحمه الله- في حياته أنه كان يفتي بأن طلاق المكره غير لازم وعلى ذلك ضرب بالسياط، فالعجب ممن يريد أن ينصر المذهب المكذوب على مالك ثم يخالف مذهبه الصحيح المتواتر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

الثامنة: أنه كان يريد - ولو بجدع الأنف - أن يكون مدرسًا في المعهد الديني الأعلى، وسعى للوصول إلى ذلك سعيًا حثيثًا، واستعان بسادته المستعمرين فلم يصل إلى مرامه إلا بعد اللتيا والتي، ولما صار مدرسًا في المعهد صار يفرض على الطلبة كلما رأوه من بعيد أن يُهرعوا إليه ويقبّلوا يده، ويهددهم بأن من لم يفعل ذلك يسقطه في الامتحان وإلى ذلك أشرت بقولي في النونية:

فَيَا تَلَامِيذَهُ أَنَا النَّصِيحُ لَكُمْ فَإِنَّهُ فَاجِرٌ عَدِيمُ إِيمَانِ

فَقَبِّلُوا يَدَهُ وَاحْنُوا رُءُوسَكُمُ كَيْ لَا يُصِيبَكُمُ يَوْمًا بِعُدْوَانِ

راجع هذه الأبيات في النونية.

التاسعة: أنه كان له بيت في مارتيل وكان يريد بيعه فلم يجد من يشتريه منه، فسافر من تطوان إلى القصر الكبير وقصد الثري المشهور الحاج عبدالسلام حسيسن، وقال له: إن سيدي عبدالسلام بن مشيش - رضي الله عنه - جاءني في المنام فشكوت له تعسر بيع داري التي في مارتيل، فقال لي: اذهب إلى خادمنا الحاج عبدالسلام حسيسن وبلغه سلامي، وأخبره أني آمره أن يشتري منك تلك الدار وسيشتريها منك. قال الحاج عبدالسلام: فلما جاءني وقصّ علي الرؤيا، قلت له: إن أمر سيدي عبدالسلام على رأسي وعيني، ولكني أنا بنفسي عندي بيت في

مارتيل لا أحتاج إليه لأني أسكن في طنجة وفي القصر الكبير وأنا محتاج إلى بيعه فكيف أزيد عليه بيتًا آخر؟! فرجع خائبًا وإلى ذلك أشرت بقولي في الدالية:

عَلَى ابْنِ مَشِيشٍ قَدْ كَذَبْتَ بِلَا حَيَا   فَأَخزَاكَ رَبُّ النَّاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

العاشرة: زيارة الفقيه البياع لأستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، سافر هذا الفقيه من تطوان إلى الرباط وزار شيخ الإسلام محمد بن العربي -رحمه الله- فلما أخبره أنه من تطوان سأله عني فقال له: تعرف الدكتور محمد تقي الدين الهلالي؟ فقال له: نعم أعرفه وقد هجاني بقصيدتين، ولما تقلص ظل الاستعمار الذي كان حائلًا بيني وبين رؤية أستاذي المذكور واجتمعت به أخبرني بذلك وقال لي: لما أخبرني أنك هجوته علمت أنه خبيث.



الأمير الملالي والاستسقاء

يسمي المغاربة أمير كل بلد قائدًا. والقائد (الملالي) حاكم القصر الكبير كان من أقوى الأمراء الذين لهم وزن ثقيل عند المستعمرين الإسبانيين وعند رعيته، ولكنه لم يكن يقارب منزلة أمير العرائش السيد خالد الريسوني -رحمه الله- كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، لما سمع الأمير الملالي بقدومي تطوان ودروسي فيها أراد أن يدعوني إلى إمارته ليكرمني، وتكلّم مع الزعيم عبدالخالق الطريس في ذلك، وسألت عنه فعلمت أنه تجاني متعصب فنشرت في صحيفة الحرية ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجت من الطريقة التجانية) وذكرت فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة، وأقمت البراهين على بطلانها فغضب غضبًا شديدًا ورجع عما كان عازمًا عليه، ولما أصبت بداء الربو وقد تقدم أن المشركين في تطوان زعموا أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة.

فقلت على كرسي الوعظ في الجامع الكبير: إن هؤلاء الذين يزعمون أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بمرض الربو ليس لهم عقل ولا دين، أما العقل فدليل نفيه أن خلقًا كثيرًا من سكان تطوان رجالًا ونساءً مصابون بهذا الداء، وهم يعبدون الشيخ السعدي فمن ذا الذي أصابهم بهذا المرض؟! وأما دليل نفي الدين فإن الشيخ السعيدي إما أن يكون مؤمنًا بكتاب الله وبرسول الله ﷺ، وحينئذ لا بد أن يكون مغتبطًا ومسرورًا بدعوتي إلى توحيد الله واتباع رسوله ﷺ وساخطًا على كل من يعبده بالذبح والنذر والاستغاثة متبرئًا إلى الله من عملهم، وإما أن يكون مشركًا يرضى بعبادتهم له، إذًا فأبعده الله إن كان ذلك، والذي نظنه به هو الخير ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

ولما اشتد عليَّ مرض الربو قيل لي: لو توجهت إلى القصر الكبير فإن بينه وبين البحر عشرين ميلًا، وهواؤه ناشف بعض الشيء يمكن أن يخفف عنك بعض ما تعانيه، فذهبت إلى القصر ونزلت في فندق وأنا في حالة يرثى لها فجاءني رجل يظهر عليه أثر النعمة والغنى ومعه شاب فسلم علي ببشاشة فرحبت بزيارته فقال لي:

أما تعرفني؟ قلت: لا. فقال لي: إنني حضرت مجالسك في طنجة وكنت عازمًا في ذلك اليوم أن أدخل في الطريقة التجانية فسمعتك تشرح ما فيها من الضلالات، فعدلت عن الدخول فيها وحمدت الله الذي أنقذني من الوقوع في حبائلها فلك علي فضل لا ينسى، وأنا أدعوك أن تنزل في بيتي. فقلت له: إني اخترت هذه المقصورة لأنها محكمة النوافذ لا يهب علي فيها الهواء البارد، فقال لي: عندي غرفة أحسن منها، ومعها حمامها وبيت الخلاء، وأنا أقوم بخدمتك على أحسن وجه. فأقمت عنده خمسة عشر يومًا، ثم سافرت إلى طنجة وجئت بأهلي وأقمنا في ضيافته خمسة عشر يومًا، فأردنا أن نسكن في بيت وحدنا، فأسكننا في بيت له خارج المدينة، وبقيت هناك أربعة أشهر.



صلاة الاستسقاء

وفي تلك السنة قل المطر وعم الجدب. وعادة المغاربة في مثل هذه الحال أن يفزعوا إلى أضرحة الأولياء ويذبحوا لهم الذبائح ويستغيثوا بهم ليأتيهم المطر ويزول عنهم الجدب، فأمر القائد الملالي مناديًا ينادي قائلًا بأعلى صوته: لا إله إلا الله محمد رسول الله لا تسمعون إلا خيرًا إن شاء الله إن الأمير يأمركم أن تتبرعوا بالدراهم لشراء الثيران والكباش، وتتهيئوا في اليوم الفلاني للاستسقاء عند أضرحة الأولياء؛ فلما جاء اليوم المعين خرج الأمير والقاضي وجميع أهل البلد حفاة حاسري الرءوس وطافوا على أضرحة الأولياء قائلين بصوت واحد: (جئناكم قاصدين، لا تردونا خائبين، يا أولياء الله الصالحين) وتوجهوا أولًا إلى قطب البلد علي بن أبي غالب، والثورُ الأسود أمامهم، وهو أكبر الثيران وأسمنها، فوصلوا إلى ضريحه خاشعين وذبحوا ذلك الثور وذابحه يقول: الذبيحة على الله وعليك يا سيدي يا أبا غالب، ثم طافوا على أضرحة الأولياء الكبار، فذبحوا على ضريح كل واحد منهم ثورًا. فأما الأولياء الصغار، فذبحوا على ضريح كل واحد منهم كبشًا ورجعوا، فنشأ غمام في السماء فسألت الله تعالى أن لا يسقيهم ولا قطرة واحدة فاستجاب الله دعائي، وانقشع ذلك الغمام وجاء بعده غمام مرارًا ثم انقشع ولم يسقوا قطرة واحدة.

وعدد جماعتنا الموحدين، ومنهم السيد أحمد الجباري -رحمة الله عليه- والحاج عبدالسلام حسيسن فبعضهم اختفى في يوم الاستسقاء خوفًا من الأمير وبعضهم أعلن معارضته كالحاج عبدالسلام حسيسن، وعددهم لا يزيد على أربعين إلا أن أحدهم معلم صبيان وعنده خمسون صبيًا يعلمهم القرآن. جاء بعض أصحابنا إلي وقالوا لي: إن الأمير والقاضي ومن تبعهما ارتكبوا أمرًا شنيعًا مخزيًا فنريد أن نغسل هذا العار بصلاة الاستسقاء في مصلى العيد خارج المدينة، ونريد أن تكون إمامنا في صلاة الاستسقاء، فإن المغاربة يعتقدون أنه متى صليت صلاة الاستسقاء

يموت إمامها ويموت السلطان ولم يشأ أحد من الفقهاء الموحدين أن يصلي إمامًا لأن أزواجهم وأولادهم إذا سمعوا أن أحدهم يريد أن يصلي صلاة الاستسقاء إمامًا يفزعون ويبكون خوفًا عليه ويمنعونه. فقلت لهم: إن المرض علي شديد ولكني أرجو من الله أن يقويني حتى أصلي بكم صلاة الاستسقاء وأنا لا أخاف الموت، فاتفق الجماعة على يوم معين فجاءوني بسيارة وتوجهنا إلى مصلى العيد ورأيت الزرع بدأ ييبس، فرقيت المنبر وخُطبت خطبة غلبني فيها البكاء وصليت بهم ركعتين، وفي اليوم التالي أذن الله للسماء أن تمطر فأمطرت مطرًا غزيرًا غدقًا أحيا الله به الأرض بعد موتها واستبشر الناس وفرح أصحابنا بنصر الله على القوم المشركين.



الاجتماع بالأمير الملالي

بعد ذلك المطر كان الأمير الملالي يتحدث مع جلسائه، فقال أحدهم: أيها الأمير، على هذا الغيث ينبغي أن نعمل مأدبة كبيرة شكرًا لله تعالى، فقال: إي والله؛ فقال أحدهم: أنا أصنع لكم مأدبة، ثم قال آخر: ينبغي أن يدعى إلى هذه المأدبة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي لأنه هو الذي صلى صلاة الاستسقاء التي على أثرها جاء المطر، فقال الأمير: لا بأس ندعوه. ثم قال لأحد جلسائه- من سوء حظي أنني نسيت اسمه، وسأصفه بما لا يلتبس به مع غيره فهو رجل من أعيان القصر الكبير، وقد كان قبل الاستعمار سفيرًا للجزائر في المغرب حسب ما سمعت، وهو من جماعتنا الموحدين فقال له الأمير-: أنت من أصحابه فاذهب إليه وادعه. فجاءني -رحمة الله عليه- وقال لي: إن القائد الملالي يدعوك لحضور المأدبة التي ستقام شكرًا لله على المطر. وكنت في أشد ما يكون من الضعف، وكان مرض الربو علي شديدًا، فسألت الله أن لا يشمت بي أعدائي، وأن يمنحني خفة وقوة لكي أستطيع أن أتحدث وأشرح حقيقة دعوتي أمام هذا الرجل وجلسائه وهم أعيان البلد.

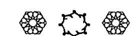
فاستجاب الله دعوتي، وخف المرض قليلًا فركبت السيارة، وتوجهت إلى المكان المعد، فسلمت عليه وأجلسني إلى جانبه، وكان فقيه القصر الكبير ابن عبدالقادر الطود حاضرًا، فبقيت ساكتًا أنتظر أن تسنح لي فرصة للكلام، فجرى ذكر اللحوم وما يستحسن أكله منها، واختلاف أذواق الناس في ذلك، فقال الأمير: يا عجبًا لأهل سِجِلْماسَة! يأكلون الجراد وهو ضرب من الخنافس، ويشمئزون كل الاشمئزاز من أكل الحلزون، (ويسمى باللغة المغربية ببوش). ثم قال: ولي أصدقاء من شرفاء سلجماسَة؛ إذا زاروني وأردت أن أغضبهم على سبيل المداعبة أقول لهم: غذاؤنا اليوم ببوش فيتقززون ويغضبون، فقلت: أيها الأمير كيف تعيب أكل الجراد على أهل بلادنا وقد أكله النبي ﷺ وتمدح أكل الحلزون وهو دود مائع، ولم يأكله النبي ﷺ فالنبي معنا وبه ننتصر عليكم، فقال الملالي: إذا كان النبي ﷺ معكم وجب علينا أن نكون نحن أيضًا معكم.

واستمر الحديث في ذكر ما يؤكل من الحيوان حتى ذكر أكل سباع الوحش كالذئب والكلب والنمر والأسد، فاندفع الفقيه الطود يسرد ما قاله خليل في مختصره - ومختصر خليل عند المغاربة هو كل شيء، هو القرآن والحديث والعلم متى جرى ذكر مسألة فقهية فالسعيد منهم هو الذي يورد عليها نص مختصر خليل وحين يسمع نصه فهو القول الفصل عندهم- فقال الطود: قال صاحب المختصر: «وكُره هِرّ وذئب ونمر وأسد». وانطلق بسرعة السهم يسْرُد مختصر خليل، فسنحت حينئذ فرصة أخرى للكلام.

فقلت له: اتقوا الله ولا تكذبوا على مالك! فإنكم أبحتم أكل لحوم السباع مع الكراهة التنزيهية ونسبتم ذلك إلى مالك، ومالك بريء من ذلك؛ فقد روى في موطئه بسنده إلى أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، ثم روى بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أكل كل ذي ناب من السباع حرام»** قال محمد بن الحسن في موطئه عقب هذا الحديث: بهذا نأخذ، يكره أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهائنا وإبراهيم النخعي انتهى.

أبعد ما يصرح مالك في روايته عن النبي ﷺ أنه قال: **«أكل كل ذي ناب من السباع حرام»** تنسبون إليه القول بالإباحة مع الكراهة التنزيهية، وتزعمون أنه هو مشهور مذهبه؟ وقد جلبتم بذلك سُبَّة على مذهبكم حتى نسب إليكم خصومكم أنكم تبيحون أكل لحوم الكلاب، وهم في ذلك صادقون لأن شراح المختصر ذكروا أن الكلب من جملة السباع. ثم خرجت من الكلام في هذه المسألة إلى الكلام في وجوب اتباع النبي ﷺ وترك تحكيم الرجال وآرائهم المخالفة لما جاء عن النبي ﷺ، وذكرت حديث عدي بن حاتم حين جاء إلى النبي ﷺ، وفي عنقه صليب، فقال له النبي ﷺ: **«ألق عنك هذا الوثن»** وكان النبي ﷺ يقرأ سورة براءة حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. فقال عدي: يا رسول الله، إنا لم نكن نعبدهم. فقال النبي ﷺ: **«أليس يحلون لكم ما حرم الله ويحرمون عليكم ما أحل الله**

فتتبعونهم» قال: بلى. قال النبي ﷺ: «**فتلك عبادتهم**» أو كما قال. ثم خرجت من ذلك إلى الدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البدع في الدين، وتحدثت زهاء ساعة والأمير يسمع وكان يحب الخوض في النوادر والضحكات، ومع ذلك صبر إلى أن أنهيت كلامي وكان رجلًا عاقلًا من أهل المروءة، ومن الأمثال: (عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل) ولما انتهيت من كلامي قال لي الفقيه ابن عبدالقادر الطود: أيها الأستاذ، إنني أكِنُّ لك الحب والإجلال، فكيف هجمت علي بمثل هذا الهجوم الشديد؟! لعلك لا تعلم أنك لما رقيت المنبر لخطبة الاستسقاء بحذائك أنكر ذلك كثير من الناس فدافعت عنك، وقلت لهم: إن فقهاءنا قالوا: لو انتقض وضوء الخطيب وهو في خطبة الجمعة ثم دعا بماء فتوضأ واستأنف خطبته جاز ذلك، فأيهما أعظم انتقاضًا الوضوء أو الخطبة بالنعلين؟! فقلت له: أنا ما قصدت الإساءة إليك، ولكني كنت أنتظر فرصة للكلام فهيأتها لي بسردك كلام خليل في أكل السباع، وجزاك الله خيرًا على دفاعك عني. أما الذين انتقدوا علي خطبة وأنا مُتَنَعِّلٌ فهم أجهل من حَميرهم؛ لأن الصلاة في النعل سنة النبي ﷺ فكيف بالخطبة؟!.



الاستسقاء بذبح الخيل

وفي تلك الأيام المجدبة بلغنا استسقاء آخر عجيب وغريب، وذلك أن أهل سريف – وهي قرية في شمال المغرب – أشار عليهم أحد الدجاجلة بما زعم أنه قرأه في كتيب من كتب الخرافات والأساطير يسمى خزينة الأسرار، وذلك أنه إذا وقع الجدب وانقطع المطر وأراد الناس الغيث يعمدون إلى مهر من الخيل فيكتبون على جبهته قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨] ثم يذبحون المهر ويعلقون رأسه في فرع شجرة عالية؛ فإنهم يمطرون، فعل ذلك أهل سريف فخيبهم الله، وفي ذلك قلت القصيدة التالية:

بَـكَـى قَـوْمٌ عَـلَى جَـاهٍ وَمَـالِ ... وَأَعْـوَلَ آخَـرُونَ مِـنَ الْهُـزَالِ
وَبَـعْـضُـهُـمُ بَـكَـى فِي إِثْـرِ خِـلٍّ ... بَـعِـيـدِ الأُنْـسِ آذَنَ بِـارْتِـحَـالِ
وبَـعْـضُـهُـمُ يَـنُـوحُ عَـلَى شَـبَـابٍ ... تَـوَلَّى ثُـمَّ بُـدِّلَ بِـاعْـتِـلَالِ
وَدِيـنُ الـلَّهِ أَصْـبَـحَ فِـي ضِـيَـاعٍ ... وَلَا بَـاكٍ عَـلَـيْـهِ وَلَا مُـبَـالِ
بِـدَهْـرٍ صَـارَ فِـيـهِ الْعُـرْفُ نُـكْـرًا ... وَنُـورُ الْحَـقِّ غُـطِّـي بِـالـضَّـلَالِ
وَسُـنَّـةُ خَـيْـرِ خَـلْقِ الـلَّهِ أَضْـحَـتْ ... تُـنَـادِي أَيْـنَ أَنْـتُـم يَـا رِجَـالِي
طَـغَـى وبَـغَـى عَـلَـيْـهَـا ذُو ابْـتِـدَاعٍ ... خَـبِـيـثٌ سَـالِكٌ سُـبُـلَ الْخَـيَـالِ
مَـتَـى مَـا شَـاهَـدَ الْغُـرَبَـاءَ هَـبُّـوا ... لِنُـصْـرَتِـهَـا تَـوَعَّـدَ بِـالْقِـتَـالِ
وَغَـرَّتْـهُ جُـمُـوعٌ وَافِـرَاتٌ ... حَـوَالَيْـهِ تُـوَالِـي مَـنْ يُـوَالِي
وَسَـاعَـدَهُ عُـمُـومُ الْجَـهْـلِ حَـتَّـى ... لَقَـدْ شَـمِـلَ الأَسَـافِـلَ وَالأَعَـالِي
وَحِـزْبُ الـلَّهِ يَـغْـلِبُ كُـلَّ حِـزْبٍ ... وَيَـنْـصُـرُهُ الْمُـهَـيْـمِـنُ ذُو الْجَـلَالِ
فَـيُـضْـلِتُ مِـنْ كِـتَـابِ الـلَّهِ بِـيـضًـا ... مُـهَـنَّـدَةً تُـضِـيءُ دُجَـى الـلَّـيَـالِي

وَمِـنْ سُـنَـنِ الرَّسُـولِ لـه سِـهَـامٌ ... وَمِـنْ حِـجَـجِ الأُصُـولِ لَهُ عَـوَالِي

وَأَهْـلُ الرَّأْيِ كُـلُّهُـمُ بُـغَـاتٌ ... يَتَامَى فِي الْحَدِيْثِ ذَوُو اخْتِبَالِ

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ السُّنَنِ الْعَوَالِي ... يَـذُقْ مُـرَّ الْهَـزِيـمَـةِ فِـي النِّزَالِ

وَيُكْسَى الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ دَوْمًا ... وَفِـي أُخْـرَاهُ يُـقْـرَى بِـالـنَّـكَـالِ

وَمِـنْ سُـنَـنِ الرَّسُـولِ وَتَـابِـعِـيـهِ ... سُؤَالُ الْغَـيْـثِ مِنْ مَوْلَى الْمَوَالِي

مِـنَ الرَّحْـمَـنِ لَا يَـدْعُـونَ شَـيْـئًا ... سِـوَاهُ مُـخْـلِصِـيـنَ فِـي الابْتِـهَـالِ

إِلَى أَنْ جَـاءَ بَـعْـدَهُـمُ خُـلُوفٌ ... دَعَـوا أَهْـلَ الْمَـقَـابِـرِ بِـاهْـتِـبَـالِ

وَقَـدْ ذَبَـحُـوا لَهُـمْ بَـقَـرًا وَشَـاءً ... وَقَـدْ نَحَرُوا السِّمَانَ مِنَ الْجِمَالِ

وَمَـنْ يَـذْبَـحْ لِغَـيْـرِ الـلَّهِ يُـلْعَـنْ ... مَقَالُ الْمُصْطَفَى خَيْرُ الْمَقَالِ

وَأَعْـجَـبُ بِـدْعَـةٍ فِـيـمَـا سَـمِـعْـنَـا ... وَأَعْـرَقُ فِـي الْجَـهَـالَةِ وَالْخَـبَـالِ

أُمُـورٌ عَـنْ سَـرِيـف قَـدْ أَتَـتْـنَـا ... تَـوَاتَـرَ نَـقْـلُهَـا بَـيْـنَ الرِّجَـالِ

فَـقَـدْ عَـمَـدُوا إِلَى مُـهْـرٍ كَـرِيْـمٍ ... مِـنَ الْخَـيْـلِ الْمُـطَـهَّـمَـةِ الْغَـوَالِي

فَـحَـزُّوا رَأْسَـهُ بِـالْسَّـيْـفِ ظُـلْمًـا ... وَلَمْ يُـذْنِـبْ إِلَى أَحَـدٍ بِـحَـالِ

وَقَـدْ كَـتَـبُـوا بِـجَـبْـهَـتِـهِ سُـطُـورًا ... مِـنَ الْقُـرآنِ يَـا لَكَ مِـنْ ضَـلَالِ

وَتِـلْكَ إِهَـانَـةٌ لِلْذِّكْـرِ جَـلَّتْ ... صِـفَـاتُ الـلَّهِ عَـنْ هَـذِي الْخِـلَالِ

وَلَوْ تَـبِـعُـوا الْكِـتَـابَ وَعَـظَّـمُـوهُ ... بِـلَا ذَبْـحٍ لِخَـيْـلٍ أَوْ بِـغَـالِ

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرآنِ يَسْلُكْ ... عَـذَابًـا، قَـوْلُ رَبِّـكَ ذي الْتَـعَـالِي

وَالاسْـتِـسْـقَـاءُ بِـذَبْـحِ الْخَـيْـلِ بِـدْعٌ ... غَـرِيْـبٌ لَمْ نَـرَ لَهُ مِـنْ مِـثَـالِ

أَأَهْـلَ سِـرِيـف اتَّـئِدُوا وَتُـوبُـوا ... إِلَى الرَّحْـمَـنِ مِـنْ هَـذَا الْمُـحَـالِ

فَـرَبَّ الْنَّـاسِ صِـدْقًـا وَحِّـدُوه ... وَقُـفُّـوا لِلْنَّـبِـي بَـحْـرِ الْكَـمَـالِ

❁ ✧ ❁

الاستسقاء بالحصى

ووقع في تلك السنة استسقاء آخر لا يقل غرابة عما تقدَّمه، وذلك أن دجّالًا من الدجاجلة أشار على أهل بلدة أن يجمعوا سبعين ألف حصاة، ويوزعون الحصى على سبعين شخصًا من القراء فينال كل واحد ألف حصاة، فيدني كل حصاة من ذلك الحصى من فمه ويقرأ عليها مرة الآية التي تقدم ذكرها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٩] ثم يضعون ذلك الحصى في أكياس ويشدون كل كيس بحبل طويل ثم يدلونها في نهر إلى أن يصير كل كيس إلى قرار النهر ويربطون رأس كل حبل بشجرة، قال لهم ذلك الدجال: حين تستقر الأكياس في أسفل النهر يبتدئ الغيث ينزل ويستمر أبدًا ما دامت الأكياس في مكانها ولو بقيت سنين، حتى إذا رأى الناس أن الأرض قد أصابها من المطر ما فيه كفايتها ينزعون تلك الأكياس، لأنهم لو تركوها لاستمر المطر بدون انقطاع حتى يعم الطوفان ويهلك الناس بالغرق، ففعلوا ذلك فلم ينالوا قطرة.

ألا ترى أيها الموحد الموفق لاتباع كتاب الله وسنة رسوله المتجنب للبدع كلها أن الله سبحانه إذا خيب سعيهم وحرمهم المطر وحبسهم، حتى توجه إليه حزبه المفلحون وهم فئة قليلة لا يبلغ عددهم مائة، وعملوا بسنة نبيهم ووجهوا وجوههم إلى الله وحده فسقاهم ذلك المطر الغزير أراد أن يجعلها كرامة ظاهرة لأهل الحق نصر بها أولياءه وكبت بها أعداءه، وبين لهم أن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لهم رزقًا، وأن الرزق بيد الله لا حيلة لمحتال في جلبه وإنما ينال بتقوى الله التي رأسُها وسنامها توحيده واتباع سنة رسوله؟!



هجو فقيه مبتدع مر علينا ولم يسلم

وكان هذا الفقيه- ولا أسميه إبقاء عليه- من أنصار البدعة والشرك، فمر علي ومعي جماعة من الموحدين فلم يسلم، فأصلت عليه سيف الهجو جهادًا في سبيل الله ليذوق وبال أمره، وهجو المشركين من أعظم القربات، وكان هذا الفقيه السفيه قد بلغ به الجهل إلى أن كان في سفر من تطوان إلى القصر الكبير، فصلى بمن كان معه المغرب ركعتين ظانًا أنها تقصر كالرباعية، فهجوته بهذه القصيدة، وذكرت تلك الحادثة العجيبة:

أَبَا مُرَّةٍ مَاذَا التَّعَاظُمُ وَالْكِبْرُ ... وَأَنْتَ حَقِيرٌ مَائِقٌ[1] أَرْعَنٌ غُمْرُ

أَبَا الْعِلْمِ إِنَّ الْعِلْمَ عَنْكَ بِمَعْزِلٍ ... كَمَا لَا يَكُونُ الدَّهْرَ فِي الْمَغْرِبِ الْقَصْرُ

وَلَمْ نَرَ فِي أَرْضِ الْمَغَارِبِ قَاصِرًا ... كَقَاصِرِ فَرْضِ لِلنَّهَارِ هُوَ الْوِتْرُ

مَتَى رُمْتَ أَنْ تَضْحَى فَقِيهًا مُحَقِّقًا ... فَقَدْ رُمْتَ أَمْرًا دُونَهُ الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

وَلَا فَضْلَ إِنَّ الْفَضْلَ لَسْتَ بِأَهْلِهِ ... وَلَا حَسَبٌ يلفى لَدَيْكَ وَلَا قَدْرُ

وَحَظُّكَ فِي التَّدْرِيسِ حَظٌّ موَقَّرٌ ... فَبَاقِلٌ إِنْ يُنْسَبْ إِلَيْكَ هُوَ الْحَبْرُ

وَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامِ عَرَفْتَهُ ... وَأَدَّيْتَ حَقًّا وَاجِبًا تَرْكُهُ وِزْرُ

وَلَوْ ذُقْتَ لِلإِيمَانِ أَدْنَى حَلَاوةٍ ... لأَخْرَجَ مِنْكَ الْغِشَّ وانْشَرَحَ الصَّدْرُ

وَمَا يَسْتَقِيمُ الظِّلُّ وَالْعُودُ أَعْوَجُ ... وَلَا يُثْمِرَنَّ الشَّهْدَةَ الْحَنْظَلُ الْمُرُّ

جَهِلْتَ لَحَاكَ اللَّهُ مَا فِي ابْنِ عَاشِرٍ ... أَمِنْ بَعْدِ هَذَا الْخِزْيِ يَنْفُخُكَ الْكِبْرُ

قَضَاؤُكَ يَا شَيْخَ التُّيُوسِ جِنَايَةٌ ... عَلَى الدِّينِ إِنَّ الدِّينَ قَدْ مَسَّهُ الضُّرُّ

إِذَا كَانَ رَبُّ الْجَهْلِ مَيْتًا فَإِنَّمَا ... ثِيَابُكَ أَكْفَانٌ وَمَكْتَبُكَ الْقَبْرُ

---

(١) المائق: الأحمق.

انتقام المستعمرين مني

تقدم أني سافرت إلى شفشاون للبعد من شاطئ البحر طلبًا للشفاء من مرض الربو، وبها لقيت الحسيب النسيب الكريم السيد أحمد الريسوني، وضيفني واعترف لي بأنه كان مع تلك الجماعة عازمًا على قتلي حتى نهاهم عن ذلك الأمير العبقري السيد خالد الريسوني -رحمة الله عليه- بقيت في شفشاون خمسة أشهر أكثرها في بيت السيد أحمد الريسوني، ثم تزوجت بفتاة من قرائب أحد إخواننا، وكنت ألقي دروسًا منتظمة في الجامع الكبير دون أن أطلب إذنًا من المستعمرين كما اتفقت عليه معهم في أول الأمر، وكانوا قد شرطوا علي أن لا أسافر إلى المدن الصغيرة والقرى إلا بإذنهم، فسافرت إلى شفشاون بإذنهم، ولكنني شرعت في إلقاء الدروس بغير إذن، يضاف إلى ذلك ما يأتي:



الاتصال بالوطنيين المقاومين للاستعمار

كان من أشد الناس إقبالًا على دروسي ومرافقتي رجال حزب الإصلاح الوطني أذكر منهم الحسيبين النسيبين السيد عبدالله قريش والسيد العياشي العلمي.

❁ ✡ ❁

تأليف مختصر هدي الخليل

قال لي أولئك الإخوان: إن الله قد هدانا بدعوتك إلى توحيده واتباع رسوله ﷺ، ونحن ضعفاء في العلم لا نستطيع أن نغوص في بحور كتب السنة على دلائل المسائل ومعرفة ما يوافق السنة لنتجنب مخالفتها، ولا نأمن أن تفارقنا بالموت أو بحادث آخر؛ فنرجو من فضلك أن تؤلف لنا كتابًا يحتوي على مسائل العقائد والعبادات مجردًا عن الأدلة مطابقًا للسنة المحمدية، فأجبتهم إلى ذلك، وصرنا نجتمع في بيتي كل ليلة إلى منتصف الليل، أحدهم يكتب وأنا أملي والباقون يطالعون، كل واحد في يده كتاب من كتب الحديث حتى أتممنا في مدة قصيرة كتاب (مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل) وتبرعنا جميعًا بالدراهم اللازمة لطبعه حتى تبرعت النساء المحتجبات في بيوتهن بدون أن تذكر أسماؤهن، وهكذا تكون الدعوة الكاملة الصافية الخالية من الأغراض الدنيوية، فتخالط بسببها بشاشة الإيمان قلوب المستجيبين لها، وكان الحاكم الإسباني يبعث عيونه يتجسسون علينا، فيرجعون إليه ويخبرونه بأننا نجتمع كل ليلة إلى ما بعد منتصف الليل، فيعد ذلك من الائتمار بالحكم الإسباني والسعي في القضاء عليه، ويبلغ ذلك إلى إخوانه المستعمرين في تطوان.



التعاون مع الإمام الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه

وبينما المستعمرون الإسبانيون مغتاظون علي لأني نقضت العهد الذي بيني وبينهم لأمرين: أحدهما: الاتصال بالوطنيين والتعاون معهم. والثاني: إلقاء الدروس بدون إذنهم. وهناك ثالث: وهو نشر المقالات في صحيفة الحرية -لسان حزب الإصلاح الوطني- إذا بهم يكتشفون أمرًا عظيمًا له بال هو أشد خطرًا من كل ما تقدم، وذلك أن الإمام حَسَنًا البنا -رحمه الله ورضي عنه- كتب إلي يقول: إن صحيفتنا: (الإخوان المسلمون) بلغت من الرواج، والانتشار -ولله الحمد- إلى أن صارت في مقدمة الصحف اليومية التي تصدر في القاهرة، ولنا مكاتبون في جميع أنحاء العالم إلا في المغرب، فليس لنا مكاتب يبعث لنا بأخبار إخواننا المسلمين في هذا القطر المهم، فأرجو من فضلك أن ترشدنا إلى مكاتب تختاره لنا وتخبرنا بما يطلب من المكافأة؛ وإن سمحت لك صحتك بأن تكون أنت بنفسك ذلك المكاتب، فهو أحب إلينا فأجبته:

لَبَّيكَ يَا لَبَّيكَ يَا لَبَّيكَا   هَأَنَذَا مُنْطَلِقٌ إِلَيكَا

أنا الذي أتشرف بأن أكون مكاتبًا لصحيفة الإخوان المسلمين، ولا أريد على ذلك أجرًا إلا من الله تعالى:

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً   ضَعِيفُ الْهَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابَا

فشرعت في كتابة المقالات وكتبت إلى الصحيفة المذكورة عدة مقالات باسم مستعار وظننت أن هذا العمل سرٌّ مكتومٌ، وكان ذلك غفلة مني ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا. فقد كانت الامتيازات التي اشترطها البريطانيون على المستعمرين الإسبانيين والفرنسيين في المغرب تقضي على الفريقين بأمور: منها: أنهم لا يتعرضون لمن له حماية إنكليزية من المغاربة. ومنها: أن يكون للبريطانيين في كل مدينة من كُبريات مدن المغرب بريد لا يدخل تحت مراقبة المستعمرين.

وغاب عني أن القنصل الإنكليزي من أشد أعدائي، وقد ائتمر مع الإسبانيين علي فمنعوني من الرجوع إلى البلاد الجرمانية، وقد احتج على مقالاتي في صحيفة

الحرية عند الإسبانيين، وعاقبوا الصحيفة مرات بالغرامة والوقف المؤقت كما فعل القنصل الفرنسي، وسيأتي مزيد من بيان لهذه العداوة إن شاء الله عند ذكر زيارتي للسفارة الإنكليزية قبل سفري إلى المشرق.

أضف إلى ذلك أن الموظفين في البريد البريطاني في تطوان كلهم مغاربة، وهم رعايا للإسبانيين بحكم الاستعمار، وقد أكد عليهم الإسبانيون بالرهبة والرغبة ألا يروا رسالة فيها مساس بالإسبانيين إلا أطلعوهم عليها، فكانوا يطلعونهم على تلك المقالات قبل إرسالها وأنا غافل عن ذلك، فأجمع المستعمرون على أن ينزلوا بي عقابًا صارمًا، فأوعزوا إلى جنودهم من عبيد الاستعمار- ومنهم وزير العدل في ذلك الزمان وأمير شفشاون ونائب قاضيها الحسن العمرتي- أن يدبروا لي مكيدة يوقعوني بها في شرك العقاب دون أن ينكشف أن الدافع لها هم الإسبانيون، ففكروا ودبروا وقدروا فظنوا أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في أمر إسلاميّ إصلاحيّ.

وذلك أنهم علموا أني حين أقمت بشفشاون وعظت قراء القرآن جماعةً بلسان واحد أن يتركوا ذلك العمل لأنه مخالف للسنة، وذكرت لهم حديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر وقال: «**ألا إن كلكم يناجي ربه فلا يؤذين بعضكم بعضًا ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة**» وروى مالك في الموطأ عن فروة بن بياضة أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إن المصلي يناجي ربه لينظر بما يناجيه به ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**» قال ابن عبدالبر: حديث البياضي وأبي سعيد ثابتان صحيحان. فاستمعوا لنصحي وتركوا القراءة على تلك الصورة، ثم تبعهم أهل المساجد الأخرى.

فوجد أمير شفشاون ونائب قاضيها باتفاق مع الوزير الوازر أنه يدخلون علي من هذا الباب، فأعد الوزير وأعوانه فتوى في صحيفة طولها نحو ذراعين- أراني إياها الوزير فيما بعد- وزعموا أن الراجح في مذهب مالك أن القراءة برفع الصوت جماعة في المسجد- وإن كان الناس في كل لحظة يدخلون ويصلون تحية المسجد- جائزة بل مستحبة، وكل من درس مذهب المالكية في هذه المسألة يعرف أنهم كاذبون، وقد نص خليل على ذلك بقوله: «وجهر بها في مسجد كجماعة وأقيم القارئ في المسجد يوم الخميس أو غيره» وبسط القول في ذلك شراحه خصوصًا المواق. فضربوا بذلك عُرْض الحائط واتبعوا بنيات الطريق.

ولما أعدوا الفتوى وأطلعوا على ذلك سادتهم المستعمرين، رضوا عنهم وقالوا لهم: لله دركم من عبيد ناصحين مخلصين، فإن هذه المكيدة لم تخطر لنا على بال وبها يبقى أمرنا سرًا مكتومًا، فاتفقوا مع أمير شفشاون أن يأمر القراء بالعود إلى تلك المخالفة؛ لأنهاهم أنا فيتخذ ذلك وسيلة للقبض علي وإيداعي السجن بدعوى التشويش في أمور الدين، فجاءني النذير من أصحابنا وأخبرني بأن الأمير ونائب القاضي وأعوانهما سينصبون هذا الفخ الشيطاني في الجامع الكبير يوم الجمعة، وسيأتي الأمير بالشرطة معه ليقبضوا عليّ.

وكنت في ذلك الوقت أقاسي من شدة الربو والضعف الشيء الكثير، فقال لي: وازع النفس الأمارة بالسوء: اترك صلاة هذه الجمعة وأنت مريض عذرك معك ولا تجعل لهم سبيلًا عليك فما بك قدرة على السجن والتعذيب!! فقال لي وازع الله في قلبي: أنت خضت هذه المعركة منذ زمان طويل، ولم تبال بما يصيبك في سبيل الله فكيف تجبن اليوم؟ فغلبت النفس اللوامة على النفس الأمارة، وذهبت وأنا أظن أنني لا أتم صلاة ركعتين تحية المسجد حتى يصعد الخطيب على المنبر ولا يبقى مجال لتغيير المنكر، ولكن ما كتب على المرء لا بد من وقوعه، فتوجهت إلى الجامع الكبير ووجدت جماعة القراء قد عادت إلى القراءة جماعة رافعين على حلقتهم ورفعت صوتي، وقلت: قال رسول الله ﷺ: «**كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن ولا يؤذ بعضكم بعضًا**» فما كدت أنتهي من هذا الحديث حتى سمعت صوتًا وهو صوت الأمير يقول: اشت اسكت. فقلت: اسكت أنت يا جاهل يا ظالم أما تستحي من الله أن تقابل حديث رسول الله ﷺ بمثل هذا من سوء الأدب؟! فما شعرت إلا وخمسة من الشرطة يدفعونني إلى باب المسجد، فمروا بي على نائب القاضي الحسن العمرتي، فقام واقفًا وقال بأعلى صوته: اضربوا الكلب الكافر. هذا أمر من الخليفة ففضح سرًا دون أن يشعر، ولم يمهلوني أن أبحث عن حذائي، فقلت لهم: أنا لا أمشي حافيًا؛ فذهب بعضهم وجاءني بأحذية متعددة حتى وجدت من بينها حذائي فاحتذيته، فصار أحدهم يدفعني في كتفي ويقول: (زيد زيد) ومعنى ذلك باللغة المغربية امش امش، فقلت: يا هذا، هون عليك، فإنك لا تستطيع أن ترعبني، ولست بنادم على ما صنعت ولا خائف مما تبيتونه لي، والله غالب على أمره، ولكنكم قوم تجهلون. قلت معنى ذلك باللغة المغربية، حتى أوصلوني إلى غرفة التوقيف التابعة لمكتب الأمير وأدخلوني

وأغلقوا علي الباب: وكان معي مصلاي فبسطته وصليت الظهر أربع ركعات، وكانت رائحة كريهة تنبعث من أركان تلك الغرفة وإن كنت لم أر نجاسة فيها.

وبعد نصف ساعة أي بعدما رجع الأمير من الصلاة وعلم أن أعوانه حبسوني في غرفة الموقوفين، وهو يعلم خبثها تحركت فيه عاطفة الرفق، فأمر أحد الكتاب أن ينضم إلى موظف آخر، ويترك غرفته حسب ما سمعت وأمرهم أن ينقلوني إلى غرفته، فسمعت صلصلة المِفْتاح في القُفْل، ففتح الباب ودخل شرطي، وقال لي: قم، واتبعني؛ فانطلق بي إلى غرفة نظيفة فيها مقعد خشبي، فجلست عليه وأغلق علي الباب بالمفتاح، فبعد قليل فتح الباب ودخل علي أحد الموظفين وهو من أقارب الأمير وهو المسمى: ابن اليماني، وجاءني بطعام فأكلت منه قليلًا، وقال لي: إن الأمير نادم على عمله، ولكنك أهنته أشد الإهانة على رءوس الأشهاد، فصار مضطرًا إلى أن يعاملك بمثل هذه المعاملة. فقلت له: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۞ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

ثم أعلمت زوجتي بما وقع؛ فبعثت لي فراشًا وطعامًا مع أخيها، فلم أستطع أن آكل شيئًا، فقلت له: رده وأتني بالمصحف، لأني أحب أن أقرأ فيه لأكون أقوى على التدبر مني لو قرأت من حفظي فجاءني به.

وفي تلك الأيام كان المجاهد العظيم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان قد توفي إلى رحمة الله، فأردت أن أنظم قصيدة في رثائه، وطلبت أداة كتابة فلم يأذن بذلك الأمير، فأخذت أنظم القصيدة بدون كتابة بيتًا فبيتًا حتى أكملتها ستة وعشرون بيتًا لأنشدها يوم تأبينه أو أبعثها لتنشد في ذلك اليوم إن بقيت في السجن، فقضى الله سبحانه أن أخرج من السجن وأحضر يوم التأبين وأنشدها فيه، ولم أر مناسبة لذكرها هنا لأنها لا تتعلق بالدعوة، وقد نقلها المجاهد الكبير محمد علي الطاهر في كتابه ذكرَىٰ الأمير شكيب أرسلان فليرجع إليه من شاء الاطلاع عليها.

وعند منتصف ليلة السبت وهي الليلة الأولى التي قضيتها في السجن أو التوقف كما يسمونه، سمعت صلصلة المفتاح في القفل، ففتح الباب وجاءني ذلك الشرطي الذي كان يدفعني أمس ويقول: امش امش. فأخذ يقبل يدي ورجلي ويقول: سامحني يا سيدي ولا تؤاخذني بما فعلت فإن هذا الأمير الظالم أمرني بذلك؛ وإن شئت أن تخرج إلى صحن الدار لاستنشاق الهواء النقي، فأنا في خدمتك؛ وإن أردت طعامًا أو شرابًا أو فراشًا، فأمرني به. فدعوت له بخير وعفوت عنه وقلت: لا أحتاج إلى شيء.

الاجتماع بالحاكم الإسباني

وفي ضحى يوم السبت فتح الباب وأمرت بالخروج، فلقيت شرطيًا عند باب المبنى ينتظرني، فقال لي: أنا رسول المراقب المدني إليك لتأتي إلى مكتبه، ولأجل أن لا يراك الناس في هذه الحال سأخرج بك خارج المدينة ونسير في طريق البساتين إلى أن نصل إلى مكتب المراقب. فقلت له: أنت مخطئ في ظنك، أتظن أني أستحي أن يراني الناس ويعلموا أني مسجون على يد المستعمرين؟ إني أرى ذلك شرفًا وأحب إعلانه؛ فقال لي: على كل حال الأفضل أن لا نمر بالسوق، فقلت له: إن أمرك المراقب، بذلك فلا بأس، فانطلقت معه إلى المراقب فأجلسني أولًا في مكتب فقيه المراقبة فسلم علي الفقيه سلام إجلال وتكريم، وقال لي: جزاك الله! خيرًا لقد شرفت أهل العلم بصبرك وجهادك وشجاعتك. إن الناس كانوا يقولون: إن العلماء جبناء، فأقمت أنت البرهان على كذبهم، وأهل هذه المدينة أصبحوا يجلونك ويحبونك حتى الذين كانوا يعادونك من قبل، وفي هذا اليوم ظهر لك مقال في صحيفة الحرية فتخطف الناس أجزاءها وقرأوا مقالك بشوق.

فجاء الشرطي ودعاني إلى مكتب الحاكم الإسباني، وكان من فضل الله علي أنني ما هبت أحدًا منهم ولا ناظرت أحدًا منهم إلا ظهرت عليه، فدخلت المكتب وجلست على كرسي مواجه له، فافتتح الحديث بقوله: إننا متأسفون على ما وقع بينك وبين الأمير ونائب القاضي، ولما كانت هذه المسألة دينية لم يكن لنا أن نتدخل فيها، ونحن نكرم أهل العلم ورجال الدين ونرى أنه ينبغي لهم أن يكونوا حلماء، ويصفحوا عن المسيئين إليهم، ولذلك أقترح عليك أن تجتمع مع الأمير وتتصالح معه ليتمكن من إطلاق سراحك. (وكلامًا من هذا القبيل) فقلت له بواسطة الترجمان- مع أني كنت أفهم ما يقول لأني كنت في برلين قد دفعت أجرة مائة ساعة لتعلم اللغة الإسبانية فحضرت منها ستين ساعة، أضف إلى ذلك أني أقمت في غرناطة أربعة أشهر كما تقدم- قلت له: هذا الاقتراح الذي اقترحت علي يتفق عندكم مع تعظيم الدين والعلم وحرمات المساجد! أرأيت لو أن قسيسًا كان يعظ الناس في الكنيسة فقام رجل من الحاضرين وأساء الأدب مع الدين ومعه وأسكته؛

فقال له القسيس الواعظ: أنت أحق بالسكوت يا جاهل يا ظالم. وكنت أنت حاكم تلك المدينة ثم رُفع الأمر إليك فبأي حكم تحكم؟ أتحكم بحبس القسيس وإلزامه بطلب العفو من ذلك الظالم الذي أمر بحبسه وأساء الأدب مع الدين وانتهك حرمة الكنيسة؟ أم تأمر بحبس ذلك الجاني وإطلاق سراح القسيس والاعتذار له وإرضائه؟! فقال لي حائدًا عن الجواب: مقصودي أن العلماء من شأنهم أن يكونوا حلماء. فقلت: أرني حقي ثم اطلب مني الحلم؛ أما قولك: إنها مسألة دينية، فليس بصحيح، فإني أقمت هنا أكثر من خمسة أشهر والأمير ونائب القاضي يعاديانني ولم يتجرءا على الإساءة إلي حتى حرضتموهم على ذلك وهما عبدان خاضعان لكم لا يتجرآن أن يحبسا نملة إلا بأمركم، وأنا لست من الغفلة بالمكان الذي يروج علي فيه اعتذارك هذا، فهو مردود عليك، فقال لي: أنا متأسف وما أردت لك إلا الخير وأنت حر في تصرفك.

وكان مما قاله لي ونسيت ذكره في موضعه أن الأمير كان مكرهًا على حبسك لأنك شتمته أمام رعيته، فلو لم يحبسك لم يبق له حرمة عندهم فلا يستطيع أن يحكم على أحد بعد ذلك. فقلت له: أهكذا تكون العدالة عندكم في إسبانيا؟! يتجرأ أمير قرية على إسكات واعظ في الكنيسة والأمر بحبسه ولا يعد ذلك ظلمًا ولا إهانة للدين والعلم ثم يعتذر للظالم بهذا العذر البارد، فهب أنه لم تبق له حرمة عند رعيته ولا يستطيع أن يحكم عليهم فهناك حكم آخر هو أحسن وأعدل، وهو أن يعزل ذلك الحاكم ويعاقب على عمله ويستبدل بغيره.

فانصرفت من عنده والترجمان يرافقني وهو متأسف علي، فقال لي: ماذا صنعت بنفسك يا أخي؟ أنت مريض ولا قوة لك على البقاء في السجن، ولا تظن أن هذا الذي أنت فيه هو السجن، إنما هذا هو توقيف وتمهيد، وسيحكم عليك بالسجن، والمكث فيه صعب، ولا تغتر بما يظهره لك الناس من المحبة فإنه يمكن أن تبقى في السجن حتى تموت. فقلت له كما قلت للإسباني قبله: أتريد مني أن أذهب إلى الأمير وأتذلل له وأكذب على نفسي وأقول: إني كنت مخطئًا في جوابي لك فأسألك العفو؟ فقال: هذا الذي يحتمه الحال التي أنت فيها. فقلت: لن أفعل ذلك أبدًا إن شاء الله، وليكن ما عسى أن يكون، فقال لي: أرجو أن توافقني على لقاء الأمير فقط. فقلت: أنا موافق عليه؛ فقال: انتظرني هنا. فرجع إلى الحاكم؛ فقال: إنه قبل أن يجتمع بالأمير فأذن لي أن أرافقه. وكان هذا الرجل ناصحًا لي،

ولم يكن يدري أن الأمر ليس بيد الأمير ولا بيد حاكم شفشاون، وإنما جاء من الدائرة العليا في تطوان، وهو أمر بُيِّتَ بليل، فلم يأذن له الحاكم، بل قال له: الشرطي الذي جاء به يرده؛ فقال الترجمان للشرطي: اذهب به إلى الأمير.

فذهبت إلى الأمير في مكتبه، وقلت: السلام عليكم؛ فقال: وعليكم السلام، اجلس. وأشار إلى كرسي فجلست وبقينا ساكتين، ثم قال: أيها الأستاذ، أنت قلت في المسجد أمام الناس: إني جاهل وأنت صادق، ولكن لو قلتَ ذلك وصفحتُ عنك، لسقطت في أعين الناس، ولم يبق لي عندهم احترام. فقلت له: ماذا تريد بهذا الكلام؟ لعلك تريد إظهار الندم وفتح باب الصلح. فقال: نعم. فقلت له: لي شرط واحد؛ إن أنت قبلته، سامحتك في الدنيا والآخرة؛ وإن لم تقبله، فردني إلى السجن. وقبل ذلك قلت له: لماذا كنت قبل أن أجيء إلى بلدك كلما رأيتني في تطوان أسرعت إلى السلام علي ببشاشة وتودد، ولما جئت إلى بلدك لم تسلم علي ولا مرة واحدة ولا ضيفتني؟ فقال لي: لم أستطع ذلك. معناه أنه يخاف من الإسبانيين، ثم قلت له: وهذا هو الشرط أن تقف في المسجد الجامع قبيل أن يرقى الخطيب على المنبر، وتقول: أيها الناس اشهدوا علي أني كنت ظالمًا حين أسكت الدكتور محمدًا تقي الدين الهلالي يوم الجمعة الماضي، وإني أشهدكم أني تبت إلى الله وإنني ألتزم نصرة سنة النبي قولًا وعملًا حتى ألقى الله. فقال لي: دعني أفكر في هذا الأمر. فقلت: إذًا أرجع إلى السجن حتى تفكر. وكان الشرطي عند الباب فذهبت معه إلى السجن.

أما أهل شفشاون فإنهم استنكروا هذا العمل كل الاستنكار، ولم يخافوا سطوة الأمير ولا سطوة الإسبانيين واجتمع خلق كثير منهم، فتوجهوا إلى مكتب الأمير ليبدوا له استنكارهم ويطلبوا منه إخراجي، فأمر الشرطة أن يصرفوهم، فصرفوهم ومن شدة إعجابهم بموقفي وثباتي أشاعوا أن الأمير عرض علي أن يطلق سراحي فامتنعت، ولعلهم فسروا اشتراطي ذلك الشرط عليه بالامتناع. ووجدت بخط يدي ما نصه أن سكان شفشاون قد قاموا وقعدوا لهذه الحادثة وأقاموا القيامة، وبلغ بهم الأمر إلى أنهم هجروا الجامع الأعظم في الجمعة التالية، فلم يصل فيه أحد إلا الغرباء الذين يأتون إلى السوق، وذهب جماعة من المواطنين إلى طنجة واحتجوا على هذه الحادثة عند السفير الإسباني، وأذاعت إذاعة لندن [الخبر]، وقاطعوا الأمير بقدر جهدهم، فقد كانت لهم عادة في أوائل ربيع الأول أن ينادي المنادي في

الناس بأمر من الأمير أن يجمعوا النقود لشراء ثور يذبحونه في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر على القبة المدعوة سيدي علي بن راشد، ويبيتون ليلة الثاني عشر مع أمير المدينة ينشدون القصائد في المدح النبوي في تلك القبة إلى أواخر الليل، وبعد هذه الحادثة دخل ربيع الأول ونادى المنادي وكان شابًا فذهب الناس إلى أبيه، وقالوا له: كيف تترك ابنك يعين هذا الظالم الذي قبض على الدكتور يوم الجمعة بالمسجد الأعظم؟! فلام الرجل ابنه، فقال: إني فعلت ذلك خوفًا منه فقط، وأنا أقول للناس بصوت منخفض: لا تفعلوا لا تفعلوا، ولم يتبرع أحد بفلس واحد لشراء الثور، فاضطر الأمير أن يشتريه من ماله الحرام، وما ذبح لغير الله فهو جدير أن يشترى بمال حرام، ولم يشاركه أحد من أعيان البلد فيما يسمى عندهم بإحياء الليلة وهو في الحقيقة إماتة لها.

وهذا في زمن الاستعمار عمل عظيم ولا يستغرب مثله من سكان الشمال، فإن لهم مواقف مشرفة في محاربة الاستعمار ولا يتجرأ عليها سكان الجنوب؛ ولولا خوف الإطالة لذكرت أمثلة من ذلك.

وفي عصر ذلك اليوم وهو السبت ٢٤ صفر ١٣٦٦هـ الموافق ١٧يناير ١٩٤٧م جاءني السيد عبدالسلام بن محمد المؤذن، والسيد محمد العبودي وهما من خاصة تلامذتي من الشبان، فدخلا علي في معتقلي، وقال لي السيد عبدالسلام: إنا جئنا ظهرًا وكنا عند الأمير، وبلغته أن والدي السيد محمدًا المؤذن ساخط كل السخط على معاملته لك. وقال: وقلت له أنا: أين الصداقة والأخوة التي بيننا، كيف تقبض على أستاذنا وتخرجه من المسجد وتحبسه بصورة مخزية لك وتبقى بيننا وبينك مودة؟! فقال لي: يا سيدي عبدالسلام، هذا سر لا أستطيع أن أخفيه عنك، ولا أستطيع أن أبوح به لغيرك، إن المراقب الإسباني هو الذي أمرني بالقبض عليه، وقد جاءه الأمر من تطوان بذلك، وأرجو أن تكتم على هذا الأمر ولا تخبره به، فإن في ذلك خطرًا على منصبي، وغدًا يوم الأحد ما فيه شغل وفي يوم الاثنين يكون عندكم في تطوان. فإن قلت: لماذا يخاف الأمير من السيد عبدالسلام ووالده كل هذا الخوف؟ فالجواب، أنه كان له عيال كثير، وكان مفلسًا على الدوام؛ فإذا أراد المستعمرون توزيع سلفة من الحبوب على الأهالي يطلبون منه ثمنها نقدًا، فلا ينقذه إلا السيد محمد المؤذن، فهو يقرضه المال الذي يدفعه للمستعمرين، ثم يأكل هو أكثر تلك الحبوب، ويوزع شيئًا قليلًا على أصدقائه، وهذا أمر مألوف بين حكام الشعوب المستعمرة.

الانتقال إلى تطوان

مر يوم واحد وهو يوم تعطيل عند النصارى، يمنع حكامهم رعاياهم ورعايا البلدان الواقعة تحت حكمهم من العمل من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الاثنين، حتى المستشفيات يعطل فيها الشغل ولا يفعل إلا ما هو ضروري لإنقاذ الحياة وكذلك المدارس والمحاكم ودور التجارة والمصانع إلا أن سكك الحديد والطائرات والمطاعم لا تعطل. ومن خالف هذا القانون واشتغل، يعاقب عقابًا صارمًا، وليس العجب من النصارى إذا عطلوا يوم عيدهم المكذوب على المسيح فذلك دينهم، ولكن العجب كل العجب من سكان المستعمرات التي كان يحكمها النصارى كباكستان والمغرب والجزائر ثم استقلت منذ زمان طويل ومع ذلك ما تزال محافظة على سنة النصارى في تعطيل يوم الأحد وتعطيل أيام عيد الميلاد، وكذلك لم يزل هؤلاء وغيرهم محافظين على سنة النصارى في استعمال تاريخ النصارى وهجر تاريخ الإسلام حتى أن علماء الدين أنفسهم يكتبون إلى إخوانهم المسلمين يؤرخون لهم الكتب بتاريخ النصارى وللكلام على هذا موضع آخر وإنما هي نفثة مصدور.

وإنما قلت: إن جعل يوم الأحد عيدًا للنصارى مكذوب على المسيح في جملة ما كذبوا عليه كأكل لحم الخنزير، وقولهم: إن الله ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس؛ لأن المسيح كان يعطل يوم السبت كسائر بني إسرائيل، والأناجيل الأربعة طافحة بذلك، فلما تنصر الملك قسطنطين كره موافقة اليهود فنقل العيد من يوم السبت إلى يوم الأحد.

أقول: مضى يوم الأحد علي في السجن لأنه لا عمل فيه وقبل فجر يوم الإثنين سمعت صوت المِفْتاح في القُفْل ثم فُتح الباب، وقال لي الحارس: خذ ما تحتاج إليه من أمتعتك لأنك ستبارح هذا المكان. فأخذت اللبدة التي أصلي عليها، ولم آخذ شيئًا غيرها، وخرجت من مبنى مكتب الأمير فوجدت حارسًا آخر على الباب

ينتظرني، فسلم علي بلطف وأدب غير معهود من حراس مكتب الأمير، وقال لي: اتبعني هاهنا. فتيممت وصليت الصبح لأن فرضي في تلك الأيام كان تيممًا للمرض الذي كنت مصابًا به، ثم رجع إلي الحارس وأخذني إلى السيارة وركب إلى جانبي فتوجهت السيارة إلى تطوان.

ولما نزلنا رافقني الحارس إلى مكتب (كاساس) وهو المراقب الإسباني الذي كان يتصرف في جميع شؤون الحكم في تلك الأيام وكان شديدًا على المغاربة، وكنت أقول فيه باللغة الإسبانية (كاساس كيقا أدستروير سوس كاساس) وهذا سجع لأن الكلمة الأولى والأخيرة لفظهما واحد ومعناها مختلف فالأولى علم على ذلك الحاكم الإسباني، والأخيرة معناها بيوت أو ديار. ومعنى الجملة: كاساس هو الذي سيخرب بيوتهم؛ أي: بيوت قومه الإسبانيين، وكذلك وقع؛ فإنه بقي يحكم بأمره وأمر رؤسائه حتى فاجأه الاستقلال وخرج من تطوان خاسئًا ذليلًا. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما جلست أمام كاساس قال لي: نحن متأسفون لهذا الحادث وقد اشترط عليك الحكام الذين كانوا قبلي أن لا تسكن في المدن الصغيرة؛ لأن حكامها يتصرفون حسبما يظهر لهم. ولما كان هذا الحادث من شئون الدين الإسلامي، فنحن لا نحب أن نتدخل فيه، وإنما ننفذ ما يحكم به القاضي والأمير، فقلت له: إنني لم أبلغ من الغفلة والجهل إلى الحد الذي تظنه، فهذا الحادث بحذافيره منكم وإليكم، وتستركم بدين الإسلام وبالمسجد وبالقاضي والأمير لا يجديكم نفعًا، وبرهان ذلك: أن هذه المسألة -وهي وعظ قراء القرآن أن لا يرفعوا أصواتهم ولا يقرؤوا جماعة- وقع منذ أكثر من خمسة أشهر واستمع القراء وقبلوا النصح وتركوا القراءة طوال هذه المدة، والأمير والقاضي يسمعان ويريان ولم يحركا ساكنًا ولا ينبسا ببنت شَفَة حتى أوعزتم إليهما بنصب هذا الشرَك ولم تقتصروا عليهما، بل أوعزتم إلى وزير العدل أن يحضر فتوى بذلك.

فقال لي: أنا آسف على تصورك هذا الذي هو ما تخيلته ولا نصيب له من الصحة. فقلت له: أنت حاكم تستطيع أن تجعل الصحيح باطلًا والباطل صحيحًا بالقول، ولا يستطيع أحد أن يعارضك، ولكن الحقائق في نفسها ثابتة لا تتبدل.

قال لي: نحن لا نمنعك أن تسكن في شفشاون، ولكننا لا نستطيع أن نضمن لك أن لا يتكرر مثل هذا الحادث؛ لأننا لا نستطيع أن نقيد أيدي الحكام المغاربة والإسبانيين عن التصرف طبق ما يرونه صالحًا للبلد الذي يديرون شؤونه. ثم قال لي: أنت حر طليق يمكنك أن تتصرف.

فكانت مدة إقامتي في السجن إلى أن أطلق سراحي ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى الاستقرار في تطوان، وبعثت أحد تلامذتي إلى شفشاون، وأرسلت معه رسالة إلى إخوة الزوجة أن يأتوا بها وبالأمتعة إلى تطوان.



لماذا خذلني خليفة السلطان مولاي الحسن ابن المهدي

كان من أسباب انتباه الإسبانيين إلي وإساءتهم لمعاملتي أن هذا الخليفة بعث إلي سيارته في الأسبوع الأول الذي قدمت فيه تطوان، وكنت في نادي الطالب المغربي مع أن المسافة بين النادي والقصر الخليفي لا تحتاج إلى سيارة ولكنه أراد إكرامي فركبت السيارة ووصلت إليه فرحب بي، وقال لي: لي أمنية لم تزل تختلج في صدري؛ وهي إنشاء معهد للقرآن والحديث، ولكني لم أجد لهذا المعهد رجلًا كفؤًا أطمئن إليه في تدبير شؤونه، حتى قدمت أنت وعلمت ما لك من الفضل والعلم والدين فأرجو أن تقيم عندنا في تجلة وإكرام ولا ترجع إلى ألمانيا لأن بلادك في حاجة إليك، فدعوت له وشكرته على حسن ظنه واعتذرت بأنني جئت لزيارة تطوان بقصد الرجوع إلى برلين؛ لأن لي علائق لا بد من إنهائها فعاد إلى الإلحاح فقلت: أفكر في هذا الأمر؛ أما جواسيس الاستعمار، فقد أسرعوا إلى الإسبانيين وبلغوهم هذا الاجتماع فحسبوا له حسبانًا وفكروا وقدروا.

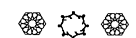
وكان ذلك سببًا لأن دعاني مدير الشرطة العام إلى مكتبه، واستنطقني لمدة ثلاث ساعات كلها سين وجيم كما يقولون، وعلى أثر ذلك انتزع مني جواز السفر، وقال لي: سأنقل ما فيه وأرده لك. فكان ذلك آخر العهد به، ثم تلا ذلك ما تقدم ذكره من اتهام الإسبانيين لي بأنني مبعوث من الحكومة الألمانية للسعي في إخراج الإسبانيين من المغرب.

ولما رأى الخليفة الإسبانيين عاملوني بتلك المعاملة صرف النظر عما دعاني إليه. وتولى الإسبانيون أنفسهم تأسيس المعهد الإسلامي الأعلى.

وهذا الخليفة وإن كان مقيدًا بسلاسل الاستعمار فإنه كان متصفًا بالشهامة والغيرة على الإسلام كما ستعرفه فيما بعد، إلا أن الوشاة من أعداء التوحيد والسنة بلغوه أني صرت من أتباع أمير العرائش السيد خالد الريسوني وكانت بينهما عداوة شديدة، وإن كان الخليفة في الظاهر هو نائب السلطان وهو الرئيس على جميع

الأمراء إلا أن الاستعمار كان يسير على خططه المعوجة ومصالحه المنشودة وهو يعلم أن السيد خالدًا إدريسيُّ النسب، وكان أبوه قد ثار على الدولة العلوية والخليفة علوي، وللاستعمار مصلحة كبيرة في إثارة الحزازات والمنافسة بين الأدارسة والعلويين جريًا على قاعدة (فرق تسد)؛ فلما بلغ الخليفة هذا الخبر، قبله على علاته ولم يمحصه؛ فلذلك خذلني عندما حبسني الإسبانيون.

ولما سمع خبر هذا الحادث الأمير خالد الريسوني -رحمه الله- كتب إلي بخط يده كتابًا يقول فيه: إنه قد بلغني ما جرى عليك مما صنعته أيدي المغاربة والإسبانيين، فأسفت لذلك كثيرًا فهلم إلي فإني مستعد لحمايتك وإكرامك ما دمت مقيمًا في المغرب لا تصل إليك يد مغربي ولا إسباني، وإن أردت السفر إلى الشرق، أوصلتك إلى أي مكان تريد. ولم يكن لي أحد أستشيره إلا عالم المغرب وأديبه العبقري في هذا العصر الأستاذ عبدالله كنون لثقتي بحصافة رأيه وإخلاصه النصيحة فاستشرته، فقال لي: لا تفعل إن لك عند أبناء قومك المغاربة من علو المكانة والقدر أكثرَ مما للأمير خالد الريسوني، فاقنع بحماية الله. فأخذت برأيه وكتبت إلى الأمير خالد وشكرته واعتذرت عن قبول ما دعاني إليه، وعلم- بعد ذلك - الخليفة أن الوشاة خدعوه، وأنني لم أكن من أتباع أمير العرائش ولا غيره، وإنما كنت ولا أزال - إن شاء الله - من المتبعين للنبي ﷺ.



طلب أمير شفشاون للصلح مرة أخرى

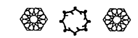
جاء أمير شفشاون إلى السيد محمد المؤذن رحمه الله واعتذر له بأن الإسبانيين أمروه بأن يقبض علي وأنه لم يزد على تنفيذ ما أمروه به، وأن ناسًا من المشركين والمبتدعين ومنهم الحسن العمرتي طلبوا منه أن يضربني ثلاثمائة سوط لأني أنكرت كرامات الأولياء، وطعنت في عقيدة الأشاعرة وأفسدت المذهب المالكي، فأبى أن يسمع قولهم احترامًا لعلمي وفضلي الذي يعتقده، وهو يطلب من السيد محمد المؤذن أن يصلح بيننا، فقلت للسيد محمد المؤذن: أنا لا أمتنع أبدًا من الصلح، ولكن بالشرط الذي شرطته عليه في مكتبه بشفشاون، فبلغه ذلك، فلم يستطع، ولكنه بقي مع ذلك مصرًا على طلب العفو مني يتحين الفرص لذلك.

وفي يوم من الأيام ذهبت لزيارة الخليفة مولاي الحسن بن المهدي بارك الله في حياته، فسجلت اسمي وأمرت بالانتظار في مقصورة تسمى البنيقة وكان هناك أناس غيري ينتظرون لقاء الخليفة فما شعرت إلا وقد هجم علي شخص وقبل رأسي، وقال لي: أيها الأستاذ، أطلب منك المسامحة، فإذا به أمير شفشاون اليزيد بن صالح، فلم أجبه بشيء، ولا شك أن هذا الرجل لم يكن خاليًا من الخير بالمرة، وكان صادقًا في قوله: إن الإسبانيين أمروه بالقبض علي وقد طلب العفو مني ثلاث مرات إلا أن شرطي كان شاقًا عليه.

وبعد عشر سنين من ذلك فقط جاء الاستقلال وذهب الاستعمار وذل من كان معتزًا به ووصل إلى الحضيض الأسفل بل قبل ثماني سنين فقط وفي سنة ١٩٥٧ سافرت إلى المغرب ووجدت أمير شفشاون وأحد إخواننا وهو السيد العياشي العلمي فأكرمني غاية الإكرام، ووجدت الحسن العمرتي قد جلله الخزي ولزم بيته فلا يخرج منه، فألقيت درسًا في المسجد الأعظم الذي قُبض عليَّ فيه افتتحته بقول الله تعالى من سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ثم قلت: أين المراقب الإسباني أين اليزيد بن صالح وأعوانه أين الحسن

العمرتي؟! أخني عليهم الذي أخنى على لبد ﴿فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعـام: ٤٤، ٤٥] قـال تعالى في سورة النمل: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٠-٥٣] وامتلأ المسجد الجامع كما يمتلئ يوم الجمعة وأنجز الله سبحانه وتعالى ما كنت أوعدت به الأمير السابق في القصيدة التي ستأتي في هذا الكتاب. قال تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]. اللهم، اجعلنا من الذين آمنوا واتبعوا رسلك فنصرتهم على أعدائهم.



عاقبة أمير شفشاون اليزيد بن صالح

نقل الإسبانيون هذا الأمير لإخلاصه في خدمتهم إلى إمارة مدينة تطوان، وهي عاصمة الشمال مكافأة له على إخلاصه لهم، فلما جاء الاستقلال زار الملك المظفر محمد الخامس مدينة تطوان، فجاء اليزيد وأخذ يطوف على المستقبلين، ويقول: أين اللبن؟ أين التمر؟ ومن عادة المغاربة أن يستقبلوا كل ضيف عزيز باللبن والتمر. فجاء جماعة من الوطنيين المجاهدين وقالوا له: أيها الخائن، بلغت بك الوقاحة إلى أن تأتي إلى هنا! بأي وجه تستقبل الملك أبالوجه الذي خدمت به الاستعمار؟! وحملوه في الهواء وألقوه بعيدًا؛ فأصابته رضوض، ودخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات.

وينبغي أن أثبت هنا القصيدة التي أنشأتها في هجوه، لا حقدًا عليه لأن طلبه المتكرر بالعفو يلين القلب القاسي هذا مع أنه كان أميرًا، وأنا رجل غريب لا ناصر لي إلا الله، ولكن لما فيها من العبر، فقد أنطقني الله فيها بأمور وقعت كلها في المستقبل القريب كأني كنت أنظر إليها:

يَـزِيـدُ لَئِيـمُ الطَّـبْـعِ خِـبٌّ مُـنَـافِـقٌ ... عَـلَى صُـورَةِ الإِنْـسَـانِ وَهْـوَ مَـرِيـدُ

مِنَ النُّكْرِ يَدْنُو حَيْثُ سَارَتْ رِكَابُهُ ... وَأَمَّـا مِـنَ الْمَـعْـرُوفِ فَـهْـوَ بَـعِـيـدُ

وَمَـا كَـانَ يَـوْمًـا زَائِدًا فِـي فَـضِـيـلَـةٍ ... وَلَكِـنْ يَـزِيـدُ فِـي الْفُـجُـورِ يَـزِيـدُ

ضَعِيفٌ مَتَى يُدْعَى إِلَى فِعْلِ صَالِحٍ ... وَلَكِـنَّـهُ فِـي الْسَّـيِّـئَاتِ شَـدِيـدُ

فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا دَعَوهُ ابْنَ صَالِحٍ ... فَـمَـا رَأْيُهُ فِـي الْصَّـالِحَـاتِ سَـدِيـدُ

يُحَارِبُ دِينَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ شِقْوَةٍ ... وَيُـبْـدِئُ فِـي إِجْـرَامِـهِ وَيُـعِـيـدُ

كَـلَامُ رَسُـولِ الـلَّـهِ أَعْـدَى عَـدُوِّهِ ... مَـتَى يَـسْـمَـعَـنْـهُ فَـهُـو عَـنْـهُ يَـحِـيـدُ

وَإِنْ قُـلْـتَ: قَـالَ الـلَّـهُ زَادَ نُـفُـورُهُ ... وَأَدْبَـرَ- يَـدْعُـو- وَيْـلَـهُ وَيَـمِـيـدُ

وَلَا غَرْوَ فَالْجُعْلَانِ يَجْلِبُ حَتْفَهَا ... شَـذَا الْمِسـكِ مِـمَّـا نَـالَهَـا فَـتَـبِـيـدُ

يَضِلُّ بِذِكْرِ اللَّهِ مَنْ حَانَ حِينُهُ ... وَيَهْدِي بِهِ لِلصَّالِحَاتِ رَشِيْدُ
وَمَنْ رَامَ يُطْفِي بِالْجَهَالَةِ نُورَهُ ... فَذَلِكَ غَمْرٌ لِلْمُحَالِ يُرِيْدُ
وَأَهْلُ حَدِيْثِ الْمُصْطَفَى مَنْ يُعَادِهِمْ ... يَنَلْهُ عَذَابٌ وَاصِبٌ وَوَعِيْدُ
فَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَاللَّهُ مُؤْذِنٌ ... مُعَادِيهِمُ بِالْحَرْبِ وَهْوَ شَهِيْدُ
وَكَمْ جَاهِلٍ أَمْسَى يُحَاوِلُ حَرْبَهُم ... فَبَاءَ بِخِزْيٍ مَا عَلَيْهِ مَزِيْدُ
فَقُلْ لِتَشْقَى بِالْوَعِيْدِ مُكَذِّب ... أَتَاكَ وَبَالٌ لَيْسَ عَنْهُ مَحِيْدُ
وَكَمْ صَالِحٍ وَلَّى وَخَلَّفَ خَلْفَهُ ... غَوِيًّا، صُرُوحِ الْمُوبِقَاتِ يَشِيْدُ
أَتَغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... - لَكَ الْوَيْلُ - إِهْمَالٌ فَأَنْتَ بَلِيْدُ
سَيَأْتِيكَ يَوْمٌ عَنْ قَرِيْبٍ حِسَابُهُ ... عَسِيْرٌ وَأَخْذُ الْمُجْرِمِيْنَ شَدِيْدُ
فَأَبْشِرْ بِخِزْيٍ مَا حَيِيتَ وَإِنْ تَمُتْ ... تُلاقِ الَّذِي لَاقَى أَخُوكَ يَزِيْدُ
وَلَوْ كَانَ ذَا فَضْلٍ لَهَانَتْ مُصِيْبَةٌ ... وَلَكِنْ جَهُولٌ فَاجِرٌ وَعَنِيْدُ
وَلَوْلا الشَّقَا مَا غَرَّهُ ظِلُّ مَنْصِبٍ ... وَلَا عَدَدٌ مِنْ خَادِمِيْهِ عَدِيْدُ
فَلَا مَنْصِبٌ إِلَّا سَرَابٌ بِقِيْعَةٍ ... وَإِنْ كَانَ مُلْكًا قَدْ حَمَتْهُ جُنُودُ
تَفَرْعَنْتَ يَا مَغْرُورُ فِي حُكْمِ قَرْيَةٍ ... غَدَوْتَ بِهَا لِلصَّالِحِيْنَ تَكِيْدُ
لِصَيْدِ ضِعَافٍ قَدْ نَصَبْتَ حَبَائِلًا ... وَكَمْ صَائِدٍ قَدْ عَادَ وَهُوَ مَصِيْدُ
وَمُنْذُ رَآكَ النَّاسُ فِيهَا تَشَاءَمُوا ... بِشَرٍّ وَنَحْسٍ لَا يَزَالُ يَزِيْدُ
وَلَوْ كُنْتَ بَرًّا لَمْ تَطُلْ لَكَ مُدَّةٌ ... وَلَكِنَّ عَهْدَ الْمُجْرِمِيْنَ مَدِيْدُ

❁ ✿ ❁

بين اليزيد والملالي

بعد حادثة السجن اجتمع اليزيد بن صالح أمير شفشاون بالملالي أمير القصر الكبير حيث زار الأول الأخير في قصره، فقال أحد جلساء الأمير الملالي يخاطب اليزيد: جزاك الله خيرًا على ما فعلت بعدونا الهلالي، إن عملك معه يعد جهادًا في سبيل الله، فإنه أنكر على سيدي أحمد التجاني وأهل طريقته ويحكم عليهم بالضلال، فسكت اليزيد وقال له الملالي: لا تظن أن هذا- وإن كان من جلسائي- يعبر عن رأيي، فإني أعتقد أنك قد فعلت أمرًا قبيحًا شنيعًا لا يرضى به أحد له دين أو مروءة ولا ينبغي للأمير أن يضعف أمام الإسبانيين إلى أن يصير آلة في يدهم يطيعهم في كل ما يأمرون، فلا بارك الله في الإمارة التي توصل إلى مثل ذلك، لا تظن أني أقول هذا محبة له فإني أعاديه كما يعاديه كل تجاني قرأ مقاله في صحيفة الحرية الذي ترجم له، بقوله (كيف خرجت من الطريقة) وقد أقام في القصر الكبير أربعة أشهر، فلم أستطع أن أتعرض له بسوء وهو في قبضتي وتحت يدي؛ لأن الذي يقول: قال الله قال رسوله يغلبني، كيف سمحت لك نفسك أن تقبض على رجل يقول قال رسول الله ﷺ في بيت من بيوت الله؟! إنني لم أفعل ذلك ولو أفضى بي الأمر إلى أن أتنازل عن الإمارة.



شكر أهل شفشاون
في قصيدة من بحر الطويل

جَزَى اللَّهُ شِفْشَاوِن بِخَيْرٍ وَنِعْمَةٍ ... وَنَجَّاهُمُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَنِقْمَةِ
وَصَانَهُمُ مِنْ كَيْدِ كُلِّ مُنَافِقٍ ... لَئِيمٍ خَؤُونٍ هَاتِكٍ كُلَّ حُرْمَةِ
مَطَاعِينُ فِي الْهَيْجَا مَيَامِينُ فِي النَّدَىٰ ... أَكَارِمُ شُجْعَانٍ مَصَابِيحُ ظُلْمَةِ
هُمُ نَصَرُوا الدِّيْنَ الْحَنِيفَ وَعَظَّمُوا ... حَدِيْثَ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
وَقَالُوا لِدَاعِي الْحَقِّ: لَبَّيْكَ إِذْ دَعَا ... وَقَالُوا لِدَاعِي الشَّرِّ: أَبْشِرْ بِخَيْبَةِ
وَلَمْ يَرْهَبُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ... وَلَا بَطْشَ خَصْمٍ مُوعِدٍ بِالأَذِيَّةِ
إِذَا سَمِعُوا قَوْلَ الرَّسُولِ تَفَتَّحَتْ ... قُلُوبُهُمُ لِلْحَقِّ فِي كُلِّ لَحْظَةِ
أُنَاسٌ تَوَلَّى اللَّهُ شَرْحَ صُدُورِهُم ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَبِدْعَةِ
وَمَنْ شَرَحَ الرَّحْمَنُ لِلْحَقِّ صَدْرَهُ ... فَلَنْ يَظْفَرَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ بِنَزْغَةِ
وَمَنْ يَنْصُرِ الْقُرآنَ وَالسُّنَّةَ الَّتِي ... أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ يَحْظَى بِنُصْرَةِ
وَلا بُدَّ أَنْ يَلْقَى شَدَائِدَ جَمَّةً ... كَمَا لَقِيَ الْمُخْتَارُ فِي بَطْنِ مَكَّةِ
وَأَصْحَابُهُ الْغُرُّ الْكِرَامُ وَمَنْ قَفَا ... سَبِيْلَهُمُ الْمُثْلَى بِعَزْمٍ وَقُوَّةِ
وَعُقْبَاهُمُ فَتْحٌ وَنَصْرٌ مُؤَزَّرٌ ... وَمَنْ شَكَّ فِي هَذَا اقْتَفَى أَهْلَ رِدَّةِ
وَقَدْ مَسَّتِ الْبَأْسَاءُ خَيْرَ صِحَابِهِ ... وَقَالُوا: مَتَّى يَا رَبُّ نَحْظَى بِنَجْدَةِ
أَجَابَهُمُ اللَّهُ الْكَرِيمُ: أَلَا اصْبِرُوا ... تَنَالُوا قَرِيْبًا جُلَّ نَصْرٍ وَعِزَّةِ
وَذِي سُنَّتِي فِي الأَصْفِيَاءِ جَمِيعُهِم ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْطِيْعُ تَبْدِيْلَ سُنَّتِي
وَيَا أَهْلَ شِفْشَاوِنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ... سَتَبْلُغُكُمْ طُولَ الْحَيَاةِ تَحِيَّتِي

وَأَذْكُرُكُمْ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ   وَإِنْ كُنْتُ فِي بَغْدَادَ أَوْ أَرْضِ بَصْرَةِ

وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُخَالِفُ نَهْجَهُمْ   فَكُلُّ أُنَاسٍ مُبْتَلَوْنَ بِسَفْلَةِ

وَلَوْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أُنَاسٌ جَمِيعُهُمْ   خِيَارٌ لَمَا كَانُوا سِوَى أَهْلِ طِيبَةِ

وَلَاسِيَّمَا وَالْمُصْطَفَى فِي دِيَارِهِم   سِرَاجٌ مَحَتْ أَنْوَارُهُ كُلَّ دَجْنَةِ

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْقَوْمُ جَرَّ عَلَيْهِم   بِمَا لَا يُؤَاتِيهِم تُيُوسٌ مُضِلَّةِ

أَرَاذِلُ عَبَّادُونَ لِلْمَالِ وَالْهَوَى   وَمَا وَرَدُوا إِلَّا مَوَارِدَ حَمْأَةِ

وَقَدْ عَجَّلَ اللَّهُ الْعَزِيزُ عِقَابَهُم   فَصَبَّ عَلَيْهِمْ قَوْمُهُمْ كُلَّ لَعْنَةِ

بِهِمْ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ   فَصَارُوا كَبُعْرَانٍ أُصِبْنَ بِحَكَّةِ

وَهُمْ يَدَّعُونَ الْعِلْمَ، وَالْعِلْمُ مِنْهُمُ   مَنَاطُ الثُّرَيَّا مِنْ كَسِيرٍ بِحُفْرَةِ

وَهُمْ يَسْتُرُونَ الْجَهْلَ، وَالْجَهْلُ فِيهِمُ   مُبِينٌ وَهَلْ تُخْفِي ذَكَاءٌ بِخِرْقَةِ

فَيَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ طُرًّا تَمَسَّكُوا   بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ أَفْضَلِ عِدَّةِ

فَذَاكُم سِلَاحٌ لَا يُفَلُّ غِرَارُهُ[1]   بِهِ تُهْزَمُ الْأَعْدَاءُ فِي كُلِّ وَقْعَةِ

وَلَنْ تَسْعَدُوا وَاللَّهِ إِلَّا بِقَفْوِهِ   بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَعَزْمٍ وَقُوَّةِ

فَلَوْ قَامَ كُلُّ النَّاسِ مِثْلَ قِيَامِهِمْ   لَصِرْنَا كَأَسْلَافٍ لَنَا خَيْرُ أُمَّةِ

وَنِلْنَا الَّذِي نَبْغِي مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَا   وَأَلْبَسَنَا الرَّحْمَنُ أَثْوَابَ عِزَّةِ

وَرَدَّ لَنَا ذُو الْفَضْلِ غَابِرَ فَخْرِنَا   وَطَهَّرَنَا مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَوَصْمَةِ

أَلَا فَابْذُلُوا الْأَرْوَاحَ وَالْمَالَ دُونَهُ   وَأَحْيُوه تَحْيُوا فِي هَنَاءٍ وَغِبْطَةِ

وَوَالُوا عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُ أَمْرَهُ   وَإِنْ كَانَ مِنْكُم ذَا بُعَادٍ وَشُقَّةِ

وَعَادُوا مُعَادِيهِ جَمِيعًا وَإِنْ أَتَوْا   وَأَدْلَوْا بِقُرْبَى أَوْ بِعِظَمِ مَوَدَّةِ

فَإِنْ شِئْتُمْ ذَا فَالْمُجَادَلَةَ اقْرَؤُوا   وَفِي تَوْبَةٍ تَحْظَوْا بِأَعْظَمِ حُجَّةِ

---

(١) الغرار: حدّ السيف.

وَمَـا نَـحْـنُ إِلَّا خَـادِمُـونَ لِسَـيِّـدٍ حَـبَـاهُ إِلَهُ النَّـاسِ أَفْـضَـلَ رُتْـبَـةِ
وَمَا قِيمَةُ الأَرْوَاحِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِـدَاءً وتَـفْـدِي بَـعْـدَهُ خَـيْـرَ سُـنَّـةِ
وَمَا قِيمَةُ الأَمْوَالِ إِنْ لَمْ نَنَلْ بِهَا رِضَى رَاحِمِ لِلْخَلْقِ فِي يَوْمِ كُرْبَةِ
فَـكُـنْ عَـابِـدًا لِلَّه لَا تَـدْعُ غَـيْـرَهُ بِـوَقْـتِ رَخَـاءٍ أَوْ بِـأَوْقَـاتِ شِـدَّةِ
وَسِرْ فِي رِكَابِ الْمُصْطَفَى بِتَوَاضُعٍ وَصِدْقٍ تَـفُـزْ مِـنْـهُ بِقُـرْبٍ وَخِـدْمَـةِ
فَـخَـادِمُـهُ بِـالْصِّـدْقِ لَا شَـكَّ مُـفْـلِحٌ وَتَـارِكُـهُ لَا شَـكَّ هَـاوٍ بِـهُـوَّةِ
عَـلَيْـهِ صَـلَاةُ الـلَّهِ ثُـمَّ سَـلَامُـهُ وَأَصْـحَـابُـهُ مِـنْ بَـعْـدِ آلٍ وَعِـتْـرَةِ
صَـلَاةَ تَـدُومُ الدَّهْـرَ مَـا قَـالَ قَـائِلٌ: حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ذُخْرِي وَحُجَّتِي



كيف كانت عاقبة وزير العدل

لما أحس بالاستقلال ضاقت عليه الأرض بما رحبت كما قال المتنبي:

وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُم ... إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا

فدخل بيته واختبأ فيه إلى أن مات، وقد قلت في هجوه قصيدة ولكني لم أنشرها إلا بعد أن تولَّى الاستعمار، وهي هذه:

دَعَوْكَ وَزِيرَ الْعَدْلِ بَلْ أَنْتَ وَازِرٌ ... وَيَبْرَأُ مِنْكَ الْعَدْلُ إِذْ أَنْتَ فَاجِرُ

نَعَمْ أَنْتَ ذُو عَدْلٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ... إِلَى الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ إِذْ أَنْتَ خَاسِرُ

وَأَنْتَ لِلاسْتِعْمَارِ خَيْرُ مَطِيَّةٍ ... بِخِدْمَتِهِ فِي كُلِّ حِينٍ تُجَاهِرُ

وَمَالَكَ مِنْ دِيْنٍ مَتِيْنٍ وَلَا حَيَا ... وَلَا شَرَفٍ يُثْنِيكَ عَمَّا تُبَاشِرُ

تَرَأَّسْتَ فِي فَتْوَى الْقِرَاءَةِ عُصْبَةً ... دَعَاكُمْ إِلَى الْبُهْتَانِ وَالزُّورِ مَاكِرُ

عَلَى اللَّهِ وَالْمُخْتَارِ وَالشَّيْخِ مَالِكٍ ... كَذَبْتُمْ وَعُقْبَى الْكَاذِبِينَ فَوَاقِرُ

فَضَحْتُكُمُ فِي الرَّدِ شَرَّ فَضِيحَةٍ ... فَسَوآتُكُمْ بَانَتْ وَلَمْ يَبْقَ سَاتِرُ

أَلَا يَا وَزِيرَ الْعَدْلِ أَصْبَحْتَ عَادِلًا ... بِرَبِّكَ فِي الْفَتْوَى الْتي أَنْتَ سَاطِرُ

رَدَدْتَ حَدِيْثَ الْمُصْطَفَى أَكْرَمَ الْوَرَى ... وَخَالَفْتَهُ عَمْدًا كَأَنَّكَ كَافِرُ

فَقَدْ قَالَ: لَا يَجْهَرْ عَلَى غَيْرِهِ امْرُؤٌ ... إِذَا مَا تَلَا الْقُرآنَ فَالْكُلُّ ذَاكِرُ

رَوَاهُ أَبُو دَاودَ فِي الْسُّنَنِ الَّتِي ... عَنِ الْمُصْطَفَى قُدْمًا رَوَتْهَا الأَكَابِرُ

وَمِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى رَوَى الْحِبْرُ مَالِكٌ ... بِإِسْنَادِهِ سَمْطًا زَهَتْهُ الْجَوَاهِرُ

وَخَالَفْتَ مَا قَدْ قَالَهُ قَبْلُ مَالِكٌ ... وَأَصْحَابُهُ فِي كُتْبِهِمْ ذَاكَ ظَاهِرُ

وَأَقْبَحُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ أَنَّهُ ... دَعَاكَ إِلَى ذَاكَ الْعَدُوُّ الْمُشَاجِرُ

فَبَدَّلْتَ دِيْنَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ مَنْصِبٍ ... تَخَافُ عَلَيْهِ إِنَّ جَدَّكَ عَاثِرُ

ظَنَنْتَ لِلاسْتِعْمَارِ خُلْدًا مُؤَبَّدًا ... فَلَا فَجْرَ يَبْدُو بَعْدَمَا جَنَّ كَافِرُ
فَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ ثُمَّتَ انْجَلَى ... وَأَشْرَقَ وَضَّاحٌ مِنَ الْفَجْرِ بَاهِرُ
فَأُسْقِيتَ كَأْسَ الْعَزْلِ وَهِيَ مَرِيرَةٌ ... وَكَمْ بِكُؤُوسِ الْعَزْلِ شُقَّتْ مَرَائِرُ
وَأَصْبَحْتَ مِنْ خِزْيٍ بِبَيْتِكَ قَابِعًا ... كَأَنَّكَ فِي قَبْرٍ وَمَا ثَمَّ قَابِرُ

❁ ✧ ❁

تبديل الدراهم في البنك

لما عزمت على السفر إلى العراق كنت قد ادخرت عشرة آلاف بسيطة أتزود بها في سفري قافلًا إلى أهلي في العراق، فعرضت لي مشكلة وهي تبديل الدراهم الإسبانية بالجنية المصري، فقد كان سعر الجنية الرسمي - حسب النقد الأجنبي الذي بيد الحكومة - أربعين بسيطة لكل جنيه؛ أما في السوق السوداء، فالجنيه الواحد يساوي مائة وعشرين بسيطة.

❁ ✧ ❁

في مكتب كاساس مرة ثانية

كتبت عريضة وأخذتها إلى كاساس ضمنتها طلب تبديل عشرة آلاف بسيطة في البنك بالسعر الرسمي، ولم أطلب منه إحسانًا ولا معروفًا؛ لأن هذا حق لكل مستوطن من المغاربة، فلما قرأ العريضة عبس وبسر وقال لي: نحن لسنا مغفلين نساعد الناس على السفر إلى الشرق ليكتبوا مقالات في صحف مصر كلها طعن وتشنيع علينا. فقلت له: أنا ما ذهبت إلى الشرق بعد ولا كتبت مقالات طعنًا فيكم، ولكنه كان يعرف ما يقول وكان صادقًا فإنه كان يشير إلى المقالات التي نشرتها في صحيفة الإخوان المسلمين، ثم قال لي: إن لم تفعل ذلك أنت، فعله غيرك، ولست بخير منه.

فانصرفت من عنده، وذكرت ذلك للأخوين الصديقين المخلصين السيد محمد المؤذن -رحمه الله- والحاج عبدالسلام حسيسن - أطال الله حياته - فقال لي الحاج عبدالسلام: لماذا لا تذهب إلى الخليفة وتلتمس منه أن يأمر الإسبانيين أن يبدلوا لك هذه البساسيط بالسعر الرسمي؟ فقال له السيد محمد المؤذن: إن الخليفة لن يصنع شيئًا، فدعه يبدلها في السوق السوداء، ويفوض أمره إلى الله. فقال الحاج عبدالسلام حسيسن: أما أنا فأنصح له أن يتوجه إلى قصر الخليفة ويلتمس منه ذلك؛ فإن استجاب، فبها ونعمت، وإن لم يستجب، فلا ضير عليه في زيارته.

فتوجهت إلى قصر الخليفة واستأذنت عليه، فأذن لي قبل جميع الحاضرين الذين جاؤوا لزيارته وسجلوا أسماءهم، فاستأذنته في السفر، والتمست منه أن يكتب إلى الإسبانيين ويأمرهم بتبديل ما عندي من الدراهم بالسعر الرسمي، وقلت له: هذا الطلب مقيد بشرط؛ وهو أن لا يتعرض مقامكم الرفيع لتنقص عند الإسبانيين. فقال لي بانفعال: لعنة الله على الإسبانيين، أنا لا أبالي بتنقص مقامي عندهم، وإنما أريد أن يكون مقامي عاليًا عند الله وعند المؤمنين، ثم ضغط على زر الجرس فجاء حارس. فقال: أين أبو سيدي - يعني أخاه الكبير السيد محمدًا فقال له: يا مولاي، إنه ركب منذ ساعة سيارته وخرج. فقال: ادع لي الكاتب العام أحمد بن البشير فدعاه فقال له: اكتب إلى المقيم العام أن الدكتور محمدًا تقي الدين الهلالي

غاب عن أهله في العراق مدة طويلة، وهو يريد الرجوع إلى أهله وعنده عشرة آلاف بسيطة فأبدلها بالجنيه المصري حسب السعر الرسمي، وكان قد قال لي أول ما سلمت عليه واستأذنته في السفر: لن آذن لك حتى تعدني أنك ترجع إلينا، فإنني لا أحب أن تكون بلادي خالية من رجل مثلك. فشكرته على هذه المجاملة، وانتظرت قليلًا في مكان آخر حتى جاءني الكتاب فأخذته إلى المقيم العام الإسباني، فاستأذنت ودخلت على نائبه، فقال لي: ليس عندنا نقد أجنبي في هذه الساعة؛ فإن كنت تقدر أن تنتظر، نبدله لك. وقلت له: أنا لا أنتظر، إما أن تبدله لي الآن، أو أبدله في السوق السوداء. فقال لي: ارجع إلي بعد ثلاثة أيام، فرجعت إليه، فكتب لي كتابًا إلى كاساس الحاكم الإسباني الذي تقدم ذكره.



في مكتب كاساس مرة ثالثة

فلما أخذت الكتاب من نائب المقيم العام وتوجهت إلى كاساس، قلت في نفسي: هل يصر على جوابه الأول ويعصي أمر رؤسائه، أو يخضع لهم ويتناقض؟ فلما وصلت إليه، قدمت له الكتاب، فقرأه وكتب لي كتابًا إلى البنك يأمره بتبديل الدراهم، ولم ينبس ببنت شَفَة.



في السفارة الإنكليزية

لما حصلت على سمة الدخول إلى لبنان بعثتها إلى السفارة المصرية في مدريد عاصمة إسبانيا، فبعث إلي إذنًا بالدخول إلى مصر والإقامة خمسة عشر يومًا ويسمى هذا إذن مرور، ثم فكرت في السفر بطريق البحر لأن أجور السفر أقل، فذهبت إلى السفارة الإنكليزية وطلبت لقاء السفير، فأُعْطِيت ورقة طلب مني أن أكتب فيها اسمي والغرض الذي جئت من أجله فلم يأذن لي السفير الإنكليزي، ولكني دعيت إلى مكتب نائبه وكان يهوديًا يونانيًا، فقال لي وكان الكلام بالإنكليزية: أنت كنت في إذاعة برلين، وقد أذعت أحاديث كثيرة في محاربة بريطانيا، وكنت تأخذ من الجرمانيين أجرًا على ذلك.

فقلت: أما قولك أني أذعت أحاديث كثيرة في محاربة الاستعمار البريطاني على منبر إذاعة برلين العربية، فهو حق، ولست نادمًا عليه، ولا معتذرًا منه؛ لأني كنت أدافع عن وطني كما كان البريطانيون يدافعون عن وطنهم فإن بريطانيا كانت حليفة لعدوتنا فرنسا، وحليف العدو عدو فإن كان دفاع البريطانيين عن وطنهم مما يلامون عليه وجب عليكم أن تلوموا أنفسكم قبل أن تلوموني؛ وإن كان الدفاع عن الأوطان من الواجبات المحمودة فكيف تلومونني عليه. وأما قولك أني كنت آخذ على تلك الأحاديث فهو وهم باطل، بل كنت أدفع أجورًا على تلك الأحاديث وأرتكب أخطارًا في إذاعتها.

فقال لي: كيف تدفع أجورًا عليها، ومن كان يأخذ هذه الأجور؟

فقلت: كان مدير الإذاعة قد اشترط علي أن لا أذيع حديثًا إلا بعد أن أترجمه باللغة الألمانية، وأعد أربع نسخ من الترجمة تقدم إلى أربعة مكاتب؛ فإذا وافق رؤساء تلك المكاتب على إذاعة ذلك الحديث، أعطيت إذنًا بإذاعته، وهذه الترجمة وكتابتها على الآلة تحتاج إلى كاتبة جرمانية وهذه الكاتبة لا بد لها من أجر. وأما ارتكاب الأخطار فإني كنت أركب قطار النفق أعني القطار الذي يجري تحت الأرض مسافة نصف ساعة أحيانًا في الليل والثلج ينزل وأتعرض للقنابل التي كنتم تلقونها على برلين حينًا بعد حين.

فقال لي: وما غرضك؟ فقلت: أريد أن تعطيني سمة المرور على جبل طارق لأركب منه في البحر إلى الإسكندرية، فقال لي: إن حكومة جبل طارق هي التي لها الحق أن تسمح لك بالمرور فاكتب إلى الشركة التي تريد السفر في بواخرها وائتنا

بالجواب. فكتبت إلى شركة إنكليزية فجاءني الجواب، فذهبت به إليه وأطلعته عليه، فقال لي: عين لنا موعد سفر الباخرة من جبل طارق. فكتبت إلى الشركة، فجاءني الجواب بأنها لا تستطيع أن تعين لي يومًا بعينه على سبيل التحديد، ولكن إذا وصلت إلى جبل طارق يمكن أن تسافر في مدة لا تزيد على الأسبوع، فامتنع نائب السفير من إعطائي سمة الدخول إلى جبل طارق إلا إذا عينت له اليوم الذي أسافر فيه، وقد ظهر أنه أراد المنع ولكنه أبى أن يصرح به، وأراد أن يعذبني بالمماطلة والتردد عليه، فعدلت عن السفر بطريق البحر وكان ذلك خيرًا، فإني سافرت بالقطار إلى مدريد وبالطائرة من مدريد إلى القاهرة بعد أن أخرت سفري شهرين.

ولما كنت أتحدث مع نائب السفير كان جالسًا إلى جانبه رجل مغربي لا يدل زيه وهيئته على أنه يعرف الإنكليزية، فسألت عنه فقيل لي: هذا السيد أحمد الرزيني، وكنت أعرف أخاه السيد عبدالقادر الرزيني، وبيتهما من أشرف بيوتات تطوان، وأهل هذا البيت من أصحاب الحمايات الإنكليزية التي وقعت في زمان ضعف الدولة المغربية، فإن التجار كانوا يخافون على أنفسهم من ظلم الحكام المغاربة فيحتمون بحمايات أجنبية، فتكلم السيد أحمد الرزيني أمام الحاضرين وقال لي: جزاك الله خيرًا على ذلك التوبيخ الذي وبخت به ذلك المجرم اليهودي، ما أحد شفى قلبي منه إلا أنت. ثم أطنب في مدحي عند الحاضرين، وقال لهم: هذا الأستاذ بقي نصف ساعة يوبخ ذلك الخبيث بلغة إنكليزية فصيحة، فأنتم تعرفونني أنا لا أخالط الفقهاء ولم أحترم فقيهًا مثل ما احترمت هذا الفقيه فهكذا يكون الفقهاء وإلا فلا. وقال لي: إذا عزمت على السفر ولم يبق على سفرك إلا ثلاثة أيام أرجو أن تلقاني. فظننت أنه يريد أن يبعث معي شيئًا لابن أخيه الذي يدرس في مصر.

فلما حان وقت سفري لقيته بالمسجد الأعظم ومعي كاتبي السيد محمد بن فريحة، فقلت له: أخبر السيد أحمد الرزيني أنني بعد يومين مسافر إن شاء الله فأخبره، فجلس وأدخل يديه كلتيهما تحت جلابته وسمعت خشخشة واستمر على ذلك نحو خمس دقائق ثم أخرج يده وفيها ألف بسيطة فناولني إياها، وقال لي: هذه هي هدية للعالم الشريف أرجو أن تقبلها. فلما أخبرت الناس بذلك لم ينقض عجبهم منه وقالوا كلهم: إن هذا الرجل ما رأيناه يتبرع بشيء لأي مقصد من مقاصد البر ولو سأله السائلون وألحوا عليه. هكذا قالوا والعهدة عليهم ولا شك أنه تأثر كثيرًا بالجدل الحاد الذي وقع بيني وبين نائب السفير الإنكليزي.

حادثة أصيلا

كان من عادتي أن أسافر إلى أصيلا يوم الأربعاء بعد الظهر وأمكث فيها إلى الصباح من يوم السبت للقاء إخواني الموحدين وتذكيرهم وتجدد العهد بهم، وكانت مجالسنا في بيوت الإخوان ولم ألق درسًا في أي مسجد من مساجد تلك المدينة خوفًا من الدخول في مشاكل مع المستعمرين يستعصى حلها، لأني أعلم يقينًا أن صدور حكام تطوان مملوءة حقدًا علي وأنهم يتربصون بي الدوائر، فإذا أصابني شر من حاكم صغير كالمراقب المدني في أصيلا يتخذونه سببًا للتنكيل بي، ولما دنا وقت سفري إلى مصر توجهت يوم الأربعاء على عادتي إلى مدينة أصيلا، وفي يوم الخميس قال أحد إخواننا: لماذا لا تلقي درسًا في المسجد الأعظم ليعم النفع؟ فاختلف الإخوان بين مستحسن لذلك ومتخوف منه، ثم توكلت على الله ورجحت إلقاء الدرس، فلما شرعت في إلقائه امتلأ المسجد الأعظم حتى لم يبق فيه مجلس لأحد، ولم ينقطع سيل القاصدين إلى المسجد الأعظم فامتلأ صحن المسجد فبلغ الجواسيس حاكم تلك المدينة الخبر.

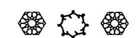
وفي صباح يوم الجمعة عزمت على السفر قافلًا إلى تطوان في الصباح مبكرًا، فبينما أنا واقف أنتظر السيارة إذا بشرطي يهمس إلي قائلًا: إن الحاكم الإسباني بعثني لآخذ منك جواز السفر ليطلع عليه، وكان معي أربعة من الإخوان جاءوا لتوديعي فأنفوا لذلك، وقالوا له: هذا رجل مغربي والمغاربة لا يحملون جواز السفر في وطنهم وطردوه، فحضرت السيارة وسافرت.

وبعد ذلك علم إخواننا بواسطة شرطي مؤمن أن الحاكم الإسباني عزم أن يقبض علي حين أجيء في يوم الأربعاء التالي، فانطلق إلى الإخوان وأخبرهم، فبعثوا إلي كتابًا يحذروني من المجيء إلى أصيلا ويخبروني بما عزم عليه الحاكم الإسباني، ولم يصل ذلك الكتاب إلا في صباح يوم الأربعاء، وكنت أبعث الكاتب كل يوم إلى صندوق البريد فيجيئني بما يجده فيه إلا في صباح يوم الأربعاء فإنني لم أبعثه وسافرت إلى أصيلا وأنا جاهل ما يراد بي، لكن الإخوان من شدة حزمهم خافوا أن لا يصلني الكتاب وأتوجه إلى أصيلا كعادتي، فبعثوا سيارة تنتظر في إحدى محطات

الطريق على مسافة خمسة وعشرين ميلًا، فلما وصل الأتوبيس إلى تلك المحطة رأوني فأشاروا إلي بالنزول وأخذوا أمتعتي ووضعوها في السيارة الصغيرة، وكنا في شهر رمضان فسارت بنا السيارة في طريق غير الطريق المعهود حتى وصلنا إلى بيت أحد الإخوان في مدينة أصيلا.

أما الحاكم الإسباني فقد بعث إلى محطة الأتوبيس بأصيلا ستة من الشرطة ومعهم عريف وأمرهم أن يقبضوا علي ويأتوا بي إليه وكان الشرطي المؤمن أحد الستة، فلما جاء الأتوبيس أحاطوا به وراقبوا المسافرين فلم يجدوني معهم فرجعوا إلى الحاكم الإسباني وأخبروه أنني لم أجئ.

أما الشرطي المؤمن فإنه جاءني في البيت الذي كنت أفطر فيه وأخبر الجماعة، فضحكوا كثيرًا وحمدوا الله على سلامتي، ولما فرغنا من العشاء وصلينا العشاء أحضروا السيارة فركبتها إلى محطة القطار ومنها سافرت إلى القصر الكبير، فنجوت من تلك المكيدة بفضل الله ثم بحزم الإخوان وشجاعتهم.



السفر إلى مجريط ثم إلى القاهرة

مجريط هو اللفظ الذي كان يطلقه المسلمون على مدينة مدريد حين كانوا يحكمون تلك البلاد مئات السنين. سافرت بالقطار إلى مدينة مجريط ونزلت عند صديقي عبدالرحمن ياسين، واشتد علي مرض الربو فنقلني إلى المستشفى وزارني فيه إخواني من المغاربة، وزارني أيضًا داعية القاديانية فناظرته وأنا على فراش المرض، وبعثت جواز سفري إلى السفارة المصرية لتنظر فيه هل يحتاج إلى تجديد إذن، فقال الموظف المختص: إنه صالح للسفر إلى مصر وإقامتي خمسة عشر يومًا.

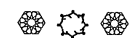
ثم سافرت بالطائرة إلى القاهرة ونزلت في مطار ألماظة قبيل وقت العشاء فعرض المسافرون أجوزتهم على الكاتب المختص فختم عليها وردها إليهم، فلما رأى جوازي قال لي: اجلس فجلست حتى فرغ من أجوزة المسافرين فالتفت إلي، وقال: إن مدة السمة التي أعطيتها - وهي خمسة عشر يومًا - قد انقضت؛ فيجب أن ترد إلى مجريط. فقلت له: إنني بعثت جواز السفر أمس فقط إلى السفارة المصرية في مجريط، فقال قائلها: إنه صالح والمدة ينبغي أن تعتبر من يوم وصولي لا من يوم تاريخ السمة لأني بعثته من تطوان إلى مجريط، ثم بعث إلي، وهذا وحده يستغرق عشرة أيام. فقال لي: لا تطل الحديث فإنما أحكم برأيي لا برأيك. فقلت له: أريد أن أصلي المغرب والعشاء. فأمر شرطيًا أن يرافقني ويدلني على مكان الوضوء والصلاة.

وتوضأت وصليت المغرب والعشاء ودعوت الله في سجودي أن ينقذني من هذه المحنة الجديدة، لأنني إذا رددت إلى مجريط لا أجد ما أسافر به من الدراهم ولما فرغت من صلاتي رجعت إلى الكاتب فقال لي: عندك دراهم؟ قلت: عندي حوالة بـ ١٤٧جنيهًا. قال: أرنيها. فأريته إياها فأخذ يفتح الهاتف على رؤسائه ليستشيرهم في أمري فلم يجد أحدًا منهم لأن ذلك اليوم كان التاسع والعشرين من رمضان وقد انصرف كبار الموظفين إلى إجازة العيد، ثم فتح التليفون على موظف كبير حسب ما فهمت من محادثته معه، فقال له: سيدي أرجو المعذرة إذا أزعجتكم

لأني لم أجد أحدًا من الموظفين في مكتبه عندي، راكب مغربي معه جواز سفر وفيه تأشيرة مرور منتهية، ويدعي أنه عرضها على الكاتب المختص أمس في السفارة المصرية بمدريد فقيل له: إنها كافية وأنا أعتقد أنه من الصالحين. فقال له: افتح الهاتف على العروسي فإن لم تجده فأعطه أنت فيزة مرور.

فلما سمعته يقول: إنه يعتقد أنني من الصالحين استبشرت، وأملت خيرًا وحسن ظني به، وزاد حسن ظني حين رأيت شرطيًا جاءه بالسحور، فعلمت أنه يصوم رمضان - والصائمون - حتى في ذلك الزمان - قليلون.

فتح الهاتف على العروسي فلم يجده فأخذ يكتب لي سمة الدخول وقال لي: أريد منك عشرة قروش. فقلت: ما عندي نقود مصرية؛ فدعا شخصًا موظفًا يبيع الطوابع فقال: أعطني عشرة قروش طوابع مجانًا. فأبى؛ فقال له: هل تريد أن نرد رجلًا من هنا إلى مدريد لأجل عشرة قروش؟ فقام هو وغاب قليلًا وجاء بالطوابع فلا أدري أدفع ثمنها من عنده أم وجدها بطريق آخر ثم ناولني الجواز؛ فقلت: جزاك الله خيرًا فركبت السيارة. فلما وصلت إلى الفندق، قلت لصاحب السيارة: ما عندي نقود مصرية سألتمس من صاحب الفندق أن يقرضني ما أعطيك إياه، فقال لي: تنازلت عن الأجرة. فانفرجت الأزمة ببركة المحافظة على الصلاة في وقتها.



الإقامة بالقاهرة

أقمت بالقاهرة اثني عشر يومًا لقيت في أثنائها كثيرًا من الأصدقاء منهم أخونا الداعية السلفي الشيخ حامد الفقي -رحمة الله عليه- فأكرمني كعادته ولقيت المجاهد العظيم الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي وقد تقدم ذكر ذلك. ومن أجل من لقيته في تلك الأيام المجاهد العظيم سماحة الأستاذ السيد الحاج أمين الحسيني، وكان آخر عهدي به في ربيع سنة ١٩٤٢ حين بعثني إلى المغرب لغرض سياسي فيه مصلحة للمسلمين على أن أرجع إليه، فمنعت من الرجوع كما تقدم، وكانت المراسلة مستمرة بيني وبينه إلى أن انهزمت ألمانيا وفر إلى سويسرا ثم إلى مصر وأنجاه الله من كيد أعدائه، كما أنجاه من قبل حين فر من بغداد إلى طهران ومن طهران إلى اليابان، وكان الإنكليز ومطاياهم في العراق قد جعلوا لكل من يأتيهم به حيًا أو ميتًا عشرة آلاف دينار، فنجا بأعجوبة بمساعدة السفارة اليابانية حتى وصل إلى برلين.

ومع أني كنت في تطوان أحصل على القدر الذي أعيش به من المال من الأسباب التي ذكرتها من، قبل فإنه كان يبعث لي النقود الكثيرة مرة بعد مرة، فلما زرته فرح بي فرحًا عظيمًا وأقام مأدبة دعا إليها خمسين من رجال العلم والسياسة، ولما أردت أن أودعه دفع إلي غلافًا وقال: اقرأه في منزلك. فلما وصلت إلى الفندق وجدت فيه مائة جنيه. وكان قد عرض علي ونحن في برلين أن يجعل لي كاتبًا على نفقته فشكرته وقلت له: إن عندي كاتبًا وأنا في سعة من المال فقد كان مجموع الرواتب التي كنت آخذها في برلين بكدي وعملي ألفًا وأربعمائة مارك (١٤٠٠) وذلك يعادل ألفًا وسبعمائة وخمسين ريالًا في ذلك الزمان أي قبل ثلاثين سنة.

والحاج أمين الحسيني رجل عظيم مهما بالغ أعداؤه في القدح وخلق العيوب له فلن يستطيعوا أن ينقصوا شيئًا من عظمته وحسبك دليلًا على ذلك أن «هتلر» كان يجله، وقد التجأ إلى ألمانيا رجل عربي عظيم ومجاهد كبير وعالم متضلع ألا وهو رشيد عالي الكيلاني وأجله الألمانيون وأكرموا مثواه لكن منزلة الحاج أمين عندهم لم يبلغها أحد.

الصدق منجاة والكذب مهلكة

وقعت لي في أسفاري الكثيرة حوادث، ووقعت في أزمات لولا خوف الإطالة وكراهية الخروج عن الموضوع لذكرت بعضها، وفيه العجب العجاب، لكني أقتصر على هذه الحادثة وليست من أغربها.

لم يسمح لي القانون المصري أن أخرج من مصر أكثر من عشرين جنيهًا، فتركت ما عندي من الدراهم عند الدكتور الحبيب ثامر والسيد حسين التريكي، وهما مجاهدان تونسيان وقع بيني وبينهما قصة في التعاون على محاربة الاستعمار ليس هذا محل ذكرها، على أن يبعثا لي تلك الدراهم حين تسنح لهما الفرصة، لكني عندما توجهت إلى مطار ألماظة أخذت معي خمسين جنيهًا فناولني المفتش صحيفة، وقال لي: اكتب لي القدر الذي عندك من النقود؛ فكتبت خمسين جنيهًا، فقال لي: إن القانون لا يسمح لك إلا بعشرين. فقلت له: قبل اثني عشر يومًا دخلت مصر ومعي ١٤٧ جنيهًا ولم أنفق في هذه المدة إلا قليلًا لأني كنت ضيفًا عند أصدقائي، وهم كثر فهل يعقل أني أنفقت في هذه المدة القصيرة ١٢٧ جنيهًا ولم يبق لي إلا عشرون؟ فنظر على جواز السفر فوجد مدة الإقامة اثني عشر يومًا كما ذكرت له فقال لي: تستطيع أن تثبت أنك دخلت مصر بالقدر المذكور من المال؟ قلت: نعم هذه شهادة البنك في تطوان. فلما قرأها سمح لي بإخراج خمسين جنيهًا.

فقلت له: إنني ألتزم الصدق وذلك يوقعني في مشاكل، فقال لي: إن الصدق لا يوقع في المشاكل؛ وإذا وقعت لصاحبه مشاكل فعقباها خير وإنما الذي أتعبنا هو الكذب - ووقع لي مثل ذلك في دمشق - فانحلت المشكلة بأن كتب المفتش نفسه على الصحيفة أن عندي عشرين جنيهًا. أبيت أن أكذب فكذب هو.



الدعوة إلى الله في العراق

وصلت إلى العراق عائدًا من سفري الطويل في صيف سنة ١٩٤٧م من تاريخ النصارى، ولما امتنع صالح جبر من الإذن لي بأخذ نسخة من شهادة التجنس بالجنسية العراقية، وبقيت بلا عمل اخترت أن أسكن بالموصل لأن لي إخوانًا صادقين في تلك المدينة، فسكنت فيها سبعة أشهر وبدأت الدعوة إلى الله، فحصل إقبال عظيم من الناس، وفرح بذلك الإخوان السلفيون.

وكانت السلفية موجودة قبل ذلك في الموصل وكان إمامها الشيخ عبدالله النعمة - رحمة الله عليه - وكان يلقي دروس القرآن في بيته مدة طويلة من الزمان يختمه ثم يبدأ من جديد، ويحضره كثير من الناس إلى أن توفي - رحمه الله - أما الشيخ صديق الملاح فكانت مدرسته هي المقهى في الموصل. والمقاهي في الموصل تختلف عنها في سائر البلدان ففي كل مقهى من مقاهي المسلمين مسجد وله مؤذن وإمام لصلاة المغرب والعشاء، وإذا حضر وقت المغرب أذن المؤذن وأم الناس المسجد كلهم لا يبقي إلا يهودي أو نصراني، وأهل هذا البلد لهم فضائل ومزايا من أخصها الشجاعة والكرم، وكان فيها أعداء للسنة ولكن لم يستطيعوا أن يمسونا بسوء.

وبعد الوثبة التي تقدم ذكرها انتقلت إلى بغداد وبدأت الدعوة فيها وكانت السلفية قد ماتت في بغداد، مع أنها بلد الإمام أحمد بن حنبل والإمام أبي حنيفة - رحمهما الله - وكذلك الإمام محمد بن جرير الطبري، وقد كانت من قواعد الدعوة السلفية إلى زمان السيد محمد شكري الألوسي - رحمة الله عليه - أما أنا فلم أجد من السلفيين إلا الشيخ عبدالكريم الصاعقة وكان إمامًا صغيرًا وقد حاربه المتعصبون من المقلدين؛ فلم يكن يصلي في مسجده إلا بضعة أشخاص، ولكنه كانت له خزانة عظيمة من كتب السنة، وكان متمسكًا بالعقيدة السلفية راسخ القدم لا يتزحزح عنها.

وكان ابتداء دعوتي في مسجد بمحلة الشيوخ بالأعظمية وهو مسجد وقف خاص كان المتولي عليه الحاج محسوب - رحمه الله - وقد جرت العادة بإلقاء

الوعظ في كل مسجد كل يوم من أيام رمضان على الأخص، فلما أقبل رمضان ذهب الحاج محسوب يبحث عن عالم من العلماء ليستأجره للوعظ في مسجده مدة شهر رمضان، فاتفق مع أحدهم - ولا أسميه إبقاء عليه - ثم وجد ذلك الشيخ أجرًا أعلى مما اتفق عليه مع الحاج محسوب فأخبره بفسخ الإجازة، وذهب إلى عالم آخر - لا أسميه أيضًا إبقاء عليه - فاتفق معه أن يعطيه عشرة دنانير، فلما أقبل رمضان ولم يبق إلا يوم واحد من شعبان جاءه ذلك العالم وأخبره بفسخ الإجازة لأنه وجد من يعطيه أكثر من ذلك فأصاب الحاج محسوبًا من الحزن والغم والغيظ على جميع المعممين، وهكذا يسمى علماء الدين عندهم؛ لأنهم يلتزمون لُبس العمامة والجبة وذلك زي العلماء عندهم فكل من لبس عمامة وجبة يحسبه الناس عالمًا، وإن كان أجهل من حمار أهله. فما شعرت إلا والحاج محسوب يطرق الباب فرحبت به وجلسنا نتحدث فاشتكى إلي مما أصابه من المعممين وذمهم ذمًّا شديدًا، وقال لي: يا ليت الواحد منهم حين استولى عليه الطمع وأراد الزيادة جاءني فاستشارني قبل أن ينقض العقد ويتفق مع غيري، كان ينبغي أن يقول لي قد وجدت من يعطيني أجرًا أكثر مما اتفقت عليه معك. فإما أن أزيده وإما أن أفسخ العقد معه. قال: واليوم جاءني أحد الأصدقاء وقال لي: عليك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي يعظ في مسجدك ثلاث مرات في الأسبوع فإنه يعظ لله ولا يطلب أجرًا قال: فجئتك وأنا مستعد أن أقدم لك ما تطلب. فقلت له: يا حاج محسوب، أنا لا آخذ شيئًا على الوعظ؛ لأنه فرض فرضه الله علي لأنه من الجهاد، والجهاد واجب بالنفس والمال.

فوعظت في مسجده كل يوم، وأقبل الناس شبابًا وشيوخًا فاغتبط الحاج محسوب واطمأنت نفسه، وبعد رمضان استمررت على دروسي في ذلك المسجد وكان يحضرها الشباب من تلامذة المدارس والشيوخ من أهل تلك المحلة، فغاظ ذلك أعداء السنة، وزعموا أنني أردت أن أهدم مذهب أبي حنيفة.

فقلت مرارًا في دروسي: إنكم تكذبون على أبي حنيفة - رحمه الله - وأنا أتبعه حقًّا وصدقًا، فإن أبا حنيفة كان على عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، كان يصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ ويثبت العلو لله تعالى ويكفر من يتأول الاستواء بالاستيلاء كما في الفقه الأكبر وفي الطحاوية وشرحها، وأنتم تعتقدون عقائد المتأخرين من الأشعرية نفاة الصفات

وأبو حنيفة يكفر النفاة، ثم تتعصبون في إلزام الناس بفروع الحنفية، وهذا خلاف ما كان عليه أبو حنيفة - رحمه الله - فقد صح أنه قال: لا يجوز لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه. أي: حتى يعرف دليله، وأنتم تقولون على الله بلا علم بل بالتقليد الأعمى، ولعمر الله ليس هذا مذهب أبي حنيفة.

ومما يدل على مخالفتكم لمذهبه أن صاحبيه محمدًا وأبا يوسف خالفاه في ثلث المذهب، وقال بعضهم: في ثلثي المذهب؛ ولو كان أبو حنيفة يعلّم أصحابه أن يكونوا مقلدين، لما خالفه أقرب الناس إليه وأفضل تلامذته الذين نشروا مذهبه. وهذه القبة التي بنيتم على قبره هل أباح لك أبو حنيفة أن تبنوها؟! وهذا المسجد الذي بنيتم إلى جانبها هل أباح لكم أبو حنيفة أن تبنوا المساجد على القبور وتصلوا فيها؟! وهذه البدع التي ترتكبونها هل رويتموها عن أبي حنيفة؟!

فضاق المتعصبون ذرعًا بدروسي فأوعزوا إلى أربعة من تلامذتهم من المعممين الشباب أن يحضروا درسي ويجادلوني، فإذا عارضهم تلامذتي يقتتلون معهم حتى يجيء رجال الأمن إلى المسجد، ويقبضوا على المقتتلين فيتوصلوا بذلك إلى وقف دروسي بادعاء أنها تثير الفتنة ولكن خاب سعيهم؛ لأن تلامذتي تفطنوا لذلك فالتزموا الصمت والهدوء، فلما رآهم الشيوخ خرجوا عن حدود السؤال بأدب إلى إساءة الأدب غضبوا عليهم وأسكتوهم وأرادوا أن يضربوهم وفي مقدمتهم الحاج محسوب - رحمه الله - فخافوا وذلوا وطلبوا مني العفو فبطلت هذه المكيدة.

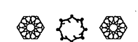
وكنت أسكن بقرب المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة، ويسمى عندهم جامع الإمام الأعظم - وهذا اللفظ أطلقه الأتراك في زمان حكمهم على أبي حنيفة - رحمه الله - ولا شك في إمامته ولا في عظمته، ولكن هذا اللفظ مبتدع يشبه ملك الملوك و(شاهن شاه) وقاضي القضاه. وقد جاء في الحديث الصحيح «**أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك**» وكره الأئمة كل ما كان قريبًا من هذا المعنى - فكنت لا أصلي في ذلك المسجد لا جماعة ولا جمعة؛ أما الجماعة فكنت أصليها في مسجد الحاج محسوب، وأما الجمعة فكنت أركب السيارة من الأعظمية إلى بغداد وأصلي في أحد المساجد الخالية من القبور، فاشتد انتقادهم لهذه الخطة، ولاسيما حين كانوا يرون تلامذتي من الشباب يقتدون بي ولا يصلون في المسجد المبني على القبر، بقيت على ذلك مدة سنتين.

جامع الدهان

كان جماعة من أهل الخير قد اشتركوا في بناء مسجد يبعد عن جامع أبي حنيفة بنحو ميل واحد إلى ناحية بغداد وعجزوا عن إتمامه، فجاء الحاج عبدالحميد الدهان - وهو من أهل الثراء والإحسان، ومن وجهاء التجار في بغداد - فأكمل بناء ذلك المسجد وفتحه للصلاة.

وفي يوم من الأيام جاءني الحاج عبدالحميد وسلم علي وقال لي: إني بنيت هذا المسجد بين بغداد والأعظمية، وأهل الأعظمية يصلون في مسجد الإمام الأعظم وأهل البيوت القريبة من مسجدي أكثرهم شيعة، وأنا خائف أن لا يجتمع لي العدد الذي تصح به صلاة الجمعة. وقد استنصحت الحاج طه الفياض صاحب صحيفة السجل، فقال: إن أردت أن يمتلئ مسجدك بالمصلين، فعليك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي، فالتمس منه أن يكون إمامًا وخطيبًا لصلاة الجمعة، فأرجو أن تقبل مني هذا العرض. فقلت له: أنا لا ألبس زي العلماء كما ترى؛ فقال لي: أنا أقبلك على أي حال كنت. فقلت له: خيرًا.

وشرعت أصلي الجمعة في جامع الدهان، فما مرت ثلاث جمعات إلا وقد ضاق المسجد عن المصلين، وصار الناس يقصدونه من جميع أرجاء بغداد وحتى أهل الأعظمية كان كثير منهم يمرون على مسجد أبي حنيفة ويتركونه ويؤمُّون جامعَ الدهان، ومن الذين كانوا يواظبون على الصلاة فيه السفير المغربي في ذلك الوقت الحاج الفاطمي بن سليمان، وبلغ الإقبال على جامع الدهان. إلى أن من لم يتقدم قبل الزوال بساعة أو أكثر لا يجد مكانًا.



تطهير الجامع من البدع

كان في الجامع كغيره من المساجد بدع:

الأولى: قراءة القراء بالتناوب في مكان مرتفع مخصص للقارئين، وكانوا يشوشون على المصلين بقراءتهم.

الثانية: صلاة ركعتين بعد الأذان الأول، يقوم المؤذن فينادي بأعلى صوته متغنيًا فيقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ثم يقول: صلاة سنة الجمعة يرحمكم الله فيقوم الناس كلهم ويصلون ركعتين، ومن لم يصلهما يعد تاركًا للسنة، وكان المؤذن يرفع صوته بالتسميع خلف الإمام مع وجود مكبرة الصوت وعدم الحاجة إلى التسميع، كما يفعل اليوم بالمسجد النبوي نسأل الله أن يطهره من المحدثات حتى يعاد إلى الحال التي كان عليها في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

الثالثة: الأذان الأول وهو محدث لم يكن على عهد النبي ﷺ ولا على عهد الخليفتين بعده وهم أولى بالاتباع، ولما كان زمان عثمان، وكثر الناس في المدينة، أمر عثمان مناديًا ينبه أهل السوق بقرب صلاة الجمعة ليستعدوا لذلك ويؤموا المسجد، ولم يكن ذلك أذانًا حقيقيًا، ولا كان في المسجد؛ فلما كان زمان عبدالملك بن مروان، جعله أذانًا لازمًا وجعله في جوف المسجد (انظر كتاب المدخل لابن الحاج وفتح الباري)، وكيف ما كان الأمر فسنة النبي ﷺ وصاحبيه اللذين قال فيهما: «**اقتدوا باللذين من بعدي**» أولى بالاتباع.

الرابعة: كان المؤذن بعد السلام يرفع صوته بأذكار مخصوصة.

فاستعنت بالله وحده أنا وتلامذتي وأخذنا نزيل تلك البدع واحدة بعد واحدة حتى قضينا عليها ولله الحمد، وكان الحاج عبدالحميد لا يتأخر عن مساعدتنا في ذلك. فبدأنا بإزالة القراءة ثم إزالة ما كان يترنم به فألفت كتابًا سميته: (الأنوار المتبعة في سنة الجمعة) وأقمت فيه البرهان على أن صلاة الجمعة ليست لها سنة قبلية، وإنما سنة بعدية ونقلت كلامًا لأبي شامة في كتاب البدع له وكلام غيره، فلما عرف الناس ذلك بقراءة ذلك الكتاب وبخطب الجمعة المتوالية وكانت كلها من

صميم السنة خطبًا تعليمية إرشادية اتفقت مع تلامذتي ومع الحاج عبد الحميد الدهان على إزالة الأذان الأول وبإزالته تزول الركعتان، فأنذرت الحاضرين في المسجد في خطبة الجمعة الأخيرة وقلت لهم: لقد علمتم فيما مضى من خطب يوم الجمعة أن النبي ﷺ لم يكن له إلا مؤذن واحد يؤذن أذانًا واحدًا عند جلوسه على المنبر، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه، قام رسول الله ﷺ خطيبًا، ولم يقم أحد لصلاة ركعتين، إلا من تأخر حتى شرع الخطيب في الخطبة فهذا يصلي ركعتين خفيفتين تحية المسجد كما بينته لكم مرارًا وتكرارًا بالأحاديث الصحيحة، وقد عزمنا على ترك الأذان الأول، وبطبيعة الحال تترك الركعتان المترتبتان عليه فمن شرح الله صدره لقبول الحق، فأهلًا وسهلًا به وهنيئًا له؛ ومن أبى فالمساجد كثيرة، فلما كانت الجمعة التالية دخلت المسجد وذهبت رأسًا فصعدت المنبر وجلست عليه فقام أحد تلامذتي وأذن، ثم قمت أنا وخطبت فجعلناهم أمام الأمر الواقع وانقطع بذلك ما بقي من المخالفات ولله الحمد.

والحاج عبد الحميد الدهان كان موافقًا لي على إزالة تلك البدع حرصًا منه على عمارة المسجد وازدهاره، ولم يكن يدرك أهمية التمسك بالسنة وترك المحدثات، لأنه تاجر لا يعرف الأدلة الشرعية ويجيئه المخالفون للسنة فيزينون له البدع فيبقى متحيرًا ويحل المشكلة بإرضائنا في المسجد وإرضاء خصومنا خارج المسجد بأن يقيم لهم مآدب ويعطيهم الحرية في ارتكاب بدعهم من عمل الموالد وغيرها ولذلك لم يثبت على العهد، فبعدما برحت أنا بغداد طمع فيه المبتدعون فأقنعوه برد تلك البدع بعدما طهر منها المسجد لمدة نحو عشر سنين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.



هجوم مدير الأوقاف علينا

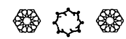
لما رأى الفقهاء المتعصبون وأصحاب الطرائق المبتدعون نجاح هذا المسجد وازدهاره وقيام دولة التوحيد واتباع السنة، شرقوا بذلك ودبروا مكيدة عظيمة فذهبوا إلى مدير الأوقاف، و(الأوقاف في العراق لا يكون لها وزير لأنها كلها من وقف أهل السنة ولو كانت لها وزارة مستقلة لأمكن أن يكون الوزير شيعيًا وذلك يخالف شرط الواقف فكانت مديرية الأوقاف تابعة لمجلس الوزراء) فذهب المبتدعون إلى مدير الأوقاف، ومعهم مفتي بغداد في ذلك الوقت وقالوا له: لماذا لا تستعمل حقك في تعيين الإمام والخطيب في جامع الدهان، وكيف تترك الهلالي ينشر المذهب الوهابي علانية في ذلك المسجد؟! فاستصدر مدير الأوقاف أمرًا ملكيًا بتعيين شخص إمامًا وخطيبًا في جامع الدهان فنال مراده.

فلما صدر الأمر الملكي كتب صحيفة لي يقول فيها بعد السلام: إنه صدرت إرادة ملكية لفلان الفلاني أن يكون إمامًا وخطيبًا بجامع الدهان، وقد أخبرنا الإمام أنك لا تمكنه من أداء واجبه، فنرجو أن تتخلى عن الإمامة في ذلك المسجد ليتمكن الإمام من أداء واجبه. وبعث الصحيفة مكشوفة بلا غلاف إلى الكلية، فسلمها إلي البواب، ولم تزل تنتقل من يد إلى أخرى والناس يقرؤونها حتى وصلت إلى يدي فلما فرغت من دروسي ورجعت إلى بيتي كلمني الحاج عبدالحميد الدهان بالهاتف، وقال لي: إن مدير الأوقاف دعاني إلى مكتبه؛ فلما حضرت عنده تكلم بكلام قبيح لا أريد أن أذكره لك. فقلت له: وأنا أيضًا كتب إلي يأمرني بالتخلي عن عملي في المسجد. فقال لي: استمر على عملك واترك لي الأمر. فقلت له: وعلى هذا أنا عازم أيضًا.



وقوف الأستاذ منير القاضي إلى جانب الحق

ذهب الحاج عبدالحميد الدهان إلى مدير مجلس الوزراء، وأخبره بما قال وفعل مدير الأوقاف، فأخذ التليفون وتكلم مع مدير الأوقاف ووبخه توبيخًا شديدًا، فاعتذر له بأن الدكتور الهلالي يبث المذهب الوهابي وله معارضون من أهل السنة، ونخشى أن تحدث فتنة في المسجد؛ فقال له فضيلة الأستاذ منير القاضي: أأنت مدير أوقاف أو مدير الأمن العام؟! وزجره زجرًا شديدًا، فحبط عمله، وبطلت هذه المكيدة. والأستاذ منير القاضي يعرفني حق المعرفة، فإننا كنا نجتمع في الاحتفالات التي تقيمها وزارة المعارف، فما كان أحد يقوم لصلاة المغرب إلا أنا وهو، فكان يقدمني فأصلي به إمامًا. وفي رمضان لم يكن أحد من الحاضرين يصوم إلا أنا وهو، فكنا نفطر جميعًا، وفيما عدا ذلك لم تكن بيني وبينه علاقة.



مكيدة أخرى

ذهب أعداؤنا إلى القصر الملكي وبلغوا خبرًا كاذبًا على سبيل الوشاية؛ قالوا: إن الهلالي منذ زمان عين إمامًا وخطيبًا في جامع الدهان بدون إرادة ملكية وطرد الإمام الشرعي، وأعانه على ذلك صاحب المسجد، وهو يبث المذهب الوهابي ولا يدعو للملك في خطبة الجمعة لأنه عدو للبيت الهاشمي؛ فجاءني أحد إخواننا وأخبرني بذلك، فقلت له: إن الله الذي خيبهم في الأولى سيخيبهم في الثانية، فبعث الوصي من حضر صلاة الجمعة، فوجد الخبر غير صحيح وخاب سعيهم، وكنت دائمًا أختم الخطبة الثانية بالألفاظ التالية على عادة المقتصدين غير المتزلفين من الخطباء في بغداد فأقول: اللهم، وفق وسدد ملك العراق فيصلًا الثاني وولي

عهده عبد الإله وسائر ملوك المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فإن قلت: هذه بدعة كنت ترتكبها مع زعمك أنك تحارب البدع، أقول: إنني اجتهدت فرأيت أنني لو لم أفعل ذلك لم أستطع أن أكون إمامًا في صلاة الجمعة ولا مدرسًا وواعظًا في ذلك المسجد، وأن ما يحصل من الخير بنشر التوحيد واتباع السنة يربو على تلك البدعة أضعافًا مضاعفة، على أن الدعاء لشخص معين في خطبة الجمعة لا بأس به، ولكن المداومة عليه فيها ما فيها.



أخذ الأجرة على صلاة الجمعة

في الجمعة الثانية التي صليتها إمامًا وخطيبًا في جامع الدهان دعاني الحاج عبدالحميد الدهان إلى الطعام بعد صلاة الجمعة، وقال لي: أنا مسرور جدًّا بما وقع من الإقبال على الصلاة في مسجدي بسبب خطبتك، ونريد أن نتفق الآن على الراتب. فقلت له: إن أردت أن يطرد نجاح المسجد، فلا تفكر في الراتب، فأنا لا أخذ أجرًا على الصلاة أبدًا. فألح، فثبت على الامتناع عن قبول أي شيء؛ فقال: نجعله هدية فقلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝﴾ [آل عمران: ٥].

فبعث إلي بعد ذلك جماعة يشفعون عندي في قبول الراتب فرفضت ولم آخذ شيئًا طول تلك المدة إلا أنني اقترضت منه دنانير مرتين فرددتها له.



ملاحقة الاستعمار الإنكليزي لمؤلف هذا الكتاب

كان السفير الإنكليزي في تطوان قد تعاون مع الإسبانيين في منعي من الرجوع إلى برلين، وكان قد احتج على الإسبانيين بسبب المقالات التي كنت أنشرها في صحيفة الحرية لسان الحزب الإصلاح الوطني، وتقدم ذكر ما جرى بيني وبين نائبه في تطوان، وكنت أظن أن محاربته لي لا تعدو حدود تطوان، وإذا به يلاحقني إلى بغداد، فقد كتب إلى السفارة الإنكليزية في بغداد وأخبرها بحالي وحذرها مني فأوعزت إلى مطاياها من العراقيين أن يحاربوني.

ومما دل على ذلك أن السفارة التونسية في بغداد أقامت احتفالًا فدعتني إليه فالتقيت هناك بصديقي الدكتور عبدالكريم كنون، وهو رفيق لي في الدراسة في جامعة بون بألمانيا، فأقبل عليه السفير الإنكليزي في بغداد، فقال له: أعرفك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي. وأخذ يثني علي، فلم يهش ولم يبش ولم يرحب، بل قال له بالإنكليزية ما معناه: أنا أعرفه جدًا مع أني ما رأيته قبل ذلك اليوم.

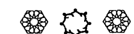
ولما ذهبت إلى التحقيقات الجنائية - وهو اسم دائرة الشرطة السرية- وطلبت إعطائي جواز سفر منعت من ذلك بدون بيان السبب، واستمررت على ذلك ثلاث سنين في كل صيف أتردد على تلك الدائرة مرارًا وتكرارًا ثم أرجع بخفي حنين، حتى رق قلب الموظف المختص ورحمني، وقال لي: أيها الأستاذ، إن منع إعطائك جواز السفر ليس بأيدينا، بل هو في يد من فوقنا، فلا تتعب نفسك بكثرة التردد. واتفق أنني أطلعت أحد الإخوان على هذه القضية فقال لي: حل هذه المشكلة يسير بالنسبة إليك، ولكنك لا تعرف طريق حلها، فقلت: أفدني، يرحمك الله! فقال: إن مدير الشرطة العام هو ابن عم صديقك الحاج محسوب، والحاج محسوب هو كبير هذه العشيرة، ومدير الشرطة العام لا يعصي له أمرًا فعليك به.

فذهبت إلى الحاج محسوب وأخبرته فقال لي: غدًا صباحًا نلتقي عند باب

جامع الإمام الأعظم، فالتقينا وركبنا سيارة، فلما وصلنا إلى باب مديرية الشرطة العامة إذا بالمدير خارج، فكلمه الحاج محسوب وقال له: إليك جئنا فقال: يا حاج، أمهلني ساعة؛ فإن عندي أمرًا مهمًّا لا يمكن تأخيره وبعد ساعة أكون في المكتب، وبعد مضي الساعة دخل عليه الحاج محسوب فلبث عنده نحو نصف ساعة وخرج بكتاب معنون إلى مدير التحقيقات الجنائية ومختوم على غلافه ومكتوب عليه (سري).

فأخبرني الحاج محسوب أنه عاتبه في منعي من جواز السفر ثلاث سنين، فقال له: إن صاحبك هذا اشتراكي. (وفي ذلك الزمان كانت بدعة الاشتراكية لا وجود لها في البلاد العربية ولا يفكر فيها أحد، وإنما تكلم بشيء لا يعرفه). قال الحاج محسوب: فقلت له: أقسم لك بكل عزيز علي أن هذا كذب وافتراء، فإن هذا الرجل يعظ في مسجدي منذ ثلاث سنين، وما عنده إلا قال الله وقال رسوله، وإن شئت أتيتك بأربعين من سكان الأعظمية يشهدون بما ذكرت. قال: فكتب لي هذا الكتاب إلى مدير التحقيقات الجنائية يأمره أن يعطيك جواز السفر في الحال وأراد أن يبعثه مع شرطي. قال: فقلت: له: والله ما يأخذه أحد غيري، فقال: يا حاج، هذا سري. قلت له: ليكن سريًا أو علانيًا لا يأخذه غيري، فسلمني الكتاب وقال: اذهب به إلى مدير التحقيقات.

فذهبت إليه واستأذنت عليه شرطيًا كان واقفًا ببابه؛ فقال له: قل له: إن قضيته لم تنته بعد. فقلت للشرطي: قل له: جئت بكتاب من مدير الشرطة العام ولا أسلمه إلا يدًا بيد فأذن لي، فسلمته الكتاب؛ فلما رآه مختومًا بختم سيده ورأى عليه كلمة سري، قام وقرأه قائمًا وأبدى لي بشاشة وترحيبًا لم أره من قبل ذلك، ودعا بشرطي، وقال له: رافق الدكتور إلى المكاتب المختصة، ومرهم أن يهيئوا أوراقه في الحين. فانحلت هذه المشكلة!!



الانقلاب

في أوائل سنة (١٩٥٨) قام عبدالسلام عارف وعبدالكريم قاسم بالانقلاب المشهور والذي قتل فيه الملك فيصل الثاني والوصي عبدالإله وسائر أهل بيتهما إلا امرأة واحدة، وقتل فيه نوري السعيد.

وظن أهل العراق كلهم أن هذا الانقلاب سيأتيهم بخير عميم ويقضي على النفوذ الاستعماري وحينئذ تفتح لهم أبواب البركات من السماء والأرض، إلا أنه بمضي الأيام ظهر لهم خطأ ظنهم، لأن العهد الملكي كان عهد استقرار ورخاء وكان خيره أكثر من شره بالنسبة إلى الخاصة والعامة.

والرئيس عبدالسلام عارف هو من أخص إخواننا السلفيين وهو وفرقته قاموا بالانقلاب ولم يشاركهم عبدالكريم قاسم إلا بموافقته، وقد أخطأ رحمه الله في ذلك الانقلاب، وكان أول من صلي بناره، فقد حكم عليه بالقتل وسجن سنين وعذب، ثم أسعده الحظ حيث تمكن من قتل عدوه في أواخر الأمر وشريكه في أوله واستولى على الحكم، فكتب إلي بخط يده وأنا في المغرب يقول: نحن تلامذتك، ونحن سائرون على الخطة التي اقتبسناها من دروسك وأبواب العراق مفتحة في وجهك فأقبل إلينا، فشكرته على ذلك ولم أقبل دعوته، وما أدري كيف شعر بذلك أخونا السلفي الأستاذ محمود مهدي الإسنطبولي فكتب لي يقول: علمت أن عبدالسلام عارف من تلامذتك، وهذه فرصة لا تضاع، فهلم نسعى في عمل شيء ينفع الإسلام والمسلمين. فاعتذرت له ولم ينشرح صدري لذلك لأني لم أتوقع نجاحًا.

ولما استولى عبدالكريم قاسم وأبعد عبد السلام عارف أولًا ثم سجنه ثانيًا أطلق العنان للشيوعيين يقتلون من شاءوا ويسجنون من شاءوا ويسحلون من شاءوا (والسحل هو وضع حبل في عنق الرجل وجره به على وجهه إلى أن يموت)، وعاث الشيوعيون في بلاد العراق فسادًا، فعمَّ الخوف والفزع، ولم يبق أحد مطمئنًا على نفسه.

ووقعت حوادث فظيعة معلومة لا نطيل بذكرها، ولكن على سبيل المثال أذكر

حادثًا أو حادثين: أخبرني أخونا السلفي الصالح الدكتور وجيه زين العابدين أنه كان نائمًا في فراشه، وبعد منتصف الليل بساعة ونصف سمع طرقًا شديدًا على الباب قال: ففتحت الباب وإذا ثلاثة من الشيوعيين دخلوا علي بدون استئذان، وفتشوا البيت، ثم قبضوا علي وتركوا والدي وزوجتي وأولادي يبكون، وحملوني في سيارة إلى غرفة من غرف التوقيف كما يسمونه، فأدخلوني فيها وأغلقوا الباب، وفي أثناء الطريق قالوا لي: صدق من قال: إنك تبغض الزعيم عبدالكريم قاسم، فقد فتشنا بيتك كله وما وجدنا فيه صورة للزعيم. قال: فقلت لهم: هل بعثكم من فوقكم لتحاكموني أو لتقبضوا علي وتقدموني إلى غيركم ليحكم علي؟ قال: فوجدت في تلك الغرفة ثمانين رجلًا كل واحد منهم ملتف بكساء يقيه البرد وهم قعود ولا مجال للاضطجاع. قال: فقعدت معهم فلما أصبح الصباح وجاء وقت الضحى جاءني شرطي فدعاني إلى مكتب المعاون. قال: فسلمت عليه فلم يرد علي، بل قال لي: أنت بعثي؟ قال: فقلت: أنا مسلم. فقال لي: لماذا تكونون شجعانًا حتى إذا وقعتم في يد العدالة تجبنون؟ قال: فقلت له: أنا لا أجبن ولا أبالي بك ولا برئيسك عبدالكريم قاسم! أتعرف من هو رئيس حزب البعث؟ قال: لا. قلت: هو مشيل عفلق فكيف أكون مسلمًا ويكون رئيسي مشيل عفلق وهو نصراني؟! فلو كنت تعرف ما هو الإسلام لم تتهمني بالبعثية بعدما قلت لك: أنا مسلم. قال: وكان ذلك المعاون من خيار المعاونين فناولني مقالًا مكتوبًا بخط يدي وعنوانه مضار الخمر، وقال لي: أنت كتبت هذا المقال؟ قال: فقلت: نعم؛ فقال لي: اقرأه. فقلت له: أنا كتبته بيدي وأعرفه فاقرأه أنت لتعرفه، قال: فقرأه فلم ينكر منه شيئًا، قال: فقال لي: أنت مظلوم، صدر الأمر بالقبض علي صاحب الصحيفة التي كتبت لها هذا المقال فوجدوا بين أوراقه هذا المقال موقعًا باسمك فقبضوا عليك قال: وكتب أمامي كتابًا إلى من فوقه، وقال فيه: إنني أجريت تحقيقًا دقيقًا مع الدكتور فلان فوجدته بريئًا وهو يحب الزعيم فأرجو الأمر بإطلاق سراحه. قال: فبقيت أربعة أيام ثم أطلق سراحي.

ولا نطيل ذكر الحوادث المؤلمة فإن ذكرها أيضًا يؤلم، وفي ذات يوم بعد ما صليت الجمعة في جامع الدهان جاءني أحد المصلين فأسر إلي أن ابنه سمع معلمًا شيوعيًا في ثانوية الأعظمية يقول: يزعمون أن حكومتنا ليست ديمقراطية وما عندها حرية وهذا باطل؛ أي حرية أعظم من أن تترك محمدًا تقي الدين الهلالي يسبها في

كل جمعة على المنبر ولم تتعرض له بسوء؟! فقلت له: وهل سمعتني أسب الحكومة في خطبة من الخطب؟ فقال لي: إنما أردت أن أبلغك الخبر لتكون على حذر.

وكان خطباء الجمعة في ذلك الزمان أصنافًا منهم من يمدح حكومة عبدالكريم قاسم في خطبه ويطريها غاية الإطراء كما كانوا يفعلون مع الحكومة الملكية ومنهم من يقتصد في ذلك، ومنهم من يقتصر على الدعاء لها، وأنا لم أكن أذكرها أصلًا لا بخير ولا بشر، لكن كان بعض المتهوسين من تلامذتي يحاولون أن يلقوا كلمات بعد خطبة الجمعة في انتقاد الحكومة فكنت أمنعهم خوفًا من العواقب الوخيمة على المسجد وأهله. وكان عشرات من الشيوعيين يقفون أمام المسجد وقت الخطبة ويكتبون ما تضمنته خطبة الجمعة ويبلغونه الرؤساء، وكان رجال المباحث في كل جمعة يدعون بعض المصلين ويسألونهم عن الخطبة وعن صاحبها.

في ذات جمعة دعوت الناس إلى أن يجمعوا تبرعات للمجاهدين في الجزائر، وقلت لهم كل متبرع يعد ما يتبرع به وسيأتي في الجمعة التالية ممثل الجزائر السيد محمد الروابحية ويتسلم التبرعات، فاهتم بذلك رجال المباحث، ولكنهم اقتصروا على استنطاق المصلين، ولم يتعرضوا لنا بسوء.

وتعطلت دروس الوعظ في المسجد لأن تلامذتي صاروا يخافون الشيوعيين أن يفتكوا بهم، وذهبت أنا إلى الأستاذ الحاج حمدي الأعظمي وهو أكبر عالم حنفي في ذلك الزمان ببغداد، وكان إمامًا وخطيبًا في مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني المبني على قبره، فقلت له: ما تقول في خطبتك بالنسبة إلى رجال الحكومة؟ فقال: أدعو لهم بالتوفيق والتسديد، وأن يعينهم الله على ما فيه الخير لهذا الوطن. فمنذ ذلك أخذت أدعو أنا أيضًا لهم بمثل ذلك في الخطبة الثانية خوفًا من شرهم.

وعزمت على السعي في الخروج من العراق ولكن ذلك لم يكن أمرًا هينًا فكتبت إلى رئيس مستشفى العيون الأستاذ (مولر) أن يأمرني بالسفر إلى ألمانيا ليفحص عيني ففعل، وقدمت طلبًا لرئاسة الصحة وأطلعتها على كتاب الطبيب الألماني، فعينت ثلاثة أطباء للتحقيق في القضية فناقشوني الحساب ولم يأذنوا لي إلا بعد اللتيا والتي.

وكان العراقيون ممنوعين من السفر إلا لغرض فيه خدمة للحكومة أو لعلاج مرض يعجز عنه أطباء العراق، ثم لا يمكن السماح بالسفر إلا لمن كانت صحيفته

بيضاء بالنسبة إلى رجال الثورة، فقدمت الطلب للحصول على الإذن بالسفر ومعه موافقة رئاسة الصحة، وبقيت أنتظر الجواب خمسين يومًا حتى درسوا كل ما تحتويه محفظة أوراقي التي كتبت؛ ففيها كل ما ينسب إلي، وفي نهاية المطاف أعطيت جواز السفر ولم أصدق أنني تخلصت من أظفارهم إلا بعد وصولي إلى مطار بيروت.

وكان جواز سفري محصورًا في (بون) فلما وصلتها دخلت المستشفى وأنفقت فيه ثلث ما عندي لأُرِيَ السفارة العراقية أنني صادق في دعواي، كان ذلك خطأ؛ لأنني لما توجهت إلى السفارة العراقية في (بون) وجدت القائم بالأعمال شابًا طيبًا أبوه من أعز أصدقائي، وقال لي: أنا مستعدٌّ أن أضيف إلى جوازك إذنًا بالسفر إلى أي بلد تريده ولو إلى مصر. وكان السفر إلى مصر في ذلك الزمان من أعظم الجرائم وفي أول الثورة كانت صورة جمال عبدالناصر أحسن حلية لكل مكان، تراها في الأمكنة الخاصة والعامة أينما سرت في بغداد ثم مزقت كل ممزق وصار كل من توجد عنده يستحق العقاب الشديد. وبعد ذلك سافرت إلى المغرب.



الدعوة إلى الله في الدورة

أول حجة حججتها كانت سنة ١٣٤١ على عهد الملك حسين بن علي ورافقني إلى الحج بعض إخواننا السلفيين من أهل الريرمون، وكان السفر من مكة إلى المدينة فيه مخاطرة عظيمة بالنفس والمال فكانت قبائل البدو تتحكم في الحجيج وتنهبُ وتسلب وتقتل.

وقد أخبرنا بعض الحجاج أن كل قبيلة تمر بها قافلة الحجاج يفرض رجالها على الحجاج أن يمكثوا في بلدهم أيامًا عديدة إلى أن يبيع أهل القبيلة كل ما يريدون بيعه، وقد يشتري الحجاج منهم أشياء لا حاجة لهم بها، وإنما يفعلون ذلك اتقاء لشرهم وطلبًا لإطلاق سراحهم، وكل من ابتعد من الحجاج عن القافلة ولو لقضاء الحاجة يكون عرضة للقتل والسلب، فلا يصل إلى المدينة ولا يرجع منها إلا طويل العمر. هذا مع أن الملك حسينًا كان يأخذ من كل قبيلة شابًا يكون رهنًا عنده إلى انقضاء موسم الحج حتى لا تتعدى تلك القبيلة على الحجاج، ولم يجد ذلك نفعًا.

ومما يدلك على أن الشرك كان مسيطرًا على البدو والحضر في ذلك الزمان أن الشيخ أحمد الشمس الشنقيطي نزل المدينة النبوية، وهو أحد تلامذة الشيخ ماء العينين، وكلاهما شيخ طريقة يسمونها قادرية نسبة إلى عبدالقادر الجيلاني -رحمه الله- وأهل هذه الطريقة عندهم غلو عظيم في شيوخهم قد اتخذوهم أربابًا من دون الله يستغيثون بهم في الشدائد ويزعمون أنهم يغيثونهم، وإذا جالست أحدًا منهم تراه كالمجنون ممسكًا سبحة بيده يعد حباتها ويسرد لا إله إلا الله بنغمة الغناء واللحن ثم ينشد أبياتًا ثم يعود إلى سرد لا إله إلا الله، وفي أثناء ذلك يصرخ صرخات عظيمة يا شيخنا، فهؤلاء ما لهم عقل ولا دين.

قال ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس): «قال الشافعي رحمه الله: لو أن رجلًا صحب الصوفية من الصبح إلى الظهر لم يبق له عقل».

قال محمد تقي الدين: وأنا أصدقه وأزيد عليه: ولا دين. ونحن إنما نذم الصوفية المبتدعين والمشركين والملاحدة كابن عربي الحاتمي وابن الفارض؛ وإذا

كان الصوفية في زمان الشافعي -رحمه الله- موصوفين بأن من صاحبهم يفقد عقله فما بالك بصوفية الأزمنة المتأخرة؟! وإذا أردت أن تعرف طريقة ماء العينين وتلامذته، فعليك بكتابه المسمى «نعمت البدايات»، فإنك ترى فيه عجب العجاب من الضلال والغلو. ومن جملة ما قاله بعض الغلاة في قصيدة له يطري فيها شيخه ماء العينين:

وَمَنْ فَاتَهُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارَ مِنْ مُضَرٍ ... وَفَاتَهُ الشَّيْخُ مَاءُ الْعَيْنَيْنِ مَحْرُومُ

وقد رددت عليه بقصيدة أنقلها هنا:

مَنْ فَاتَهُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارَ مِنْ مُضَرٍ ... وَقَدْ قَفَا نَهْجَهُ مَا ذَاكَ مَحْرُومُ

إنْ رَدَّ كُلَّ نِزَاعٍ لِلإِلَهِ إِلَى ... كِتَابِهِ فَلَهُ يَحِقُّ تَحْكِيْمُ

وَلِلرَّسُولِ إِلَى حَدِيْثِهِ فَبِذَا ... أَمْرُ الإِلَهِ أَتَانَا وَهْوَ مَحْتُومُ

لَا لِلْشُيُوخِ وَلَا لِلْرَأْيِ مِنْ شِيَعٍ ... لَدَيْهِمُ حَبْلُ ذِكْرِ اللهِ مَصْرُومُ

وَكَمْ حَدِيْثٍ بِهِ عُرْضَ الْجِدَارِ رَمَوا ... إِسْنَادُهُ مِثْلُ صَحْوِ الشَّمْسِ مَعْلُومُ

إِذْ خَالَفَ الْرَأْيَ وَهْوَ الأَصْلُ عِنْدَهُمُ ... كَأَنَّ صَاحِبَ هَذَا الرَّأْيِ مَعْصُومُ

مَا لِلرَّسُولِ لَدَيْهِمُ غَيْرُ الاسْمِ فَقَطْ ... وَصاحِبُ الرَّأْيِ مَتْبُوعٌ وَمَأْمُومُ

وآيَةٌ مَنْ كِتَابِ اللهِ مُحْكَمَةٌ ... تَفْسِيْرُهَا عَنْ نَبِيِّ اللهِ مَفْهُومُ

تَعَمَّدُوا سَلْبَ مَعْنَاهَا الْمُرَادَ بِهِا ... وَحَمَّلُوهَا مَفَاهِيْمًا بِهَا لِيموا

مَضَى الْصَّحَابَةُ لَمْ تَخْطُرْ بِبالِهِمُ ... وَالْتَابِعُوْنَ وَعَقْدُ الْدَّيْنِ مَنْظُومُ

كَذَا الأَئِمَّةُ مِثْلُ الْشَّافِعِي وَمَا ... لِكِ وَأَحْمَدَ لَمْ يَلْمِزْ لَهُمْ خِيمُ[1]

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَتَوْا بِدَعًا ... قَدْ اقْتَفَوا أَثَرَ يُونَانِ مشَائِيْمُ

وَحكَّمُوا عَقْلَهُمْ فِي اللهِ جَلَّ وَهُمْ ... جُهَّالُ أَنْفُسِهِمْ وَذَاكَ مَذْمُومُ

فَوَصَفُوهُ بِمَا أَوْحَتْ وَسَاوِسُهُمْ ... وَعِنْدَهُمْ وَصْفُهُ بِالذِّكْرِ تَجْسِيْمُ

---

(١) الخيم: السجية والطبيعة والأصل.

إِنْ قَصَّرَ اللهُ وَالْمُخْتَارُ فِي صِفَةٍ ... وَصَحْبُهُ كَيفَ يُرْجَى بَعْدُ تَفْهِيمُ

أَو أَنْزَلَ اللهُ آيَاتٍ مُكَفَّرَةً ... فَالْكُفْرُ يُحْمَدُ وَالإِسْلَامُ مَذْمُومُ

تَاللهِ إِنَّ أُوْلَاءِ الْقَوْمَ فِي عَمَهٍ ... بَنَوْا عَلَى غَيرِ أُسٍّ فَهْوَ مَهْدُومُ

قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَانْتَبَذُوا ... بَيدَاءَ سَالِكُهَا لَا شَكَّ مَقْصُومُ

مَنْ رَامَ تَكْذِيبَ قَوْلِ اللهِ أَوْ سُنَنٍ ... يَقُولُ ذَا لَازِمٌ وَذَاكَ مَلْزُومُ

وَالْحَقُّ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ لَهُ ... لَكِنَّ طَرْفَ أَخِي التَّقْلِيدِ مَخْرُومُ

اللهُ أَعْطَاهُ طَرْفًا يُسْتَدَلُّ بِهِ ... فَسَدَّهُ وَاقْتَفَى مَنْ هُوَ مَشْئُومُ

وَقَالَ إِنَّا وَجَدْنَا الأَقْدَمِينَ كَذَا ... وَالأَقْدَمُونَ لَهُمْ يَحِقُّ تَقْدِيمُ

وَالْحَقُّ أَقْدَمُ وَالْمُخْتَارُ سَابِقُهُمْ ... لِقَوْلِهِ حَقُّ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمُ

وَلَيسَ رَبُّ الْوَرَى بِسَائِلٍ أَحَدًا ... عَنْ غَيرِهِ فَعَلَيهِ دَامَ تَسْلِيمُ

يَا وَيْلَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمُتَّبِعٍ ... شَرَابُهُ يَومَ يَظْمَا النَّاسُ يَحْمُوْمُ

وَكَيفَ يَتَّبِعُ ذُو التَّقْلِيدِ سُنَّتَهُ ... وَأَنْفُهُ بِحَبَالِ الْجَهْلِ مَخْزُوْمُ

إِذَا عَصَيْتُمْ رَسُوْلَ اللهِ يَنْتَفِشُوا ... وَيَنْفُضُوْنَ رُءوْسَهُمْ وَهُمْ بُومُ

وَيَنْبِزُونَكَ بَالأَلْقَابِ مِنْ سَفَهٍ ... فَعِنْدَهُمْ قَوْلُ خَيرِ الرُّسْلِ مَشْئُومُ

كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْدًا أَوْ خَشَبًا ... وَأَنْفُكُمْ أَبَدًا بِالتُّرْبِ مَرْغُوْمُ

مَنْ كَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ يُغْضِبُهُ ... فَذَاكَ فِي النَّاسِ مَدْحُورٌ وَمَذْؤُومُ

وَإِنْ تَسَتَّرَ بِالتَّحْرِيْفِ يَخْدَعُنَا ... فَلَيسَ يَخْفَى عَلَى الْعَلَّامِ مَكْتُومُ

أَمْرُ النَّبِيِّ وَأَمْرٌ مَنْ إِمَامِهِمُ ... ذَا حَاكِمٌ عِنْدَهُمْ وَذَاكَ مَحْكُومُ

لَوْ وُفِّقُوا حَكَّمُوا قَوْلَ النَّبِيِّ عَلَىٰ ... قَوْلِ الإِمَامِ وَذَا فِي الذِّكْرِ مَرْقُوْمُ

فَأَيْنَ الإِيْمَانُ مِنْهُمْ أَيْنَ آيَتُهُ ... أَيْنَ الْمَحَبَّةُ أَيْنَ أَيْنَ تَعْظِيْمُ

وَهُمْ يَقُولُونَ نَحْنُ الْوَامِقُونَ لَهُ ... وَخَالَفُوا أَمْرَهُ فَالْحُبُّ مَزْعُومُ

إِنْ كُنْتَ وَامِقَهُ فَلْتَقْفُ سُنَّتَهُ ... وَالْحُبُّ مِنْكَ إِذَا خَالَفْتَ مَعْدُوْمُ

وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ فَمَصْدَرُهُ ... مَشَايِخُ دِينَهُمُ وَالْعِرْضُ مَثْلُومُ

هُمْ زَيَّنُوا لِلْعَوَامِ كُلَّ فَاحِشَةٍ ... وَمِنْهُمُ نَتْنُ أَكْلِ السُّحْتِ مَشْمُومُ

رَامُوا التَّأَكُّلَ بِالْفَتْوَى فَصَارَ لَدَيْـ ... ـهِمُ بِالدَّرَاهِمِ تَحْلِيلٌ وَتَحْرِيْمُ

لَا كَسْبَ عِنْدَهُمُ إِلَّا الْعَمَائِمَ كَالْـ ... يَقْطِينِ وَالْكُمُّ مِثْلُ الْخَرْجِ مَرْسُومُ

يُرْخُونَ لِلنَّاسِ أَيْدِيَهِمْ تُقَبِّلُهَا ... وَمَنْ أَبَى فَهْوَ مَلْحِيٌّ[1] وَمَشْتُومُ

إِنْ كَانَ حَالُ هُدَاةِ النَّاسِ يَا أَسَفًا ... كَمَا رَأَيْتَ اسْتَوَى جَهْلٌ وَتَعْلِيْمُ

أَمَا ذَوُو الطُّرُقِ مَنْ لِلْصُّوفِ قَدْ نُسِبُوا ... فَلَا تَسَلْ عَنْهُمُ فَهْمْ مَشَائِيْمُ

لَمْ تُرْضِهِمْ شِرْعَةُ الْمُخْتَارِ فَانْتَحَلُوا ... شَرَائِعًا كُلُّهَا إِفْكٌ وَتَأْثِيْمُ

وَاسْتَعبَدُوا النَّاسَ بِاسْتِتْبَاعِهِمْ سَفَهًا ... فَالْحُرُّ مُسْتَخْدَمٌ وَالْعَبْدُ مَخْدُومُ

قَالُوا عَنِ اللهِ أَخَذْنَا الشَّرَائِعَ بَلْ ... مِنْ الشَّيَاطِيْنِ شَرْعُ الْقَوْمِ مَفْهُوْمُ

هَلْ فِي شَرِيْعَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ عَرْبَدَةٌ ... مِثْلُ السُّكَارَى وَرَقْصٌ ثُمَّ هَينومُ [2]

هَلْ فِي شَرِيْعَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ تَصْدِيَةٌ ... مَعَ الْبُكَا وَتَجَنّن وَتَهْوِيْمُ[3]

هَلْ لِلْخَلَائِقِ أَرْبَابٌ تُقَسِّمُهَا ... كُلٌّ لَهُ جُزْءٌ فِي النَّاسِ مَقْسُومُ

أَمْ لِلْخَلَائِقِ رَبٌّ وَاحِدٌ صَمَدٌ ... وَغَيْرُهُ مَالَهُ فِي الْخَلْقِ بُرْعُومُ

هَلْ فِي الشَّرِيْعَةِ أَقْوَالٌ تُكَذِّبُهَا ... يَقُولُ أَصْحَابُهَا: ذَا السِّرُّ مَكْتُومُ

هَلْ فِي الشَّرِيْعَةِ أَوْثَانٌ مُقَدَّسَةٌ ... وَحَوْلَهَا دَمُ ذَبْحِ الْقَوْمِ مَسْجُوْمُ

لَا يَخْشَعُونَ لِرَبِّنَا خُشُوعَهُمُ ... لَهَا لأَوْجُهِهِمْ وَيْلٌ وَتَسْخِيْمُ

لَوْ آمَنُوا بِإِلَهِ النَّاسِ مَا قَصَدُوا ... مِنْ دُونِهِ مَنْ بِكُلِّ الْفَقْرِ مَوْسُومُ

---

(١) مَلْحيّ: أي مُقبَّح ومشتوم.

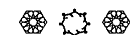
(٢) الهينوم: الكلام الذي لا يفهم.

(٣) هو الرجل إذا هزَّ رأسه من النعاس، فلعله يقصد بالتهويم ما يحدث في حلقات الذكر الجماعي من رفع رءوس الذاكرين وخفضها، وإمالتها يمنة ويسرة.

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أَبَدًا   إِذْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى المَقْبُورِ تَحْوِيمُ
إِذْ كَانَ حَيًّا بِكُلِّ الْفَقْرِ مُتَّصِفٌ   فَكَيْفَ وَهْوَ بِتُرْبِ اللَّحْدِ مَغْمُومُ
قَدْ أَخْبَرَ الْمُصْطَفَى بِكُلِّ مَا فَعَلُوا   صَلَاةُ رَبِّي عَلَيْهِ ثُمَّ تَسْلِيمُ
وَاللهَ أَسأَلُ أَنَّ الْحِفْظَ يَصْحَبُنِي   وَالْعُمْرَ بِالْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ مَخْتُومُ

كان الشيخ أحمد الشمس يخرج من المدينة ومعه قافلة كبيرة، فيتوجه بهم إلى مكة ولا يمسهم أحد بسوء. وكلما مر على قبيلة جاءه أهلها وقبلوا يده وتبركوا به وقدموا الهدايا، فكان ملكًا بلا جنود بسبب غلبة الجهل والشرك والبدعة والخرافات على أهل هذه البلاد في ذلك الزمان، فإن قبائل البدو كانت ترهب سطوة شيخ صوفي يزعم أنه يقتل من يشاء ويصيب بالأمراض والكوارث مَنْ لم يخضع إلى مخرقته أكثر مما يرهبون ملك البلاد وأمراءه.

فقلت لمن كان معي من الإخوان: إننا قد أدّينا فريضة الحج نرجو من الله القبول، والصلاة في مسجد النبي ﷺ فضيلة مستحبة، ولو كانت فريضة ما ساغ لنا أن نخاطر بأرواحنا لأجلها فإن المُحْصر يحلّ من حجّه، فأي واحد منكم يتوجه إلى المدينة ويركب هذه الأخطار فتوحيده غير صحيح، وكل واحد منكم يترك صلاة الجماعة في المسجد أحيانًا بلا عذر وهي فريضة، فكيف يُعقل أن يخاطر بروحه لفعل مستحب؟! إن أحيانا الله إلى أن تأمن هذه البلاد فإننا سنعود بإذن الله ونصلي في مسجد النبي ﷺ وإلا فقد أدينا فريضتنا فاستمعوا كلهم لقولي وأطاعوني، وقد أحيانا الله سبحانه بفضله ورحمته إلى أن صلينا في مسجد النبي ﷺ ما لا يُحصى من الصلوات، وهذه ببركة تحقيق التوحيد، نسأل الله حسن الختام.



كيف كان حال السلفيين؟

كان السلفيون في الحجاز في ذلك الزمان أضيع من الأيتام؛ أما أهل نجد منهم، فإنهم كانوا ممنوعين من الحج، وفي تلك الأيام جاء جماعة من حجاج أندونسيا وكانوا سلفيين، وأعلنوا الدعوة إلى التوحيد واتّباع السنة، فبلغ خبرهم بعض من كانوا يُسمون بالعلماء، فرفعوا أمرهم إلى الملك حسين، وأخبروه أنهم يدعون إلى مذهب الوهابية؛ فأمر الملك باستتابتهم، فاجتمع عليهم العلماء واستتابوهم فتابوا.

❁ ✧ ❁

مناظرة مؤلف هذا الكتاب لحبيب الله بن مايابا الشنقيطي

كان الشيخ حبيب الله بن مايابا الجكني من العلماء المقربين عند الملك حسين، وكانت له مدرسة تشرف على المسجد الحرام، وكان المسجد الحرام في ذلك الزمان محاطًا بالمدارس، وهذه المدارس كان يستغلها المقربون من العلماء والجهال، إذا جاءوا إلى المسجد الحرام يجلسون فيها ويتوضؤون وينامون ويصلون فيها أيضًا؛ لأن كل واحدة منها كان لها طاقة واسعة مواجهة للكعبة، فقصدت زيارة الشيخ المذكور في مدرسته، وأخذت أتحدث معه حديثًا يشبه المناظرة في التوحيد والاتّباع، وكان عنده رجل أشيب؛ فلما سمع كلامي، ظهرت عليه أمارات الحزن، وقال لي: هذا الذي تقوله تعلمته في الشرق أم في الغرب؟ فقلت له: بل في المغرب؛ فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله! وصل هذا البلاء إلى المغرب -يعني

بالبلاء توحيد الله واتّباع سنة رسوله ﷺ- وأخبرني الشيخ حبيب الله أن ذلك الشيخ كان شنقيطيًا كنتيًا نسبة إلى كنتة وهي قبيلة معروفة في شنقيط.

فقال الشيخ حبيب الله: وأنت وهابي، وأنتم معشر الوهابية عندي ثلاثة أصناف: وهابية نجد، ووهابية مصر والشام وأنت منهم، ووهابية الهند، فأما وهابية نجد فإنهم كفّار!! بيننا وبينهم ما بين اليهود والنصارى والمسلمين، هم اليهود والنصارى ونحن المسلمون. وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال. وأما وهابية الهند فهم مخطئون. فقلت له: اشرح لي ما ذكرته وبين لي سبب هذه التفرقة؛ فقال لي: أما وهابية نجد فهم عندي كفار لأنهم يقولون: إن ربّهم في السماء، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال لأنهم يدّعون الاجتهاد، وادّعاء الاجتهاد ضلال، ولا يبلغ إلى حدّ الكفر، وأنا بنفسي لا أقول بالتقليد المحض، بل أقول بمنزلة بين منزلتين. ثم سرد عليّ أبياتًا من أرجوزة له لا أحفظ منها إلا شطرًا واحدًا؛ وهو قوله: (إنما أقول بالتبصر).

فقلت له: هذا التفصيل فيه نظر؛ لأن جميع السلفيين في نجد وفي مصر والشام والمغرب وفي الهند يقولون ويعتقدون أن الله في السماء مستو على عرشه بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل، وأدلة هذا لا تخفى عليك، وأما ما سميته بالاجتهاد فنحن نسميه الاتّباع. والأصناف الثلاثة أيضًا متفقون عليه إلا أن أهل نجد ينتسبون إلى المذهب الحنبلي في الفروع، ونحن لا ننتسب إليه إلا في الأصول.

ثم قلت له: ولماذا خففت الحكم على أهل الهند فلم تجعلهم كفارًا ولا ضلالًا بل جعلتهم مخطئين؟ فقال لي: لأنهم يزورون قبر النبي ﷺ، فليس عندهم مما يُنتقد إلا مسألة الاجتهاد فقلت له: فعلام ضلّلتنا نحن بالاجتهاد وغفرته لهم، فقال: قلت لك: إنهم يزورون قبر النبي ﷺ. فقلت له: ماذا تعني بزيارة القبر؟ تقصد شد الرحال؟ فقال: أقصد ذلك كله. فقلت له: إن السلفيين في الهند لا يقولون بجواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة. فظهر تناقضه، ولم أكن أعلم سبب ذلك التناقض حينئذ غير أني عرفته فيما بعد، وذلك أن الشيخ عبدالوهاب الدهلوي التاجر العالم كان بمكة، وكان تلميذًا له يدرس عليه بعض فروع العلم، وكان يحسن إليه؛ فلذلك خفف الحكم على السلفيين من أهل الهند، وكان يتبع هواه

والهوى يعمي ويصم، فقد كان يحرّم حلق اللحية ويغلظ فيه القول ويفسّق مرتكبه؛ فلما انتقل إلى مصر هاربًا ممن يسميهم بالوهابية كما سيأتي غيّر رأيه فأفتى بأن حلق اللحية مكروه كراهية تنزيه فقيل له: قد أفتيت زمانًا طويلًا بالتحريم والتفسيق فما عدا مما بدا؟! فقال: إن أكثر العلماء في مصر يحلقون لحاهم فكيف يسوغ لي أن أفسّقهم؟!

ولما استُتيب الأندونسيون وكان هذا الرجل من الذين استتابوهم، اختفيت أنا ثمانية أيام في مكة عند بعض المغاربة، وكنت أبعثه كل يوم إلى المسجد الحرام ليتحسّس هل هناك أحد يبحث، فلم يجد لذلك أثرًا فخرجت من مختبئي. وهذه حسنة أعدها له إذ لم يسع في استتابتي، وسوف يرتكب سيئة تمحو هذه الحسنة.



مداهنته لمن يسميهم بالوهابية

لما استولى الملك عبدالعزيز على الحجاز بعد هذا التاريخ بقليل أخذ يداهن الملك عبدالعزيز وأهل نجد، الذين كان بالأمس يكفرهم. وفي يوم من الأيام جاء الملك عبدالعزيز -رحمة الله عليه- إلى المسجد الحرام، فوجد الشيخ حبيب الله والسيد أحمد السنوسي يملآن الأثر المسمى بموضع قدم إبراهيم بماء زمزم ويكرعان فيه بأفواههما كالبهائم؛ فوبخهما، وقال لهما: إذا كنتما تفعلان هذا وأنتما بزعمكما من العلماء، فماذا تركتما للجهال؟!

وحدث أنه كان ذات ليلة في مجلس الملك عبدالعزيز آل سعود، وكان الملك يتكلم في التوحيد، فعارضه؛ فغضب عليه الملك عبدالعزيز غضبًا شديدًا، فظنّ أنّ حتفه قد دنا؛ فتقدم إلى الملك وألقى نفسه بين يديه وأظهر التوبة والرجوع عما قاله وإنما فعل ذلك خوفًا أن يبطش به، ولم يكن الملك عبدالعزيز -رحمه الله- سريعًا إلى البطش، بل كان إذا غضب يقتصر على الكلام ولا يتجاوزه.

وعلى إثر ذلك أخذ زوجته إلى المدينة وتركها في بيت أخيه الشيخ محمد الخضر وهرب إلى مصر. وكانت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية في ذلك الزمان سيئة جدًا بسبب المحمل الذي كانت تبعثه الحكومة إلى مكة في كل سنة، وهو شيء كالهودج يطاف به في القاهرة ثلاثة أيام يتمسّح الناس به ويتبركون به ثم يُبعث مع الوفد المصري إلى مكة فيتمسح به الجهال أيضًا في جدة وفي الطريق إلى مكة، فأمر الملك عبدالعزيز -رحمه الله- بالمنع من التمسح به والإتيان به إلى مكة وأمر أن يُترك في جدة، وبعد الحج يرجع به الوفد إلى مصر، فرأى الوفد المصري أن ذلك إهانة له، وكانت كسوة الكعبة المشرفة يؤتى بها في مصر يحملها الوفد المصري كل سنة إلى مكة؛ فلما ساءت العلاقة بين المملكتين، استغنى الملك عبدالعزيز عن كسوة الكعبة التي كان يُؤتى بها من مصر، وطلب الصناع من الهند وأسّس دارًا بمكة لصنع الكسوة، فاغتنم الشيخ حبيب الله هذا الخلاف والتجأ إلى حكام مصر وشكا لهم ما أصابه من السعوديين، والحقيقة أنه لم يصبه شيء، فرحبوا به وجعلوه مدرسًا في الأزهر.

وفي سنة ١٣٤٥هـ توجهت من العراق إلى الحج بصحبة الشيخ مصطفى آل إبراهيم، ومررنا بالقاهرة وكان الشيخ حبيب الله مستقرًا بها، فعلمت أن شخصًا قال له: هل تعرف الهلالي؟ فقال: نعم أعرفه. فقال له: أهو من أهل العلم؟ فقال له: لا يصلح أن يكون جليسًا لأهل العلم، فكيف يكون من أهل العلم؟! فكتبت كتابًا إليه فقلت له فيه: بلغني أنك قلت كيت وكيت، وقد ناظرتك في مدرستك سنة ١٣٤١هـ من الظهر إلى العصر؛ كنت تناضل عن عقيدة أسلافك الأرذلين كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم، وكنت أناضل عن عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، فما وجدت فيّ بحمد الله ضعفًا ولا توانى وأنشدته في ذلك الكتاب أبياتًا أذكر منها قول الشاعر:

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيرِ طَائِلِ
وَأَنِّي شَقِيٌّ بِاللِّئَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمُ الشَّمَائِلِ

وقول المتنبي أيضًا:

وَيُظْهَرُ الْجَهْلُ بِي وَأَعْرِفُهُ الدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَه

وأبياتًا أخرى نسيتها وكتبت عليه عنوانه وهممت أنه ألقيه في صندوق البريد ليصل إليه ويشويه، ولكن أخانا السلفي الشيخ إبراهيم الوادنوني تلطّف وتحيّل، وقال لي: ناولني هذا الكتاب وأنا أبلغه إليه. فناولته إيّاه، وكان مقصوده أن يمنع وصوله إليه حتى لا يسوؤه؛ لأنه كانت بينه وبينه صداقة مع اختلافهما في العقيدة؛ فإن إبراهيم سلفي العقيدة، وحبيبًا قد علمت معتقده فيما مضى.

وبعد ذلك سافرت إلى الحجاز للحج، وكتب السيد رشيد رضا -رحمه الله- إلى الملك عبدالعزيز -رحمة الله عليه- يرغبه في إبقائي في المملكة ويقول له: إن محمدًا تقي الدين الهلالي من أفضل من أمّ بلادكم من أهل العلم. وبعد انقضاء الحج تهيأ الشيخ مصطفى آل إبراهيم ليرجع إلى العراق، فالتمست من إخواني الشيخ عبدالظاهر أبي السمح والشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وغيرهما أن يشفعوا لي عنده ليسمح ببقائي، وأكدت له أنني ما فارقته إلا بقصد البقاء في هذه البلاد المقدسة للتعاون مع إخواني على نشر العقيدة الصحيحة.

وكان الشيخ عبدالظاهر أبو السمح قد كتب إليَّ مرارًا يرغبني في التوجه إلى الحرمين والبقاء فيهما بعدما أصلح الله أحوالهما على يد الملك عبدالعزيز آل

سعود، وكنت في العراق أعيش أحسن معيشة، فقد كان الشيخ مصطفى آل إبراهيم قد أنشأ لي مدرسة وجعل لي راتبًا طيبًا وتزوجت، فجاهدت نفسي إلى أن أرغمتها على البقاء في مكة وترك ذلك كله، مع أني حتى ذلك الحين لم أوعد بشيء، وكان معي أخي محمد العربي الهلالي؛ ولما فارقني الشيخ مصطفى آل إبراهيم، سلم لي مقدارًا كبيرًا من الدراهم وقال لي: وزعه على العلماء وطلبة العلم السلفيين. فقلت في نفسي: أنا وأخي من طلبة العلم السلفيين أفلا يجوز لي أن آخذ لي ولأخي نصيبًا من هذا المال؟ ثم قلت لنفسي: إن المتبرع بهذا المال يعرفك ويعرف أخاك ويعلم أنكما محتاجان فلو أراد أن يجعل لكما نصيبًا منه لصرّح بذلك فالاحتياط والأخذ بالعزيمة يقضي بتوزيع المال كله وألا تأخذ لنفسك ولا لأخيك منه شيئًا؛ فوزعته كله ولم آخذ شيئًا.

وكنت مع الشيخ مصطفى آل إبراهيم في ضيافة الملك عبدالعزيز -رحمه الله- فلما سافر أقمت في الطبقة العليا من البيت الذي كان يسكنه الشيخ عبدالظاهر أبو السمح وتلك الطبقة مهجورة شديدة الحر، فجاهدت نفسي على الصبر على تلك الحال، وكان مأمور الضيافة يسكن في الطبقة الأرضية فكنت أمر عليه فأسلم فلا يرد عليّ السلام إلا في بعض الأحيان.

وفي يوم الجمعة أردت أن أغتسل للجمعة فذهبت إلى المستقى- ويسمونه البازان- وطلبت من سقاء أن يأتيني بصفيحتين من الماء بعدما كنست الحوض وأخرجت ترابه فلما جاء إلى البيت وعلم أنني أسكن في الطبقة الخامسة، امتنع حتى زدته في الأجرة وصارت نفسي توسوس وتقول: كيف تترك راتبًا طيبًا وبيتًا حسنًا وتترك أهلك وتصبر على هذه الحال؟ فأدفع هذا الوسواس بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣،٢].

فلما اغتسلت وتهيأت للذهاب إلى المسجد الحرام إذا بخادم مأمور الضيافة يطرق الباب ويقول: إن مأمور الضيافة يسلم عليك ويرجو أن تمرّ على مكتبه فنزلت إليه، فتلقاني بغاية البشاشة والحفاوة وقال لي: جاءني أمر هاتفي من القصر الملكي بأن أنزلك في الضيافة وأعتذر إليك في التأخير إلى ما بعد العصر، كما أرجو أن تتناول طعام الغداء بعد صلاة الجمعة معي وبعد صلاة العصر يكون كل شيء جاهزًا. فجاءني بعد صلاة العصر وذهبنا إلى دار الضيافة، وهي دار السقاف في محلة جياد فوجدت مسكنًا طيبًا مؤثثًا أحسن الأثاث ونزلت في الضيافة وانفرجت الأزمة.

وبقيت أربعة أشهر في الضيافة ثم قال لي الشيخ عبدالله بن حسن -رحمة الله عليه-: ما رأيك في أن تكون إمامًا وخطيبًا في المسجد النبوي؟ فقلت له: أقبل بشرط أن لا أنقص عن عشر تسبيحات في السجود والركوع. فقال لي: هذا كثير على الناس لا يتحملونه. فقلت: وأنا لا أقبل إلا بهذا الشرط. فقال لي: إذًا نعطيك عملًا آخر وهو مراقبة المدرسين في المسجد النبوي فقلت: قبلت. هذا مع أن الشيخ عبدالله بن حسن -رحمة الله عليه- حين سافرنا إلى المدينة كان يقدمني دائمًا إمامًا في الصلاة فهو رحمة الله عليه كان يستحسن ما اخترته من إتمام الركوع والسجود والاعتدال إلا أنه رأى أن عامة المصلين يشق عليهم ذلك، فالله يجزل ثوابه ويرحمه رحمة واسعة. سافرت إلى المدينة بصحبة الشيخ عبدالله بن حسن وكان معنا الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وقد عُيّن إمامًا وخطيبًا في المسجد النبوي بعد أن اعتذرت أنا عن قبول ذلك فأقمنا بالمدينة أيامًا.



إزالة بستان فاطمة

كانت في صحن المسجد النبوي بئر ونخلة وشجيرات، وكان الجهال يسمون ذلك بستان فاطمة، ويتبركون بالنخلة وتمرها وبالشجيرات والبئر، ويعتقدون أن بئر زمزم تجري تحت الأرض حتى تتصل بتلك البئر يوم عاشوراء من كل سنة، فيقبل الناس في يوم عاشوراء على تلك البئر ويأخذون منها ماءً كثيرًا للتبرك به فاستشارنا الشيخ عبدالله بن حسن -رحمة الله عليه- في طمّ البئر وإزالة البستان، فلم نتردد في الموافقة على ذلك؛ لأن المسجد كله وقف للصلاة ولا يجوز أن يُشغل بغيرها، ولأن الجهال يفتنون بماء البئر والنخلة والشجيرات، فكتب - رحمه الله - إلى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن -رحمه الله- يخبره بما رأيناه ويستأذنه في تنفيذه، فجاء الإذن فأمر الشيخ بطمّ البئر وقلع تلك الأشجار وتسوية الأرض، فكانت من حسناته رحمة الله عليه؛ ولما قُلعت النخلة والأشجار وقُطعت وحُملت إلى خارج المدينة انتظر المفتونون بها مجيء الليل بظلامه فأخذوها كلها ولم يبقوا شيئًا، ولا بد أن يكونوا قد اقتتلوا عليها لينال كل واحد منهم قطعة صغيرة من الأشجار وأوراقها.

وهنا نذكر شجرة (ذات أنواط) التي كانت للمشركين في الجاهلية ينوطون بها أسلحتهم ويتبركون بها، قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- في كتاب التوحيد: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما؛ ومضى إلى أن قال: وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبنّ سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه، قال شارحه الشيخ سليمان بن عبدالله -رحمة الله عليه- في شرح هذا الحديث ص١٥٠ ما نصه: «فإذا كان اتخاذُ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوفُ عندها اتخاذَ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف

بقبورهم وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب بها؟! وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا؟!

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: «فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البر والشفاء من قِبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها».

وقال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب البدع والحوادث: «ومن هذا القسم أيضًا ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق -صانها الله من ذلك- مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث». اهـ.

فماذا يقول أعداء التوحيد الذين يبغضون الموحدين ويسمونهم بالوهابية فهل كان أبو بكر الطرطوشي وعبدالرحمن أبو شامة أيضًا وهابيين!

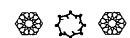
وبعدما استقررت في المدينة بعث حبيب الله الشنقيطي من مصر إلى المدينة رجلين ليأتياه بزوجته، أحدهما الشيخ إبراهيم المراكشي والثاني شنقيطي لا أعرف اسمه، والشيخ إبراهيم المراكشي مغربي استوطن القاهرة منذ زمان طويل، وهو رجل كريم ضيّفني مرارًا في بيته؛ فلما رأيته دعوته للغداء، فلما رجع إلى القاهرة كان من أعجب المصادفات أن العلاقة بين الشيخ إبراهيم الودنوني وبين حبيب الله الشنقيطي قد ساءت ووقعت بينهما وحشة فألقى الكتاب الذي أخذه مني في البريد، فوصل الكتاب مع وصول الرجلين اللذين بعثهما إلى المدينة، فظنّ حبيب الله أن إبراهيم المراكشي هو الذي جاء بالكتاب وألقاه في البريد فأخذ يلومه، ويقول: يا شيخ إبراهيم هذا قدري عندك تأتيني بكتاب يتضمن تكفيري من ذلك الجهول! فحلف إبراهيم المراكشي أيمانًا مغلظة أنه لم يأخذ مني كتابًا ولا سمع مني كلامًا في حقه فبم يصدقه، وحصل الغرض المطلوب؛ وهو جزاؤه على إساءته بإساءة مثلها.

العشاء في قصر الملك حسين

لما حججت الحجة الأولى سنة ١٣٤١هـ وجدت شيخًا من بلدنا بوابًا في قصر الملك حسين، ففرح بي كثيرًا ودعاني للعشاء وكان جملة حديثه لي أن قال: يا بني، إن هذه البلاد الشرقية فيها عجائب وغرائب، فكن على حذر من أهلها، فإنها ليست كبلادنا أهلها كلهم سنيون على مذهب إمامنا مالك، ففي هذه البلاد طائفة يقال لهم الوهابية يبغضون النبي ﷺ ولا يذكرون اسمه أبدًا، فيقولون: لا إله إلا الله مالك يوم الدين بدل أن يقولوا محمد رسول الله. فأظهرت له التعجب.

وفي سنة ١٣٤٥هـ لما كنت في الضيافة الملكية بحثت عنه حتى وجدته وضيفته وعرف حينئذ أنني من الطائفة التي حذرني منها فسكت ولم يقل شيئًا، وفي يوم من الأيام كان معي فقصدنا المسجد الحرام فوجدنا الشيخ عبدالظاهر أبا السمح -رحمه الله- جالسًا على الحصى، فجلست معه وجلس رفيقي فقال عند جلوسه: يا رسول الله. فقال له أبو السمح: قل يا الله. فقال: ما أقول إلا يا رسول الله يا رسول الله يا رسول الله، فاضرب عنقي إن قدرت. ثم قال لي: هذا فراق بيني وبينك، فإن صحبتك تجرّني إلى لقاء هؤلاء القوم وهرب ولم أره بعد ذلك.

فانظر إلى الجهلاء الذين يُسمّون بالعلماء كيف يُضلّلون العوام الجهال ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].



ملك الحجاز غير المتوج

هكذا كان يُسمّي السيدُ رشيد -رحمه الله- عميدَ السلفيين في الحجاز الشيخ محمد نصيف -بارك الله في حياته- وقد كان في تلك الأيام المظلمة سراجًا يضيء لمن ألهمه الله رشده طريق التوحيد واتّباع السنة، وكان بيته لا يخلو من الضيوف الواردين من جميع أنحاء الدنيا من أمراء البيت الهاشمي وبعد ذلك أمراء البيت السعودي إلى فقراء الحجاج من أهل الهند.. هكذا وجدته سنة ١٣١٤هـ ولا يزال كذلك إلى يومنا هذا، ومناقبه لا يفي بها إلا مؤلَّف خاص، وهو أشهر من أن يُعرف، ومع أنه كان متهمًا بالوهابية كان موضع احترام وإجلال من جميع الناس من الملك حسين وأبنائه إلى الطبقة السفلى من العامة؛ لأنه من أشرف بيوتات الحجاز، ولما آتاه الله من علوّ القدر والوجاهة والمهابة، وللسخاء العظيم الذي هو من أخص صفاته، وفي الحديث: «**السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة**»[1] وما أحسن قول الشاعر:

تَغَطَّ بِالسَّخَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ ... فَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

وقال آخر:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدَ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

ومع شدّة عداوة الملك حسين لمن يسميهم بالوهابيين كان يحجم عن الإساءة إلى هذا الرجل الكريم إلى أواخر أيام ملكه، فقبض عليه ونفاه من الحجاز إلى قبرص فسجن هناك وعزم على قتله، فانهالت عليه البرقيات من جميع أنحاء العالم تحذره من هذه الجريمة ومن جملة من حذره ابنه فيصل الأول وسائر أبنائه، وبعد سجن دام أربعين يومًا أطلق الله سراحه ليعود إلى خدمة العلم والدين وأعمال البرّ وبناء المكرمات.

---

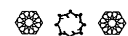
(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع.

وقد طفت كثيرًا في أنحاء العالم من المغرب الأقصى غربًا إلى كلكتا شرقًا ووصلت من جهة الشمال إلى الأراضي القطبية التي لا تغيب فيها الشمس مدة ثلاثة أشهر، فما رأيت أحدًا من العلماء والوجهاء منحه الله من خدمة العلم والعلماء وكرم الضيافة والبرّ والإحسان مثل ما لهذا الرجل، فهو بدون منازع عميد السلفيين في الحجاز بل وفي سائر أنحاء الدنيا، فكم طبع من كتب السنة والتوحيد ووزع منها الأعداد الوافرة في جميع أنحاء العالم، وكم له من أياد بيض على أهل العلم والفضل الذين يردون منهله العذب من جميع أقطار العالم في هذه المدة الطويلة، فنسأل الله أن يبارك في حياته ويزيده من فضله!!



عبد الرؤوف الصبان

من أفضل من لقيتهم من السلفيين الذين يوحدون الله ويتبعون رسوله ﷺ السيد عبدالرؤوف الصبان -رحمه الله- وكان مديرًا لشركة دبغ الجلود في مكة فقد أكرمني وأنزلني في بيته، وكنت مريضًا فأخذني إلى الطبيب ولم يزل يرعاني ببرّه وإحسانه إلى أن انتقلت وأنا مريض إلى جدة، فنزلت عند عميد السلفيين أطال الله بقاءه، وكان يخدمني بنفسه ويجبرني على شرب الحليب إلى أن شُفيت، ثم سعى لي في الحصول على الركوب في الباخرة مجانًا إلى بومباي في الهند، وفي تلك الأيام التي كنت عند الشيخ عبدالرؤوف الصبان، عرض عليه الأمير علي بن الحسين أن يتخذه كاتبًا له فاستشارني فنهيته؛ فلم يقبل نصيحتي وصار كاتبًا عند الأمير المذكور، وبعد مدة قصيرة وقعت الحرب بين الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وبين الملك علي بن الحسين بعد فرار أبيه إلى قبرص، فانهزم الملك علي بن الحسين وخرج من مكة ورافقه كاتبه الشيخ عبدالرؤوف الصبان، وبقي منفيًا معه سنين طويلة في أثنائها لقيته في بغداد فوجدته نادمًا على عدم قبول نصيحتي له.



السفر إلى الهند

بعدما شفيت من مرضي عرضت على أبي مثواي السيد محمد نصيف رغبتي في السفر إلى الهند للقاء علماء أهل الحديث، فسعى لي بواسطة القائم مقام في جدة السيد زينل في الحصول على تذكرة في الباخرة مجانًا من جدة إلى بومباي وسافرت منها إلى دلهي.

وكان الشيخ عبدالوهاب الدهلوي قد كتب لي كتاب توصية إلى عمه الحاج عبدالغفار في دلهي؛ فضيفني وأكرمني ولقيت النواب صدر الدين المدبر لشئون مدرسة (علي جان) ومسجده وكان عالمًا بالعربية وعلوم الدين فصيح اللسان بالتحدث بلغة الضاد، وكان المتحدثون بفصاحة اللغة العربية في ذلك الزمان في بلاد الهند في غاية القلة، فرحب بي واستحسن مقصدي وقال لي: إن تجولك في بلاد الهند للقاء العلماء والاطلاع على الكتب يحتاج إلى أمرين: أحدهما: الدراهم. والثاني: اللغة. وبدون هذين تتعب كثيرًا ولا تحصل على طائل، فأنا أقترح عليك أن تمكث عندنا هنا سنة تتعلم فيها شيئًا من اللغة الهندية وتحصل على شيء من المال، وفي أثنائها يستفيد من علمك تلامذة مدرستنا فإن الطلبة عندنا يدرسون كتب التفسير والحديث والأدب العربي نظمًا ونثرًا بالترجمة الهندية بلغة أردو من البداية إلى النهاية ويتخرجون في المدرسة (ولا تقل من المدرسة) ولم يقرع آذانهم كلام باللغة العربية فيعيشون بكمًا صمًّا يعتمدون على ترجمة الكتب لا على الكتب نفسها.

فقبلت هذا الاقتراح وأقمت في مدرسة (علي جان) فأمر النواب صدر الدين المتقدمين في العلم من الطلبة أن يحضروا دروسي فحضر عندي خمسة عشر طالبًا لا يزال أحدهم بقيد الحياة معروف مكانه، وهو الشيخ عبدالودود بن عبدالتواب الملتاني؛ وقد حج في السنة الماضية عام ١٣٩٠هـ ولقيته هنا بالمدينة.



حادثة عجيبة

قلت لأولئك الطلبة: ماذا تريدون أن أدرّسكم من كتب الأدب؟ فقالوا: نريد أن تدرسنا ديوان المتنبي. فبدأت أدرسهم ووجدت صعوبة في إفهامهم لأنهم كما قال النواب صدر الدين: لم يقرع آذانهم كلام عربي قط، وبعد أربعة أيام وصلنا إلى بيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة، وكانت النسخة التي نقرأ فيها مطبوعة في دهلي وفيها أخطاء فوجدنا فيها البيت هكذا:

أَتَـا لَهُ الْشَّـرَفُ الأَعْـلَى تُـقَـدُّمُـهُ فَـمَـا الَّذِي يَـتَـوَقَّـى مَـا أَتَـى نَـالَ

ففكرت في معنى الشطر الثاني من هذا البيت فلم أكد أفهمه فلما حضر الطلبة قلت لهم: هذا الشطر لم أفهمه وأظن أنه محرف، فأنكروا ذلك وقالوا: (توبة، أستغفر الله) وهاتان الكلمتان تستعملان في لغتهم عند الغضب والإنكار الشديد وقالوا لي: إن هذه النسخة التي في يدك درّسنا بها مولانا عبدالرحمن النكرامي مرارًا فلم يجد فيها خطأً، فيا لله للعجب أنت عربي وأديب وتعجز عن فهم كلام المتنبي مع أن أقل الأدباء علمًا عندنا يدرس ديوان المتنبي بدون مطالعة، والآن ظهر لنا صدق ما قال أستاذ الأدب مولانا عبدالرحمن النكرامي.

فقلت لهم: وماذا قال؟ قالوا: قال لنا اذهبوا إلى النواب صدر الدين وقولوا له إننا لا نفهم كلام هذا المدرس العربي ولا حاجة لنا بتدريسه. فقلنا له: نحن نستحي من النواب أن نقول له ذلك فقال لنا: اعلموا أن العرب في هذا الزمان كلهم جهال لم يبق عندهم من العلم شيء وإنما كان عندهم العلم في زمان النبي ﷺ وفي زمان السلف الصالح، أما اليوم فلا علم عندهم أما ترونهم كل سنة يأتون من مكة والمدينة ويتكففون الناس، فهل رأيتم منهم أحدًا من أهل العلم؟ يضاف إلى ذلك أن هذا العربي- يعنيني- شاب مجهول في الهند لا يعرفه أحد وشهادته لا تنفعكم، وأنا لا أعطيكم شهادة إذا تركتموني ودرستم عنده.

فقلت لهم: إن شئتم أن تحضروا درسي فاحضروا؛ وإن رأيتم أن درسي لا فائدة فيه

فانصرفوا إلى مولانا عبدالرحمن. فانصرف أحد عشر منهم وبقي أربعة لا لأنهم يعتقدون صحة ما قلت لهم من أن شطر البيت يمكن أن يكون محرفًا بل فضلوا سماع الكلام العربي ولو من مدرس قليل العلم وكان أحدهم عبدالودود المذكور.

فذهبت إلى النواب صدر الدين رحمه الله وذكرت له ما وقع، فقال لي: أنا أعرف علمك وأعرف علم الشيخ عبدالرحمن النكرامي وقد أردت لهم الخير؛ فإن أبوا فذرهم في ضلالتهم وأرجو أن تبقى في مكانك ولو لم يحضر عندك أحد منهم. وبقيت أربعة أيام أفكر في معنى ذلك الشطر فلم أفهمه وقال لي أحد الأربعة الباقين: إن الشيخ عبدالرحمن قال للطلبة: إن هذا الشطر واضح يفهمه كل أحد حتى الحمار، وقد رأيتم صدق ما قلته لكم.

وفي اليوم الخامس ذهبت إلى الشيخ عبدالرحمن النكرامي -رحمه الله- وأمامه حلقة كبيرة من الطلبة، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام فقلت: يا شيخ عبدالرحمن لم أفهم هذا الشطر وقد أخبرني الطلبة أنك تفهمه فأفهمني إياه، فقال لي كلامًا لا معنى له؛ فقلت له: أعربه من فضلك فبالإعراب يتبين المعنى فقال:

ما: موصولة، والذي: توكيد لها. ويتوقى: فعل مضارع فاعله ضمير مستتر تقديره: هو يعود على الأعداء في البيت قبله، وما: مفعول به، وأتى: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الممدوح، ونال: خطأ والصواب نالوا، فقلت له: إذا كانت ما موصولة يكون تقدير الكلام: الذي الذي. فقال: وأي شيء في ذلك؟ فقلت له: وفاعل «يتوقى» إذا كان يعود على الأعداء لم يصح ذلك؛ لأن قياس النحو يقتضي أن يكون واوًا، فيقال: يتوقون، وليس عندنا ضمير مستتر تقديره «هم» إلا في نحو قولنا: الرجال «قائمون»، ففي قائمون ضمير مستتر تقديره: «هم»، أما الفعل فلا يقدَّر فيه من ضمائر الغيبة إلا هو وهي.

قال لي: تريد أن تعتزر (يعني تعترض) على المتنبي؟ إنك لا تستطيع ذلك، فقد عكف أبو عليّ الفارسي على ديوان المتنبي يبحث عن خطأ فلم يجده، فقلت له: أنا لا أريد أن أعترض ولكن أريد أن أفهم، ومع ذلك فالمتنبي غير معصوم من الخطأ، فقد عيب عليه أبيات منها قوله:

جفخت وهم لا يَجْفَخُون بها بهم   شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ

فيه التعقيد، ومن ذلك قوله:

إنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُو كَائِنٌ   فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الإِسْلَامِ

فيه الركاكة وقبح البراءة من الإسلام لأمر مكذوب يريد به التملق، ومن ذلك قوله:

فَقَلْقَلْتَ بَالهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الحَشَا   قَلاقِلَ هُمْ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

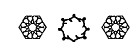
فيه من الركاكة والثقل على اللسان بتكرار حرف القاف ما لا يخفى علي فأعرض عني، وقال للطالب الذي كان يقرأ عليه: (تشالو). يعني استأنف القراءة فأصابني من الغم ما الله به عليم، ولم أكن قبضت شيئًا من المدرسة وما كان عندي إلا أربع وعشرون روبية؛ أي: درهمًا هنديًا، فعزمت على شراء شرح ديوان المتنبي للعُكْبَري لأعرف أين يكمن سر عدم فهمي لذلك الشطر أهو في جهلي أم في الخطأ الواقع في الطبعة الهندية؟ فسألت أحد الطلبة عن لفظ السؤال عن المطبع المجتبائي بلغة أردو فلقنني إياه، فذهبت أسأل إلى أن وصلت فسألت صاحبه عن شرح العكبري لديوان المتنبي، فقال لي: النسخة الأخيرة اشتراها مني طالب من مدرسة كذا وكذا فذهبت إلى تلك المدرسة ووجدت الطالب، الذي اشترى النسخة فوجدت البيت هكذا:

أَنَا لَهُ الشَّرَفُ الأَعْلَى تُقَدِّمُهُ   فَمَا الَّذِي بِتَوَقِّي مَا أَتَى نَالُوا؟

فظهر أنني كنت مصيبًا وأن الشطر كان محرّفًا، والطامة الكبرى كانت في زيادة نقطة بلفظ (بتوقي) الذي هو جار ومجرور فصار (يتوقى) فعلًا مضارعًا، وظهر أن الشيخ عبدالرحمن لم يفهم منه شيئًا، فإن (ما) التي زعم أنها موصولة ليست موصولة، بل هي استفهامية. و(يتوقى) الذي اخترع له فاعلًا وجعله ضميرًا مستترًا تقديره هو ليس فعلًا، وإنما هو جار ومجرور.

فنقلت البيت على الوجه الصواب وما قاله العكبري في شرحه.

ومعنى البيت: (تقدُّمُ سيف الدولة في الحروب وهزيمته لأعدائه أكسبه الشرف الأعلى، فما الذي ناله أعداؤه بتوقيهم وإحجامهم عن فعل ما أتاه من ذلك؟ الجواب نالوا الخزي والعار) فانطلقت إلى الشيخ عبدالرحمن النكرامي وهو يدرس وكان لا يفتر على التدريس طول النهار، فسلمت عليه فردّ عليَّ السلام وقلت له: أيها الشيخ إنك قلت للطلبة: إن هذا الشطر يفهمه كل أحد حتى الحمار وقد ظهر أنك لم تفهمه وناولته الصحيفة وقلت له: اقرأ ما قاله العكبري في شرحه فقرأه ثم ناولني الصحيفة وقال للطالب الذي كان يقرأ عليه: (تشالو) فهجرته ثلاثة أيام، وهجوته بقصيدة لا أريد أن أذكر منها هنا شيئًا، فكان خيرًا مني؛ لأنه بعد ثلاثة أيام بدأني بالسلام.



التجول في الهند

بعدما مضت على وصولي إلى دهلي ستة أشهر جاء شهر رمضان وهو وقت تعطيل في مدارس أهل الحديث بالهند، وكنت قد جمعت شيئًا من المال وكانت عندي نسخة من عون المعبود شرح سنن أبي داود تأليف جماعة من العلماء أهل الحديث منهم شيخنا عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري كما أخبرني هو - رحمه الله- بذلك، ولا تصح نسبته إلى شخص واحد وإن كان الشيخ شمس الحق العظيم آبادى هو الذي كان ينفق على أولئك الجماعة زمان تأليفه ويشاركهم في العمل، بعثه بسبع عشرة روبية فتوجهت من دهلي إلى (لكناو) وفيها لقيت الشيخ محمد بن محسن اليمني الأنصاري، فقرأت عليه أطرافًا من الكتب الستة، وأخذت عنه الإجازة في جميع مروياته عن أبيه عن آل الأهدل. ثم توجهت إلى بنارس ولقيت فيها الأديب الشيخ عبدالمجيد الحريري الحاصل على شهادة ماجستير من جامعة (علي كره) ففرح بي فرحًا عظيمًا والتمس مني أن أبقى عنده ليستفيد من علمي وعرض عليَّ راتبًا أكثر مما كنت آخذه في مدرسة (علي جان) وتكفل بجميع ما يلزمني من السكنى والمعيشة فوعدته خيرًا. وتوجهت إلى مدينة (مو) ولقيت العالم الجليل الشيخ محمد أحمد ومنها توجهت إلى مبارك فور بقصد لقاء العالم الجليل الورع النبيل خاتمة المحققين في تلك النواحي الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري فأقمت عنده مدة يسيرة قرأت عليه فيها أطرفًا من الكتب الستة وثلاثيات البخاري وعارضت معه موضع من كتابه القيم (تحفة الأحوذي) في شرح جامع الترمذي والتمس مني أن أنظم قصيدة في تقريظه فنظمتها وتركتها عنده فأدرجها في آخر المجلد الرابع، وكنت قد طبعت أربع قصائد في دهلي سميتها الهاديات تقدمت إحداها وهي الميمية التي مطلعها:

مَنْ فاته المصطفى المختار من مضر ... إلخ.

وسأدرج هنا قصيدة أخرى منها. فنقل شيخنا المذكور في مقدمة تحفة الأحوذي

إحدى القصائد الأربع وهي تخميس قصيدة حميد القرطبي التي أنشدها القسطلاني في مقدمة شرحه للبخاري ومطلعها:

نُورُ الْحَدِيثِ مُبِينٌ فَادْنُ وَاقْتَبِسِ وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحْوَ الرِّضَى النَّدَسِ[١]

إلا إنه لم يسمّني بل قال: وقال بعض الأعلام مخمّسًا هذه القصيدة ولقيت منه من الإكرام ما أعجز عن وصفه، بل أسأل الله أن يكافأه على ذلك في جنات عدن مع الذين أنعم الله عليهم مع أني أدعو له في كل صلاة.

ورأيت من زهده في الدنيا وتواضعه وحسن خلقه ما يفوق الوصف فقد كان يقضي أوقاته كلها في خدمة العلم تدرسيًا وتأليفًا وإفتاء، ودعاه الدهلويون حين عزموا على تأسيس دار الحديث في مكة -شرفها الله- إلى أن يكون رئيسًا فيها فأبى، ودعاه غيرهم من أصحاب المدارس فأبى، وكان لا يعيش إلا مما يكتسبه من العلاج لأنه كان طبيبًا حاذقًا، وكان لا يشتغل بالطب إلا من بعد صلاة العصر إلى المغرب.

وذكر مناقبه يفضي بي إلى التطويل الذي يجعل طبع الكتاب صعبًا، ولكن لا بد أن أذكر مكرمة له لا أستطيع تركها وذلك أنه حتم عليَّ في تلك المدة أن لا آكل إلا عنده، ولما عزمت على السفر قال لي: لا تسافر في السكة الحديدية إلى مدينة أعظم كرفان ذلك يشق عليك فهنا اثنان من أصحابنا يسافران على عربة تجرها الخيل في وسط الليل، فأردت أن أودعه فقال لي: لا بد أن أخرج لوداعك، وأصر على ذلك فقام في نصف الليل وذهب معي إلى المكان الذي فيه العربة، فوضع في كفي قرطاسًا وضم يدي عليه وقال لي: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، زودك الله التقوى ويسر لك الخير حينما توجهت، وظننت أن القرطاس ورقة مالية فوضعتها في يده وضممتها وقلت له: لست في حاجة فأخذ بيدي إلى أن بعدنا عن الرجلين وبكى بكاءً شديدًا وهو يقول: اقبل مني اقبل مني. فاقشعر جلدي، وندمت على ما فعلت. وقبلت تلك الورقة، وتأثرت بما رأيته من بكائه حتى أني حين طلع الفجر صليت الصبح إمامًا بالرفيقين فبكيت كثيرًا في أثناء القراءة، فالله يرحمه رحمة واسعة.

---

(١) النَّدَسُ: الفطنة والكياسة.

وهذه القصيد التائية في صفة رحلتي من المغرب إلى الهند:

خَلِيلَيَّ عَوجَا بِي إِلَى كُلِّ نَدْوَةٍ ... بِهَا قَوْلُ خَيْرِ الرُّسْلِ يُرْوَى بِقُوَّةِ
وَلَا تَقْرَبَا بِي مَجْلِسَ الرَّأْيِ إِنَّهُ ... ضَلَالٌ يَحُطُّ لِتَابِعِيهِ بِهُوَّةِ
عَلَى مَجْمَعٍ فِيهِ كِتَابُ إِلَهِنَا ... يُفَسَّرُ تَفْسِيرًا بِعِلْمٍ وَحِكْمَةِ
لَدَى ثُلَّةٍ قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُمْ ... وَخَصَّهُمُ بِالْهُدَى أَفْضَلَ نِعْمَةِ
فَصَانُوا كِتَابَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ ... عَنِ اللَّغْوِ وَالتَّحْرِيفِ أَسْوَأَ بِدْعَةِ
وَرَدُّوا افْتَرَاءَ الْخَلْف مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ... وَقَدْ فَرَّقُوا مِنْ شُؤْمِهِم خَيْرَ شِرْعَةِ
وَأَصْلَوْهُمُ حَرْبَ الْفِرِنْجِ بِهِمَّةٍ ... كَسَيْفٍ صَقِيلٍ فِي مَضَاءٍ وَلَمْعَةِ
إِلَيهِم أَجُوبُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ آوِيًا ... لأَنْظُرَ مَنْ فَازُوا بِنُورٍ وَنَظْرَةِ
وَأَقْبِسُ مَنْ أَنْوَارِهِمْ عِلْمَ سُنَّةٍ ... وَذَلِكَ قَصْدِي فِي اغْتَرَابِي وَهِجْرَتِي
وَأَبْعُدُ عَنْ أَهْلِ الْبَدَائِعِ وَالْخَنَا ... وَأُدْرِكُ رُوحًا مِنْ عَنَائِي وَغُرْبَتِي
وَلَيسَ مُرَادِي غُرْبَةَ الْبُعْدِ وَالنَّوَى ... وَلَكِنَّهَا فِي الدِّينِ أَعْظَمُ كُرْبَةِ
وَلَمَّا أَبَانَ اللهُ لِي نُورَ دِينِهِ ... وَأَنْقَذَنِي مِنْ طُرْقِ أَصْحَابِ خِرْقَةِ
أُولَئِكَ قَوْمٌ بَدَّلُوا الدِّينَ بِالرَّدَى ... وَقَدْ مَرَقُوا مِنْ هَدْيِهِ شَرَّ مِرْقَةِ
وَأَبْغَضَنِي الأَقْوَامُ حِينَ نَبَذْتُهُمْ ... وَمِلْتُ إِلَى قَفْوِ الْكِتَابِ وَسُنَّةِ
وَقَدْ قَلَبُوا ظَهْرَ الْمِجَنِّ وَخُشِّنَتْ ... صُدُورُهُمْ لِي وَاسْتَعَدُّوا لِمِحْنَتِي
وَقَدْ زَعَمُوا هَجْرِي وَشَتْمِيَ قُرْبَةً ... وَكُلُّ جَلِيسٍ لِي سَيُرْدَى بِسُرْعَةِ
وَقَدْ جَزَمُوا أَنِّي أَمُوتُ عَلَى الرَّدَى ... وَأَخْلُدُ فِي النِّيرَانِ مِنْ أَجْلِ رَجْعَتِي
أَمَانِي حُمْقٍ تُضْحِكُ الثَّاكِلَ الَّتِي ... بِوَاحِدِهَا سَارَتْ رِكَابُ الْمَنِيَّةِ
نَبَذْتُهُمُ نَبْذَ النَّوَى وَتَرَكْتُهُمْ ... وَهَاجَرْتُ كَيْ أَحْظَى بِسُؤْلِي وَمُنْيَتِي
وَمَا لِي وَلِيٌّ أَوْ رَفِيقٌ مُصَاحِبٌ ... وَلَا نَاصِرٌ إِلَّا إِلَهُ الْبَرِيَّةِ
عَلَيْهِ اعْتِمَادِي لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَا ... هُ فَهْوَ قَدِيرٌ أَنْ يَجُودَ بِبُغْيَتِي
وَمَا أَطْلُبُ الْمَالَ الَّذِي هُوَ زَائِلٌ ... سِوَى بُلْغَةٍ لا بد مِنْهَا لِخِلَّتِي

سَافَرْتُ إِلَى مصرَ لأَخْبُرَ خَبْرَهَا   وَأَنْظُرَ هَلْ فِيهَا شِفَاءٌ لِعِلَّتِي

وَمِنْ قَبْلُ قَدْ أُخْبِرْتُ أَنْ فِي رُبُوعِهَا   رِجَالًا لِنَصْرِ الدِّينِ أَصْحَابَ شِدَّةِ

وَصَلْتُ فَلَمْ أُلْفِ سِوَى أَهْلِ بِدْعَةِ   وَشِـرْكٍ وَإِلْحَـادٍ وَشَـكٍ وَرِدَّةِ

سَمِعْتُ بِهَا الإِلْحَادَ يُعْلَنُ جَهْرَةً   بِجَامِعَةٍ لِلشَّرِّ مَعَ كُلِّ فِتْنَةِ

رَأَيْتُ بِهَا الأَوْثَانَ تُعْبَدُ جَهْرَةً   قُبُورًا عِظَامًا نَاخِرَاتٍ أَجِنَّتِ

وَيَدْعُونَ دُونَ اللهِ مَنْ لَا يُجِيبُهُمْ   وَهُمْ عَنْ دُعَاءِ الْقَوْمِ فِي عِظْمِ غَفْلَةِ

لَهُمْ جَعَلُوا قِسْمًا بِمَالٍ وَلِدَّةِ   فَلَا عَاشَ مَنْ قَدْ ظَنَّهُمْ أَهْلَ مِلَّةِ

حَشَا ثُلَّةٍ مُسْتَضْعَفِينَ رَأَيْتُهُم   تَسُومُهُمُ الأَعْدَاءُ سُوءَ الأَذِيَّةِ

وَهُمْ صُبُرٌ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ   وَيَدْعُونَ مَا اسْطَاعُوا لِبَيْضَا نَقِيَّةِ

وَمَا صَدَّهُمْ إِيذاؤهُم عَنْ جِهَادِهِمْ   لأَنَّهُمُ أَهْلُ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ

أَقَمْتُ بِهَا عَامًا إِلَى اللهِ دَاعِيًا   فَأَرْشَدَ رَبُّ النَّاسِ قَوْمًا بِدَعْوتِي

يُعَدُّونَ بالآلافِ في الريرمونِ كُلْ   لُهُمْ أَهْلُ إِخْلاص وأهل فُتُوَّةِ

وَمِنْ بَعْدِ ذَا سَافَرْتُ لِلحَجِّ رَاجِيًا   قَبُولًا مِنَ اللهِ الْكَرِيمِ لِحَجَّتِي

فَأَتْكَكْتُهُ وَالْحَمْدُ للهِ سَائِلًا   مِنَ اللهِ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ الْمَحَجَّةِ

وَكُنَّا سَمِعْنَا أَنَّ بِالْهِنْدِ فِرْقَةً   عَلَى السُّنَّةِ الغَرَّاءِ بِصِدْقٍ وَحُجَّةِ

فَقُلْتُ عَسَى مَنْشُودَتِي عِنْدَهُمْ تُرَى   وَهَزَّتْنِي الأَشْوَاقُ أَيَّةَ هِزَّةِ

بَلَغْتُ فَأَلْفَيْتُ الْمخَبَّرَ صَادِقًا   وَشَاهَدْتُ سِنَّاتٍ تَجَلَّتْ بِعِزَّةِ

قَدِ اخْتَرْتُ دِهْلِي لِلإِقَامَةِ إِنَّهَا   بِلَادُ عُلُومِ الدِّينِ فِيهَا تَسَنَّتِ

وَقَدْ شُفِيَتْ نَفْسِي وَزَالَ سَقَامُهَا   غَدَاةَ رَأَتْ عَيْنِي مَسَاجِدَ سُنَّةِ

فَلا تَسْمَعَنْ فِيهَا سِوَى قَالَ رَبُّنَا   وَقَالَ رَسُولُ اللهِ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

لَقَدْ مَثَّلُوا خَيْرَ الْقُرُونِ لِنَاظِرِ   بِقَوْلٍ وَفِعْلٍ وَاجْتِهَادٍ وَنِيَّةِ

إِمَامُهُم خَيْرُ الأَئِمَّةِ كُلِّهِمْ   عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَزْكَى تَحِيَّةِ

تمت

السيد سليمان الندوي

السيد سليمان من أكابر علماء الهند ورؤسائهم في ذلك الزمان، وكان يدير شؤون مؤسستين عظيمتين: إحداهما: دار المصنفين التي أسسها هو بنفسه واختار نخبة من ذوي الكفاءة والمقدرة على تصنيف الكتب وطبعها، ومن أهمها التاريخ الذي بدأ تأليفه أستاذه الشيخ شلبي النعماني، واستمر هو في تكميله وهو من أحسن كتب التاريخ حسب ما شهر بذلك عند علماء الهند وأنا لم أقرأه لأنه بلغة أردو ومعرفتي بها ضعيفة.

والمؤسسة الثانية كلية ندوة العلماء التي تخرج فيها هو وغيره من الأدباء والعلماء، وقد أسسها قبل ذلك بزمان طويل ثلاثون رجلًا من كبار علماء الهند، ووضعوا لها مناهج الدراسة ليتخرج فيها رجال قادرون على الدعوة إلى دين الحق الإسلام، ولا تزال هذه المؤسسة سائرة في طريقها إلى الآن، وعلماؤها حنفيون كأكثر علماء الهند، وكان ساعد السيد سليمان الأيمن في تدبير شؤونها الدكتور عبدالعلي -رحمة الله عليه- والذي يتولى تدبير شؤونها في الوقت الحاضر هو تلميذي الأستاذ أبو الحسن علي الندوي أخو الدكتور عبدالعلي، وهو مشهور في البلاد العربية بتآليفه وخطبه التي ألقاها في أمهات البلدان العربية.

أقمت عند السيد سليمان الندوي أيامًا كنت ضيفه فيها وأكرمني غاية الإكرام، ثم توجهت إلى (بهريا) للقاء العالم الأديب الشاعر البليغ الشيخ عبدالحميد الفراهي وكانت له مدرسة كبيرة يعلم فيها علوم الإسلام واللغة العربية، ففرح بي وأكرمني والتمس مني أن أكون مدرسًا في مدرسته، وعرض علي راتبًا طيبًا مع السكنى والمعيشة، فاعتذرت له بأني وعدت الشيخ عبدالمجيد الحريري في بنارس أن أقيم عنده.

ثم سافرت إلى كلكتا وهي قاعدة بلاد بنكال، ولقيت بها نابغة الهند في العلم والأدب والسياسة أبا الكلام آزاد، فرحب بي وبقيت في ضيافته بإلحاح منه خمسة عشر يومًا، وكان له كاتب اسمه عبدالرزاق المليح آبادي هو الذي يحرر صحيفة عربية كان ينشرها أبو الكلام، فالتمس مني أبو الكلام أن أنشر فيها ما يتيسر من

المقالات فنشرت فيها ثلاث مقالات في أخبار البربر وأحوالهم ولغتهم، وكان أبو الكلام لا يفرق بين البربر الذين هم أمة عظيمة في المغرب تمتد الأراضي التي يسكنونها من حدود مصر شرقًا إلى حدود سنغال غربًا، وتشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا كما تسمى هذه البلدان في هذا الزمان، لا يفرق بين هذه الأمة وبين سكان (بربرة) في السودان فأخبرته بالفروق الكثيرة التي بين الفريقين واهتم بذلك كثيرًا. فإن قيل: إن الناس في المشرق العربي يعتقدون أن هذه البلدان عربية فكيف جعلتها بربرية؟ فالجواب أن سكان هذه البلدان الأصليين هم البربر، وقد نزح إليها العرب في أول الفتح الإسلامي، وفي القرن السادس الهجري كما في مقدمة ابن خلدون عند ذكر بني هلال وبني عامر، وهؤلاء العرب النازحون عددهم قليل جدًا بالنسبة إلى السكان الأصليين، ولكن الإسلام وحَّد بينهم وجعلهم أمة واحدة لا فضل لأحد الفريقين على غيره إلا بتقوى الله، وبطول الزمان انتشرت اللغة العربية في هذه البلدان، فصارت أكثر الحواضر تتكلم بها، وعلى هذا يصح أن نسميهم عربًا مستعربة، ولكن إلى هذه الساعة لا يزال نحو نصف سكان هذه البلدان يتكلمون بالبربرية، والخطب في ذلك سهل فإن البربر من الشعوب التي خرجت من جزيرة العرب قبل زمان سحيق في القدم، ونحن - معشر طلبة علم اللغات - لا نشك في ذلك كما أن الواحد نصف الاثنين ولذكر الأدلة على ذلك مقام آخر.

وكان عبدالرزاق المليح آبادي زنديقًا وكان يعظم جمال الدين الأفغاني ويزعم أنه كان ملحدًا ولا يعظم رفيقه محمد عبده ولا صاحبه السيد رشيد رضا، لأنهما بزعمه لم يفهما فلسفته؛ لأنها أعلى من مستواهما، وقد جادلته في ذلك، وكثير من الناس في هذا الزمان يرون هذا الرأي، ولكن أقرب الناس إليه محمد عبده ورشيد رضا يشهدان بأنه مؤمن، وكتبه التي ألفها وخصوصًا رسالته في الرد على الدهرية لا تبقي شكًا في أنه كان من المؤمنين.

ومن أعجب ما سمعته من عبدالرزاق الميلح آبادي أننا كنا نتجادل في تارك الصلاة، أهو مسلم أم كافر؟ واستعرضنا أدلة العلماء وخلافهم في ذلك، فقال لي: عندي دليل قاطع لا يعرفه العلماء الذين ذكرت على أن تارك الصلاة مؤمن. فقلت: وما هو؟ قال لي: هو أنا؛ لأنني لا أصلي ومع ذلك لا أشك في أنني مسلم. ثم رجعت إلى بنارس وأقمت عند الشيخ عبدالمجيد الحريري ضيفًا مكرمًا وأستاذًا

محترمًا مدة ثلاثة أشهر، ثم سافرت إلى (عظيم آباد) ولقيت الشيخ إدريس بن شمس الحق، فأطلعني على خزانة كتب والده وأكرمني، وزرت خزانة كتب (خدا بخش) بتلك المدينة، فرأيت في الخزانتين كتبًا نفيسة، منها: كتاب الاستذكار شرح الموطأ لابن عبدالبر، ومنها: كتاب الأحكام الكبرى لعبدالحق الإشبيلي.

ثم سافرت إلى (لكناو) ونزلت عند الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري واليمني ففرح بي وأكرمني وأخبرته بأني أريد لقاء والده الشيخ محمد حسين في بهوبال، فكتب إلى والده بذلك فأجابه بأنه يستحسن أن أنزل في ضيافة ملكة بهوبال، وقصد بذلك إكرامي، فقال لي الشيخ خليل: ابعث برقية إلى الكولونيل عبدالقيوم أمير الضيافة، فبعثتها إليه، وركبت القطار في الدرجة الثالثة التي كنت دائمًا أسافر فيها؛ لأن أجرة الركوب فيها رخيصة، ولو ركبت الدرجة الثانية لما أمكنني أن أرى إلا قليلًا من البلدان، وأنا شاب لا يهمني تحمل المشقة.

فلما وصل القطار إلى محطة بهوبال، كانت سيارة ملكية تنتظرني أمام عربات الدرجة الثانية، فلم يجدني فيها الكولونيل عبدالقيوم، فبحث عني فوجدني من ركاب الدرجة الثالثة فرحب بي وركبت السيارة الملكية، ووصلت إلى دار الضيافة ووجدت أثاثها في غاية الفخامة والزينة، ثم توجهت إلى شيخنا محمد بن حسين بن محسن في بيته ففرح بي كثيرًا وبدأت أذاكره في علم الحديث، وكنت ألازمه في كل وقت إلا في أوقات الطعام فإني كنت أذهب إلى دار الضيافة، وأقمت على ذلك خمسة أيام وعينت الملكة يومًا لزيارتها، وقبل ذلك اليوم بيوم واحد جاءني الكولونيل عبد القيوم وقال لي: إن الملكة تسلم عليك وتعتذر عما وعدت به من اللقاء، وقد أمرتني أن أنقلك من دار الضيافة إلى بيتي وأكون في خدمتك مدة إقامتك في بهوبال.

فقلت: له أمهلني حتى أخبر بهذا شيخنا محمد بن حسين فركبت معه السيارة إلى بيته فوجدته قد عرف الخبر وقال لي: إني حين طلبت من الملكة أن تكون ضيفها لم أفعل ذلك بخلًا ولا عجزًا، وإنما أردت أن أكرمك وأكرم العلم الذي أنت طالبه، ولكن أعداءنا من متعصبة الحنفية ذهبوا إلى الملكة وقالوا لها: إن هذا الرجل العربي الذي في ضيافتك ليس من سكان جزيرة العرب، بل هو مغربي، ومن الشروط التي شرطها عليكِ الإنكليز أن لا تجتمعي بأي شخص ينتمي إلى دولة أجنبية، ولا يخفى عليك أن المغرب تابع للدولة الفرنسية ففي لقائه خطر عليك.

وقال الشيخ الكولونيل عبدالقيوم: جزاك الله خيرًا على استعدادك لضيافة محمد تقي الدين الهلالي وجزى الله الملكة خيرًا على قصدها الحسن وإكرامها لأهل العلم، وجزى الله الوشاة شرًا؛ فهذا الرجل محمد تقي الدين طالب علم لا علاقة له بأي دولة إلا أن بلده المغرب تسلطت عليه دولة أجنبية ففرضت عليه حمايتها كما فرضت بريطانية حمايتها على بهوبال.

وبقيت عنده خمسة عشر يومًا، ثم سافرت قافلًا إلى (لكناو) فزرت خزانة كتب الشيخ عبدالحي اللكناوي العالم الحنفي المشهور ذي التآليف الكثيرة في الحديث والفقه باللغة العربية، فوجدت فيها كنزين ثمينين أحدهما خمسة أسفار من مصنف ابن أبي شيبة وأول ما وقع بصري فيه عليه حديث موقوف رواه ابن أبي شيبة بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الخوارج: أكفار هم؟ فقال: لا، من الكفر فروا. والكنز الثاني هو كتاب التقاسيم المعروف بصحيح ابن حبان، وكلا الكتابين لم يطبع إلى الآن فيما علمت، ومن (لكناو) سافرت إلى دهلي ثم إلى بومباي بقصد الرجوع إلى المغرب مارًا بالعراق فالشام فمصر، ووصلت إلى مدينة بومباي فنزلت عند العالم الصالح الشيخ شرف الدين الكتبي -رحمة الله عليه- وأقمت في بومباي شهرين دخلت في أثنائها المستشفى وأجري لي عمل جراحي غير ناجح في عيني اليسرى وكان الشيخ شرف الدين -رحمه الله- في تلك المدة يغمرني ببرّه وإحسانه.



لقاء الشيخ مصطفى آل إبراهيم

بينما أنا جالس في مكتب الشيخ شرف الدين -رحمه الله- إذا بشاب أقبل في سيارة فخمة، وكانت السيارات في ذلك الزمان قليلة، ودخل المكتب وعليه بزة فاخرة من الثياب وروائح العطر تفوح منه، وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره فقام له الحاضرون كلهم وعظموه وتنافسوا في التقرب إليه وإطلاعه على ما طبع حديثًا من الكتب، أما أنا فبقيت جالسًا على كرسي أطالع كتابًا ولم أعبأ بمجيئه.

فلما جلس واطلع على ما وجد من الكتب، سأل الشيخ شرف الدين وكان يعلمه الأدب العربي عن قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ على أي شيء نصبت ﴿حَمَّالَةَ﴾ مع أن الظاهر يقتضي أن تكون مرفوعة لأنها صفة لامرأته، فقال الشيخ شرف الدين: أنا لا أجيبك بحضور الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي لأنه أعلم مني بالجواب. فحينئذ سلم عليَّ الشيخ مصطفى وسألني عن حالي وبلدي فأخبرته أني من المغرب فقال لي: ما تقول في جواب السؤال الذي سمعت؟ فقلت له: هذه الكلمة تُرفع وتنصب ورفعها ونصبها قراءتان سبعيتان، أما الرفع فواضح، وأما النصب فبفعل محذوف وجوبًا تقديره أذم، فطلب تفسير البيضاوي فوجد الأمر كما ذكرت له فأعجبه ذلك واستمر يسألني عن مسائل مختلفة مدة ساعة، ثم قال للشيخ شرف الدين: أتريد أن تركب معي لأوصلك إلى بيتك؟ قال: نعم.

وفي صباح الغد قال لي الشيخ شرف الدين: إن ذلك الشاب الذي كان هنا أمس سألني عنك فأخبرته أنك تريد السفر إلى العراق ثم إلى الشام ثم إلى مصر ولكن السفارة الإنكليزية رفضت إعطاءك سمة الدخول إلى العراق، لأن بريطانيا كانت في ذلك الوقت في نزاع مع الحكومة التركية على لواء الموصل فكانت لا تأذن لأحد في زيارة العراق إلا إذا كان معروفًا عندها بولائه لها فقال له الشيخ مصطفى: قل له: أنا أستطيع أن آخذه إلى العراق بدون جواز سفر فإن شاء أن يقيم عندنا بالبصرة لنستفيد من علمه فذلك ما نبغي، وإن أراد السفر إلى الشام أو مصر سهلت له طريقه إلى أن يصل إلى مقصوده، فقلت للشيخ شرف الدين: أنا موافق كل الموافقة.

وبعد ذلك ببضعة أيام كنت سائرًا في أحد شوارع بومباي يرافقني عبدالله ابن قاضي شقراء وهي بلدة مشهورة في نجد، فمر بنا الشيخ مصطفى آل إبراهيم في سيارته فوقف ونزل من السيارة وأقبل عليَّ وصافحني، وسأل عن الحال ببشاشة وقال لي: هل أخبرك الشيخ شرف الدين. بما اقترحت عليك؟ فقلت: نعم وأنا موافق على ذلك؛ فعين لي يوم السفر، وقال لي: في صباح اليوم الفلاني أجدك في مكتب الشيخ شرف الدين ثم رجع إلى سيارته وركبها، فقال لي عبدالله: يا عجبا! كيف عظمك الشيخ مصطفى آل إبراهيم كل هذا التعظيم وعندنا هنا الشيخ عبدالرحمن القصيبي وهو مثله في الغنى والجاه لو رأى وهو في سيارته عالمًا من علماء نجد ثم دعاه ليكلمه وهو جالس في سيارته لأقبل ذلك العالم يسعى إليه فرحًا مسرورًا؟ فحكيت له قصة لقائي للشيخ مصطفى وأنني حين جاء لم أقم له ولم أهتم به فلذلك عظمني، وقلت له: إن من عادتي أن لا أعظم غنيًّا إلا إذا كنت أستفيد من غناه بخلاف ما عليه أكثر الناس الذين يعظمون الأغنياء وإن كانوا يعلمون أنهم لا ينفعون بشيء كما قال ابن دريد في المقصورة:

عَبِيدُ ذِي الْمَالِ إِنْ لَمْ يَطْمَعُوا ... مِنْ مَالِهِ فِي شَرْبَةٍ تَرْوِي الصَّدَى

وقال غيره:

إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَأْ ... قَالُوا أَصَبْتَ وَصَدَّقُوا مَا قَالَا
وَإِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا كُلُّهُمْ: ... أَخْطَأْتَ يَا هَذَا وَقُلْتَ ضَلَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الأَمَاكِنِ كُلِّهَا ... تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً ... وَهِيَ السِّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

وقال غيره:

يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ ... وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ ... يَرَى الْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا غِنْيَةٍ ... أَصْغَتْ إِلَيهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا مَاشِيًا ... نَبَحَتْ عَلَيهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا



السفر إلى العراق في الباخرة

لما حان وقت السفر، جاءني الشيخ مصطفى، فتوجهنا إلى المرسى لنركب الباخرة إلى البصرة، فقال لي: إن عندي سبعة من الخدم، وقد بعثت أحدهم مع السفن الشراعية التي لا يحتاج راكبها إلى جواز، فإذا صعدت سلم الباخرة وسألك الإنكليزي ما اسمك، فقل: اسمي حسن الحنيان. فقلت له: عفوًا أنا لا أكذب، فضحك كثيرًا وقال لي: أنت عربي تريد أن تسافر إلى بلد عربي وقد منعك الإنكليز من حقك فأي حرج عليك إذا كذبت عليهم لتتوصل إلى حقك؟ فقلت له: لم ينشرح صدري لذلك؛ فقال لي: هل تستطيع أن تسكت إذا سألك الإنكليزي؟ فقلت: نعم. فقال: إذا سألك الإنكليزي فاسكت وأنا أجيب عنك، فلما صعدنا السلم تقدم هو وأنا خلفه فسألني الإنكليزي: أَيْش اسمك؟ فسكتّ فقال الشيخ مصطفى: اسمه حسن الحنيان. فدخلت الباخرة، وفي مساء ذلك اليوم قال لي: هل قلت شعرًا؟

فقلت: نعم. فقال لي: هل تستطيع أن تشطر هذه القصيدة، وهي لشوقي مطلعها:

خَـدَعُـوهَـا بِـقَـوْلِهِـمْ حَـسْـنَـاءُ   وَالْغَـوَانِـي يَـغُـرُّهُـنَّ الثَّـنَـاءُ

فأعطاني القصيدة مكتوبة فانصرفت إلى منزلي وشطرتها في تلك الليلة وسأدرجها مع التشطير هنا لأني أشعر أن بعض قراء هذا الكتاب إن لم نقل كلهم، يحبون الاطلاع عليها، والشطور المزيدة بين قوسين ونصها:

خَـدَعُـوهَـا بِـقَـوْلِهِـمْ حَـسْـنَـاءُ   (وَامْـتِـدَاحُ الْكَـوَاعِـبِ اسْـتِـهْـوَاءُ)

(فَـرَنَـتْ لِلْوِصَـالِ بَـعْـدَ نُـفُـورٍ)   وَالْغَـوَانِـي يَـغُـرُّهُـنَّ الثَّـنَـاءُ

مَـا تَـرَاهَـا تَـنَـاسَـتِ اسْـمِـيَ لَمَّـا   (أَنْ تَـفَـانَـتْ فِـي حُـبِّـهَـا الْعُـظَـمَـاءُ)

(وَالتَّـنَـاسِـي شَـأْنُ الْخَـرِيـدَةِ إِذْ مَـا)   كَـثُـرَتْ فِـي غَـرَامِـهَـا الأَسْـمَـاءُ

إِنْ رَأَتْـنِـي تَـصُـدُّ عَـنِّـي كَـأَنْ لَمْ   (يَـلْفَ لِي فِـي فُـؤَادِهَـا اسْـتِـيـلَاءُ)

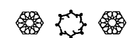
(لَا شَفَانِي وِصَالُهَا الْيَوْمَ إِنْ لَمْ) يَكُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ (لِفُؤَادِي الْعَلِيلِ وَهْوَ الشِّفَاءُ)
(ثُمَّ رَدٌّ فَبَثُّ شَكْوَى بِعَادِ) فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ
يَوْمَ كُنَّا وَلَا تَسَلْ كَيفَ كُنَّا (لَا وُشَاةَ تُخْشَى وَلَا رُقَبَاءُ)
(فَخَلَعْنَا الْعِذَارَ ثُمَّ جَعَلْنَا) نَتَهَادَى مِنَ الْهَوَى مَا نَشَاءُ
وَعَلَيْنَا مِنَ الْعَفَافِ رَقِيبٌ (أَنْ تُدَنَّسَ وَصْلَنَا فَحْشَاءُ)
(يَقِظٌ لَيسَ يَعْتَرِيهِ مَنَامُ) تَعِبَتْ فِي مَرَاسِهِ الأَهْوَاءُ
جَاذَبَتْنِي ثَوْبَ الْعَصِيِّ وَقَالَتْ (وَعَلَى وَجْهِهَا بَدَا اسْتِحْيَاءُ)
(لَكَمْ ذَلَّتِ الصِّعَابُ جَمِيعًا) أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ
فَاتَّقُوا اللهِ فِي خِدَاعِ الْعَذَارَى (فَلَكُمْ فِي اصْطِيَادِهِنَّ دَهَاءُ)
(لَا تَصِيدُوا الأَبْكَارَ بِالشِّعْرِ خَتْلًا) فَالْعَذَارَى قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ

وقد سهل عليَّ تشطير جميع أبيات القصيدة إلا بيتًا واحدًا وهو قوله:

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

فإن هذا البيت تضمن أمورًا ستة لا يمكن الفصل بينها؛ لأن بعضها في الواقع مترتب على بعض. ولم أكن أفهم ذلك حتى سافرت إلى أوروبا وأقمت فيها مدة فرأيت ذلك واقعًا كل يوم في المتنزهات والمطاعم والمقاهي والشوارع والمركبات العامة وقطر السكك الحديد؛ لأن العفاف عندهم معدوم، فأول ما يتقابل رجل وامرأة فيحدق بعضهما في بعض: إن كانت المرأة لا رغبة لها في الرجل تصرف بصرها؛ وإن كانت لها فيه رغبة تبتسم له فيتجرأ هو حينئذ على أن يحييها فترد عليه، فيبدأ الكلام حتى ينتهي إلى الموعد بإعطاء كل منهما رقم تليفون صاحبه فيعقب ذلك اللقاء، ولا يكون اللقاء كما قال شوقي في قصيدته لأن المتحابين هناك لا رقيب عليهم من عفاف ولا من غيره، ومن المعلوم أن شوقي درس في فرنسا وشاهد ذلك بعينه فعبر عنه بذلك البيت. ومن المزايا التي يختص بها شعر شوقي أنه جمع بين الأفكار الأوربية والأفكار العربية، ونسق هذه الأفكار كلها ووحدها

حتى امتزجت إلى حد أنه لا يستطيع التمييز بينها إلا من خالط العالم العربي والعالم الأوربي، هذا مع المحافظة التامة على الأسلوب العربي البليغ الذي لا تشوبه شائبة من ركاكة المقتبسات الأعجمية، وإذا قارنت بين شعر أحمد شوقي وبين شعر معروف الرصافي وهو لا يقل عن شوقي في بلاغة شعره تجد الفرق بينهما واضحًا؛ فإن شعر الرصافي ليس فيه إلا أفكار عربية شرقية، بخلاف شعر معاصره أحمد شوقي.



الوصول إلى الدورة

لما وصلت الباخرة في النهر المسمّى شط العرب وهو مؤلف دجلة والفرات إلى مكان بإزاء ممتلكات الشيخ مصطفى آل إبراهيم، وهي كثيرة ممتدة على الجانب الأيمن من شط العرب أميالًا كثيرة طلب من ربان الباخرة أن يوقفَ له الباخرة لينزل هو وأصحابه ويركب قاربًا يوصله إلى قصره في الدورة، فقبل الربان الإنكليزي احترامًا له؛ لأنه كان يعامل معاملة الأمراء؛ لأنه كان من كبار المالكين، فنزلنا في قوارب وسارت بنا إلى الدورة فلما وصلت القوارب إلى فرع شط العرب الذي يوصل إلى الدورة، وجدنا أهل القرية كلهم في استقبال الشيخ مصطفى.

وكان الطريق ضيقًا بين البساتين، فقدمني أمامه فأردت الامتناع فأشار إليّ إشارة فقبلت، وسار هو خلفي وأهل القرية كلهم خلفه، وتعجبت من ذلك كثيرًا؛ لأني شاهدت هذا المنظر لأول مرة؛ فإن العادة عندنا في المغرب قلما تجري بذلك، فلما وصلنا إلى القرية قدمني أيضًا في التوجه إلى المقصورة التي وضعت فيها الأطعمة فلما صلينا العصر سألته عن ذلك فقال لي: أنا لا أبقى هنا دائمًا فإني تارة أكون هنا وتارة أسافر إلى بومباي لأكون عند عمي قاسمي آل إبراهيم، وهو من تجار اللؤلؤ المشهورين، وإنما قدمتك ليرى ذلك أهل القرية فيعظمونك في غيبتي وحضوري ويعلموا أنك أستاذي. فشكرته على ذلك وعرض علي الإقامة عنده، فقبلت وجعل لي راتبًا طيبًا جدًّا مع السكنى والمعيشة على أحسن وجه.

وأخذت ألقي دروسًا في علم الأدب عليه وعلى جماعة من الطلبة وأُعلّم الشباب في مدرسة أنشأها، وألقي دروس وعظ في المسجد؛ ولما توجهنا إلى المسجد للصلاة، قال للإمام والمؤذن: كل ما أمركما به الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي فامتثلاه. فمنعتهم من جميع البدع وأمرت الناس باتباع السنة، ومنها إلصاق القدم بالقدم عند القيام للصلاة، فامتثل الناس الأمر إلا رجلًا شيخًا من أقاربه كان فيما مضى وكيلًا لوالده الشيخ يوسف آل إبراهيم على تلك القرية يدبر أمر الحواصل من الغلات فيعطي الفلاحين حقوقهم والباقي يكون بيده يأخذ منه نفقة السركار (وهي كلمة هندية، معناها رأس المال)، والمقصود بها هنا النفقات العامة لمن في القصر من العيال والخدم والضيوف وما فضل عن ذلك يبقى

بيده. فهذا الرجل لم يقبل ما أمرتهم به من اتباع السنة وبدأ يحاربني، فمن ذلك أنني أمرتهم بأن يجعل المؤذن بين أذانه وإقامته وقتًا كافيًا لمجيء المصلين واستعدادهم للصلاة، وكانت العادة جارية عندهم بأن المؤذن إذا نزل من أذان المغرب يقيم الصلاة في الحين، فلما رأى ذلك الشيخُ المؤذنَ أذن لصلاة المغرب وجلس ينتظر أن آمره بالإقامة – لأني إذا حضرت كنت أتقدم إمامًا للصلاة بهم- غضب غضبًا شديدًا وقال لي: يا شيخ المغرب، غريب وقته ضيق. فقلت له: ليس الأمر كما توهمت والوقت واسع.

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر في أول وقت العصر ثماني ركعات جمع تأخير، هذا معنى الحديث. فقيل لابن عباس: ما أراد بذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته، على أننا نحن لا نؤخر الصلاة إلا بضع دقائق، وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر وله شواهد أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «**إذا أذنت فترسل وإذا أقمت فاحدُرْ**[1] **واجعل بين أذانك وإقامتك مقدار ما يفرغ الآكل من أكله**» وهذا الحديث وإن كانت طرقه ضعيفة فإنها بتعددها تنهض حجة. قال شارح بلوغ المرام: «ويقويها المعنى الذي شرع له الأذان فإنه نداء لغير الحاضرين ليحضروا الصلاة فلا بد من تقدير وقت يتسع للتأهب للصلاة»، فقال لي: لا حول ولا قوة إلا بالله (وهو يتكلم بلغة عامة أهل الكويت يبدلون القاف غينًا) هذه صلاة سعودية لا فرض ولا نية إلا الخوف من الخيزرانية. فقلت له: بل هي صلاة محمدية ذات قصد ونية والمتبعون لرسول الله ﷺ لا يحتاجون إلى خيزرانية وغيرهم لا نبالي بهم. فقال لي: يا غريب، كن أديبًا. فقلت له: أنا لست غريبًا لأنني عربي في بلاد العرب وإن كان أسلافي قد نزحوا إلى المغرب فإن حقي لا يزال ثابتًا في بلادي الأصيلة. فقال لي: روح المغاربة واهدهم. فقلت له: هذه دعوى جاهلية فإن الله تعالى لم يقل ذلك بل قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولم يحدد للدعوة زمانًا ولا مكانًا.

ولما أمرتهم بإلصاق القدم كما في حديث أنس «كان النبي ﷺ يأمرنا بتسوية الصفوف، فكان أحدنا يلزق قدمه بقدم من يليه ويحاذيه بركبتيه ومنكبيه ولو فعلت ذلك بأحدهم اليوم لنفر كأنه بغل شموس» فكان الناس يمتثلون ويلصقون القدم بالقدم. وكان ذلك الشيخ إذا أراد أحد أن يلصق قدمه بقدمه رفسه بقدمه وسبه. وقال

(١) الحدر: الإسراع . والحديث ضعيف جدًا. انظر إرواء الغليل (٢٢٨).

لي مرة: إن النبي ﷺ لا يمكن أن يأمر بهذا؛ لأن الرجل إذا ألصق قدميه بقدم من يليه يفحش ويدش الشيطان في دبره. فقلت له: هذا خيال باطل فكيف ترد به سنة النبي ﷺ؟ وقوله: يفحش يعني يتسع ما بين قدميه، ويدش بمعنى يدخل، وقلت له: إن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما قال تعالى في سورة [النحل ٩٩-١٠٠]، وكنت أصلي بهم الجمعة فأزلت البدع التي كانوا يعملونها في يوم الجمعة، فغضب الشيخ غضبًا شديدًا، وقال: هذا تبديل للدين، من يوم خلقنا الله لم نزل نرى العلماء ما رأينا أحدًا منهم أنكر هذه الأمور. فقلت له: إن العلماء يخطئون ويصيبون ويمنعهم الجبن في بعض الأحيان والضعف والعجز في أحيان أخرى من إنكار البدع. ولما جاءت صلاة العصر وذهبت أتقدم للصلاة إمامًا أخذ بطرف عباءتي وقال لي: (ما حد يبيك) معناه لا يريد أحد أن تصلي إمامًا. فوضع الشيخ مصطفى يده برفق على يد الشيخ، وقال له: يا سيدي الوالد أرجوك أن تتركه يصلي. فقال: كذا يا مصطفى تفضل المغربي على والدك. أو قال على أبيك. فقال الشيخ مصطفى: لا يا سيدي أنا ما فضلته ولكن الله فضله لأنه عالم ونحن جهال فقال الشيخ: (زين على شان خاطرك أخليه يصلي) معناه سأتركه يصلي إمامًا إرضاء لك.

ولم يكن عند أولئك القوم شرك ظاهر أعني أهل السنة منهم -وهم قليل- وأكثر سكان القرية من الشيعة، ولكن كان فيهم جمود على التقليد والتعصب للمذهب مع جهلهم؛ فالمتعصبون للمالكية غضبوا بسبب تركي القنوت في صلاة الصبح، والمؤذن كان شافعيًا؛ فلما رآني قررت في الدرس أن بول ما يؤكل لحمه طاهر، غضب وقال في غيبتي: إذا كان بول البقرة عنده طاهرًا، فليشربه. فقلت له في أثناء الدرس: ياملا أحمد - والملا كلمة فارسية يوصف بها أهل العلم كالفقيه عند العرب أو الشيخ، قلت له: ما حكم المخاط في مذهبك؛ أهو طاهر أم نجس؟ فقال: طاهر. ثم قلت له -: ما حكم الأوساخ طاهرة أم نجسة؟ قال: طاهرة. فقلت له: فاشرب المخاط وكل الأوساخ؛ فقال لي: يا شيخ، لا يليق بمثلك أن يخاطب أحدًا بمثل هذا الكلام، فقلت له: أنت بدأت بما هو أقبح من هذا والبادئ أظلم ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وأنا تكلمت بالعلم وأنت تكلمت بالجهل، وذكرت الأدلة على طهارة ما يؤكل لحمه.

مناظرة بين المؤلف
وبين مجتهد الشيعة في المحمرة

لما استقررت في الدورة أردت أن أجتمع مع بعض علماء الشيعة بعدما قرأت شيئًا من كتبهم، ووجدت فيها عجائب وغرائب فاتفقت مع أحد الفلاحين؛ وهو الحاج غلام حسين، ومعنى غلام حسين أي عبدالحسين والشيعة يسمون عبدعلي وكلب علي وعبدالزهراء وعبدالأمير وأمثال ذلك من الأسماء الشركية.

ومن أغرب ما وقع لي في ذلك أنني سافرت من جدة إلى بومباي -كما تقدم- ورأيت الحجاج يقتتلون على الماء، فاستأجرت شابًا فارسيًا يأتيني بالماء من مستقس الباخرة من جدة إلى بومباي بربيتين أي درهمين هنديين، اسم ذلك الشاب عبدعلي فكنت أتجاهل اسمه وأناديه يا عبدالعلي فيغضب ويقول: (عبدالعلي نا) ونا بالفارسية هي حرف النفي ترادف لا بالعربية ثم يكرر عبدعلي، فإذا نسبته إلى الله العلي يغضب ويريد أن ينسب إلى العبد وهو علي!

سافر معي غلام حسين إلى المحمرة وهي على الجانب الشرقي من شط العرب، وقد انتزعتها الدولة الفارسية التي تسمى في هذا الزمان إيران من الأمير الشيخ خزعل الذي كان يحكم تلك الناحية وسكانها عرب من بني تميم وألحقتها بمملكتها فقلت لغلام حسين: اختر لي عالمًا من علمائكم أزوره لا يكون متعصبًا. فقال لي: أفضل علمائنا في هذا البلد هو الشيخ عبدالمحسن الكاظمي. فقصدناه في الحسينية، والحسينية مبنى للشيعة يجتمعون فيه لقراءة قصة مقتل الحسين -رضي الله عنه- وقصة حرب علي مع عائشة وطلحة والزبير في وقعة الجمل، وكان ذلك اليوم يوم جمعة وهذا الشيخ من الاثنا عشرية الإخباريين؛ فإن الاثنا عشرية فرقتان: فرقة إخبارية وفرقة أصولية، فالإخبارية يعتمدون على ما روي من الأخبار وإن كان مخالفًا للقياس والأصول، والإخباريون يصلون الجمعة والجماعة خلاف الأصوليين فإنهم لا يصلون جمعة ولا جماعة؛ فلما دخلت على الشيخ عبدالمحسن قام لي وصافحني وأجلسني بقربه وكان الحاضرون كثيرًا يقدر عددهم بثلاثمائة، فقال أحدهم

للروضخون - وهم ينطقون بالضاد زايا- والروضخون هو الذي يقرأ لهم قصة الحسين وقصة عائشة مع علي، قال له: عجل بقراءة القصتين نريد أن نسمع كلام العالمين لأنهم من عادتهم أن يقرؤوا القصتين في ضحى يوم الجمعة، وحثه على أن لا يطول وسيتبين لك مقصوده بذلك فصعد الروضخون المنبر وبدأ يقرأ في قصة الحسين؛ فلما بلغ مقتله وما صنع به أعداؤه، وضعوا طيالسهم على وجوههم وأخذوا يبكون ويتباكون رافعين أصواتهم: واحسيناه وأباعبدالله. والظاهر أن بكاءهم كان كاذبًا وإنما هو تصنع لأن هذه القصة يسمعونها في كل أسبوع مرارًا فقلما تؤثر فيهم ولما فرغ من قصة الحسين شرع في قصة عائشة وذكر أنها بعثت رسولها إلى البصرة إلى علي وقالت له: إنه سيعرض عليك طعامه وشرابه فإياك أن تأكل من طعامه أو تشرب من شرابه فإن فيه السم؛ فلما سمع ذلك الحاضرون قالوا بصوت عال ونغمة تدل على الحقد: (لا يا ملعونة) وأخذوا يكررونها في كل فقرة يسمعونها، فاستعجل بعض الحاضرين الروضخون وقال له: اختتم نريد أن نسمع كلام العالمين. فغضب الروضخون، وقال: قد اختصرت القصتين وما ذكرت إلا ربعهما.

ولما فرغ القاص أخذت أتحدث مع الشيخ بالحديث التالي: حسب ما بقي في ذاكرتي فقد مضى على هذه القصة زهاء ٤٨ سنة فإنها كانت سنة ١٣٤٣هـ سألت الشيخ: ما أهم كتب الحديث عندكم؟ فذكر لي أربعة كتب لا أذكر الآن منها إلا كتاب الكليني، وأثنى عليه، وقال: كل أحاديثه صحيحة فهو عندنا بمنزلة.. ثم سكت وأخذ يفكر، فقلت: لعلك تقصد البخاري عندنا، فقال: نعم هو عندنا بمنزلة البخاري عندكم والبحث في صحة الحديث وضعفه في هذا الزمان عبث، لأن الأحاديث الصحيحة معلومة يقينًا. فقلت له: وكيف تعرف صحتها يقينًا؟ فقال لي: تعرف بنص الأئمة المعصومين على صحتها. ثم قال: دونك حديثًا متواترًا عندنا وعندكم فقلت له: قل، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» فقلت له: أما عندنا فليس هذا الحديث صحيحًا ولا حسنًا عند المحققين فضلًا عن أن يكون متواترًا وإنما هو حديث ضعيف. هكذا قلت له من حفظي، والآن أثبت ما قاله الأئمة في هذا الحديث؛ قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٧ ما نصه باختصار: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**». رواه الحاكم في المناقب من مستدركه، والطبراني في معجمه الكبير، وأبو الشيخ في السنة وغيرهم كلهم من حديث أبي معاوية الضرير عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا به بزيادة

فمن أتى العلم فليأت الباب، ورواه الترمذي في (المناقب) من جامعه، وأبو نعيم في الحلية وغيرهما من حديث علي أن النبي ﷺ قال: «**أنا دار الحكمة وعلي بابها**»، قال الدارقطني في العلل عقب ثانيهما (يعني حديث الترمذي): إنه حديث مضطرب غير ثابت. وقال الترمذي: إنه منكر. وكذا قال شيخه البخاري وقال: إنه ليس له وجه صحيح. وقال ابن معين فيما حكاه الخطيب في تاريخ بغداد: إنه كذب لا أصل له. وقال الحاكم عقب أولهما: إنه صحيح الإسناد، وأورده ابن الجوزي من هذين الوجهين في الموضوعات ووافقه الذهبي وغيره على ذلك، وأشار إلى هذا ابن دقيق العيد بقوله: هذا الحديث لم يثبتوه، وقيل: إنه باطل.

ثم قلت له: وعلى فرض ثبوته فإن أُريد أن هذه المدينة لها أبواب كثيرة وعلي من أفضل أبوابها فهذا صحيح؛ وإن أُريد أن هذه المدينة ليس لها إلا باب واحد وهو علي فهذا باطل يكذبه القرآن والواقع ولا يختلف فيه العقلاء، لأن النبي ﷺ حين بُعث كان عليّ صغيرًا دون البلوغ فلو كان هو الباب الوحيد لهذه المدينة ما استطاع النبي ﷺ أن يبلّغ شيئًا ولا أن يؤدي رسالة وكان يقول لكل من سأله عن مسألة اذهب إلى عليّ وخذ منه الجواب، وهذا لا يقوله أحد يحترم نفسه، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] حذف المعمول هنا يدل على العموم أي بلغه جميع الناس كما قال تعالى في سورة الأعراف (أية: ١٥٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ولما وصلت إلى هذه المسألة اشترك مع الشيخ في المناظرة نحو عشرة أشخاص فقال لي أحدهم: قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ معناه بلغه عليًا. فقلت له: هذه زيادة في القرآن فلو قلت لك أنا: معناه بلغه أبا بكر لكان القولان متساويين فبأي دليل ترجّح أحدهما على الآخر وكلاهما دعوى بلا دليل؟ فغضب الشيخ وقال أبو بكر: (يأكل خراه). وهذا شتم قبيح مستعمل في تلك البلاد والعراق ونجد، ومعناه يأكل العَذِرَة التي تخرج منه كيف تقارن بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام، وهو جاهل لا يعرف (الأبُّ) المذكور في سورة عبس، والعرب كلها تعرب الأبّ وهو العشب؟!. فقلت له: أيها الشيخ، إن علماء المناظرات يقولون: إن الشتم سلاح العاجز لأن القادر على المناظرة بالدليل والبرهان لا يلجأ إلى الشتم، أبو بكر لم يكن يجهل الأبّ لأنه كان من شيوخ

العرب وحكمائهم، إنما قال ذلك تورعًا وخوفًا من الله تعالى وتعظيمًا لكتابه وعملًا بقول النبي ﷺ: **«من قال في القرآن برأيه فقد كفر»**[(١)] وقد خاف أبو بكر -رضي الله عنه- أن يراد بالأبّ معنى خاص يجيء فيه تفسير عن النبي ﷺ فتوقف، وهذا من فضائله ومناقبه. ثم قلت له: إذا أراد الله أن تبليغ النبي ﷺ إنما هو لعليّ، فلماذا لم يسمّه كما سمى زيدًا في سورة الأحزاب؟ فقال لي: إن قريشًا حذفت كثيرًا من القرآن. فقلت له: قال تعالى في سورة الحجر (آية: ٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ ولا شك أن الله تعالى لا يخلف الميعاد وقد حفظ هذا القرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية، وقد أجمع المسلمون وغير المسلمين إلا من شذ من أعداء الإسلام على هذا، فأنت تجد القرآن في جميع أنحاء العالم على اختلاف أديان أهل تلك البلدان لا يستطيع أحد أن يزيد حرفًا ولا نقطة ولا أن يغير منه حركة، وحتى صفات الحروف كالتفخيم والترقيق مثلًا محفوظة.

وإذا سلمنا أن القرآن قد حذفت منه قريش كثيرًا فلا بد أن تكون قد زادت فيه أيضًا. فقال لي: أما الزيادة فلم تقع. فقلت: وكيف عرفت ذلك؟ قال: عرفناه من أقوال الأئمة المعصومين، فإنهم أخبروا بأن الزيادة لم تقع وإنما وقع الحذف. فقلت: هذا مخالف لنص القرآن الذي ذكرته آنفًا ومخالف للعقل والله المستعان. ثم قلت له: فهل عندكم قرآن سالم من التغيير ليس فيه زيد ولا نقص؟ فقال لي: لما رأى أمير المؤمنين عليّ -عليه السلام- قريشًا تحذف أشياء من القرآن وتكتبه على غير الوجه المتفق مع تاريخ النزول دخل بيته واعتكف فيه أربعين يومًا؛ فكتب القرآن من أوله إلى آخره على ترتيب نزوله من أول آية إلى آخر آية. فقلت له: وأين هذا المصحف؟ فقال: بقي عند الأئمة يتوارثونه آخرهم عن أولهم حتى وصل إلى الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري -عجل الله بخروجه- فلما غاب في سرداب سامراء أخذه معه.

فقلت له: ولماذا لم يكتب عليّ -رضي الله عنه- إلا مصحفًا واحدًا ثم لم ينسخ أحد منه في تلك الأزمنة المتطاولة ولا نسخة واحدة وقد كان لعلي كما تعلمون من الأنصار وآل البيت الحريصين على الخير وحفظ العلم ولاسيما كتاب

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ، لكنه عند الترمذي (٢٩٥١) وغيره بلفظ: «من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار» وهو ضعيف. انظر ضعيف الترمذي (٥٧٠).

الله وخصوصًا قبل خلافته كثير، أما بعد خلافته فكان ينبغي أن يكون أول شيء يبدأ به هو إظهار هذا القرآن الصحيح وإحراق ما سواه من المصاحف فإن لم يفعل ذلك على - سبيل التسليم الجدلي - فلا بد أن يفعله شيعته وأنصاره، وقد جمع أبو بكر الناس على هذا المصحف ثم جمعه عثمان طبقًا لمصحف أبي بكر وأحرق جميع المصاحب المشتملة على القراءة الشاذة، وعليّ -رضي الله عنه- ليس دونهما في العلم والقدرة على إحقاق الحق فكيف أهمل هذا الواجب العظيم؟.

فقال لي: تأدّب فإن الأئمة لا يفعلون شيئًا إلا بأمر الله وقد كان أمير المؤمنين - عليه السلام- مشغولًا بأمور أخرى من حروب المرتدين وتدبير شؤون المسلمين، فقلت له: هذا الاعتذار لم يقنعني ولا أراه يقنع أحدًا من خصومكم، ثم لماذا أخذ الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري المصحف الوحيد السالم من التغيير معه حينما أدخل في السرداب وأنتم تعتقدون أنه معصوم وأنه يحفظ القرآن ولا يحتاج إلى مصحف فكيف يترك شيعته على مصحف ناقص غير مرتب ويأخذ النسخة الوحيدة المشتملة على القرآن الصحيح معه إلى عالم الغيب؟ فقال لي: قلت لك: تأدب فإن الأئمة معصومون ولا يفعلون إلا ما أمرهم الله به. ثم قال لي أحدهم: سأورد عليك آية من القرآن تحجك وتسكتك فقلت: هات، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] من هو الإمام المبين؟ أليس عليّ بن أبي طالب - عليه السلام -؟! فقلت: ذلك قولك أما أنا فأقول: إن الإمام المبين هو اللوح المحفوظ المكتوب عند الله تعالى وهذا القرآن الذي بأيدينا مطابق له. فقال لي: كيف يكون الكتاب إمامًا وكيف يكون مبينًا؟! فقلت له: قال الله تعالى في سورة الأحقاف (الآيتان: ١١-١٢) ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ فوقف حماره في العقبة ولم يستطع جوابًا.

فقال لي شيخهم: أليس عليٌّ نفس النبي بنص القرآن؟! فقلت: وضح لي ما تقول كيف يكون عليٌّ نفس النبي؟ فأخذ يتعتع ويكرر أنفسنا وأنفسكم، ولم يعرف أحد منهم آية المباهلة لا الشيخ ولا غيره فعلمت أنه لا يحفظ القرآن أحد منهم، فقلت لهم أنا أذكر لك الآية التي تريدون، قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:

٦١] فقالوا جميعًا: هذه الآية التي نريد وهي حجة عليكم فإن قوله تعالى ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ المراد به علي بن أبي طالب فقلت لهم: إن نفس النبي ﷺ هي النبي ولا تتحمل الدلالة اللغوية غير ذلك فما هو دليلكم من جهة النقل أو اللغة على أن عليًا هو نفس النبي ﷺ؟ فقالوا: هذا ثابت في التفاسير. فقلت: أنا لا أسلّم به إلا إذا ثبت عن النبي ﷺ بسند صحيح.

هكذا قلت لهم مع أني أعلم أنه روي في خبر بسند ضعيف أن معنى أنفسنا هو النبي ﷺ وعليّ، ومعنى نساءنا فاطمة، ومعنى أبنائنا الحسن والحسين، ثم راجعت الآن وأنا أكتب هذا تفسير ابن كثير فوجدت الخبر قد رواه ابن مردويه والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. قال ابن كثير: «هكذا قال الحاكم، وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح». اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم أن المرسل من قسم الضعيف ولو كان القوم أهل إنصاف، لذكرت لهم هذا الخبر واعترفت به وبينت ضعفه وأنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن فضل عليّ وقربه من رسول الله ﷺ لا ينكره إلا ضال وذلك لا يدل على أنه هو الإمام بعد النبي ﷺ ولا يدل ألبته على بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة قبله، ولا يحط من قدرهم شيئًا فإن الأئمة الثقات رووا أحاديث كثيرة صحيحة كالشمس تدل على صحة خلافتهم وفضلهم، ولكن لكل مقام مقال.

ثم قال الشيخ: ما تقول في أحاديث صحيح البخاري أصحيحة عندكم أم لا؟ فقلت: هي صحيحة لا نتوقف في قبول شيء منها؛ فقال: الآن أورد لك حديثًا من صحيح البخاري يثبت صحة اعتقادنا وفساد اعتقادكم. فقلت: ما هو؟ فقال: روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها**» وأبو بكر آذاها فقد آذى النبي ﷺ ومن آذى النبي فهو كافر فكيف يكون الكافر خليفة؟! فقلت له: هذا الحديث صحيح، ولكن لمعرفة معناه على التحقيق يجب أن تذكره كاملًا حتى لا تكون مثل ذلك النصراني الذي احتج على المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣] فقال: هذا كتابكم ينهاكم عن الصلاة.

قال: فاذكر أنت الحديث كاملًا. فقلت: إن علي بن أبي طالب أراد أن يتزوج بابنة أبي جهل على فاطمة فقام النبي ﷺ خطيبًا في الناس فقال: «**إن ابن أبي طالب يريد أن يتزوج بابنة أبي جهل فليطلق ابنتي فإن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها**»

هذا معنى الحديث. فلما سمع القوم هذا الحديث ثاروا ثورة عظيمة وكثر ضجيجهم؛ فقال لي شيخهم رافعًا صوته: (كفرتم كفرتم كفرتم، أنتم كفرتم كل واحد حتى محمد بن عبدالله) وسمعت من كان بقربي من الحاضرين يقولون بصوت ملأه الحنق: (لا يا ملاعين الوالدين اشلون يكذبون على أمير المؤمنين) ومعنى ذلك: اخسأوا يا ملاعين الوالدين كيف يكذبون على أمير المؤمنين يعنون عليًا. فقلت له: كيف تكفروننا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ونؤمن بكل ما جاء به الرسول ﷺ؟! وعليّ -رضي الله عنه- لسعة علمه وفضله لم يكفر الخوارج الذين كفّروه وقاتلوه؛ فقد روى ابن أبي شيبة بسنده إلى عليّ أنه سئل عن الخوارج أكفّار هم؟ فقال: لا. من الكفر فرّوا. فإن لم تقبلوا على عادتكم في ردّ أحاديث أهل السنة؛ فدونكم برهانًا نظريًا لا تستطيعون ردة أبدًا قالوا: ما هو؟ فقلت: إن عليًا رضي الله عنه قاتل الخوارج ولم يغنم أموالهم ولا سبى ذريتهم كما فعل هو وسائر أصحاب رسول الله ﷺ في قتال المرتدين من بني حنيفة، وأمُّ ولده محمدٍ سبيةٌ من بني حنيفة، واسمها خولة، وأنتم تعلمون ذلك.

فقال: أنا لا أكفرك أنت. فقلت: لو كفرتني أنا وتركت البخاري ورجاله، لكان ذلك أهون عليّ؛ لأن كل ما نعتقده ونعلمه من أمور الدين فهو إما من القرآن أو من رواية هؤلاء الرواة. فقال لي: وأنا لا أكفر البخاري أيضًا فقد كان رجلًا صالحًا ولكن معاوية كان يبذل الأموال للوضاعين فيضعون الأحاديث في تنقّص علي ويكذبون عليه وقد توهم البخاري؛ فأدخل في كتابه هذا الحديث. فقلت له: إن رجال هذا الحديث كلهم أئمة ثقات، وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.

هذا ما قلته له. الآن أسوق هذا الحديث بألفاظه ليعرفه القارئ على وجهه.

أخرج البخاري بسنده عن المسور بن مخرمة -في باب الخمس- أن علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة -عليها السلام- فسمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره -هذا وأنا يومئذ محتلم- فقال: «**إن فاطمة مني وأنا أتخوّف أن تفتن في دينها**» ثم ذكر صهرًا له من بني عبدالشمس فأثنى عليه في مصاهرته إيّاه قال: «**حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي وإني لست أحرّم حلالًا ولا أحلّ حرامًا ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدًا**».

ورواه البخاري في كتاب النكاح في باب ذبّ الرجل عن ابنته في الغيرة «**إن بني**

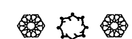
هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكحوا ابنتَهم عليَّ بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بَضْعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها».

وفي إحدى الروايات أن فاطمة -عليها السلام- ذهبت إلى النبي ﷺ فقالت له: إن الناس يقولون: إنك لا تغضب لبناتك. وأخبرته الخبر؛ فخرج إلى المسجد وخطب الناس.

ثم قلت: وأبو بكر الصديق لم يؤذ فاطمة وإنما نفذ ما أمر به النبي ﷺ في قوله: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**» وفاطمة غير معصومة من الخطأ. فإن كان هذا هو سبب تكفيركم لأبي بكر الصديق فهو سبب واه، وقد تبين بطلانه، فلماذا كفرتم عمر مع أنه حين جاءه عليّ والعباس بعد وفاة فاطمة يطالبان بأرض فدك التي طالبت بها فاطمة أحضر عشرة من الصحابة فشهدوا كلهم أن النبي ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» ثم قال لعلي والعباس: إن التزمتما أن تعملا في هذه الأرض بما كان يعمل به رسول الله ﷺ سلمتها لكما فالتزما ذلك فسلمها لهما. ثم اختلف عليٌّ والعباس فجاء العباس عمر يشتكي عليًا فأبى عمر أن يغير ما حكم به.

ومما ذكرته لهم في تلك المناظرة -وإنما أمليها من حفظي- أن مما يدل على أن أهل بيت عليّ -رضي الله عنه- لم يكونوا يعتقدون عصمته أن عبدالله بن عباس أنكر عليه إحراق الغلاة الذين اعتقدوا ألوهية علي فأحرقهم بالنار فخطأه ابن عباس وقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يعذِّب بالنار إلا رب النار**» فقال الشيخ: هذا من وقاحته وقلة حيائه كيف يعترض على إمامه.

ولما أخذوا يناظرونني- وهم جماعة كما ذكرت- أراد رفيقي أن يظهر دفاعه عني وقال: أيها القوم، إن كانت هذه مناظرة بين عالمين فدعوهما يتناظران وأنصتوا، وإن كانت حمية وعصبية فأنا أيضًا أدافع عن صاحبي، ولما رجعنا إلى الدورة قال لأهل السنة: أشهد بالله أن عالمكم غلب عالمنا.



مناظرة بين المؤلف وبين شيعي آخر

اجتمعت في البصرة بمجتهد الشيعة الشيخ مهدي القزويني، فأخبرته بأن عبدالمحسن الكاظمي يقول: إن قريشًا حذفت كثيرًا من القرآن، فهل هذا صحيح؟ فقال: أما نحن فلا نقول بذلك ونؤمن بأن القرآن هو ما بين دفتي المصحف لم ينقص منه شيء ولم يزد فيه شيء. وأظن أن الشيخ القزويني من الفرقة الأصولية.

ثم بعد ذلك قرأت مقالًا في مجلة المنار الشهيرة التي كان يصدرها الشيخ رشيد -رحمه الله- كاتبه عالم من بلاد فارس أثبت فيه بالأدلة والبراهين المروية عن النبي ﷺ من طرق الشيعة الاثنا عشرية كل ما بينه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب من توحيد العبادة وتوحيد الربوبية. فمن ذلك تحريم البناء على القبور روى فيه أحاديث عن أئمة الشيعة مرفوعة وغير مرفوعة إلى النبي ﷺ تثبت النهي عن البناء على القبر وتجصيصه حتى ذكر عن جعفر الصادق -رحمه الله- أنه قال: «كل ما وضع على القبر من غير تراب القبر فهو ثقل على الميت»، ومنها تحريم الذبح والنذر ودعاء الأموات والاستعانة بهم.

فكتبت كتابًا إلى الشيخ مهدي المذكور وقلت له: نرجو أن تبين لنا هل هذه الأحاديث التي ذكرها صاحب المقال صحيحة عندكم أو غير صحيحة؛ فإن كانت صحيحة، فما الذي يمنعكم من العمل بها؟ وكيف سكتم على القباب المشيدة المزخرفة في النجف وكربلاء والكاظم، وهي مخالفة لما رواه أئمة آل البيت الذين يدعون الناس إلى اتباعهم؟ فكتب إليّ رسالة طويلة مدحني فيها ولم ينكر شيئًا من تلك الأحاديث، ولكنه عمد إلى تحريفها ففسَّر البناء على القبر بأن يبني على القبر نفسه؛ أما بناء قبة حوله لتقي زائريه من الحر والقر، فلا بأس به. ومضى في تحريف تلك الأحاديث كلها حتى أتى عليها، ثم قال لي: ونحن نتخذك حكمًا تحكم بيننا وبين صاحب المنار. هذا بعد ما ذم صاحب المنار وكاتب المقال وغمرهما بالشتم والقدح والطعن.

فألفت في ذلك جزءًا سميته (القاضي العدل في حكم البناء على القبور) وبعثته إلى الشيخ رشيد رضا -رحمة الله عليه- فجزأه سبعة أجزاء ونشره في مجلة المنار،

وكان ذلك في أغلب الظن سنة ١٣٤٤هـ ولما استقررت في المملكة السعودية أعدت تأليف الكتاب بأسلوب أخشن، وقدمته للملك عبدالعزيز -رحمة الله عليه- هدية، وأنشدته في ذلك القصيدة التالية جالسًا إلى جنبه، فلم يعب علي ذلك لا هو ولا أحد من جلسائه، وذلك برهان قاطع على تواضعه واختياره سلوك أمراء السلف، فلا غرابة أن رفع الله قدره ومكن له في الأرض حتى أنشأ دولة عظيمة عصرية على أنقاض الدولة السعودية التي قضى عليها آل رشيد كما شهدت بذلك إذاعة لندن وهذه القصيدة من بحر الكامل:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي سَعِدَتْ بِهِ ... أَرْجَاءُ مَكَّةَ وَالْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ
وَكَسَى الإِلَهُ بِهِ بَلَادَ الْعُرْبِ ثَوْ ... بَ أَمَانَةٍ فَغَدَتْ بِهِ تَتَنَعَّمُ
وَأَشَاعَ نُورَ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ فِي ... أَرْجَائِهَا وَالْجَهْلُ فِيهَا مُظْلِمُ
وَغَدَتْ بِحِكْمَتِهِ أَهَالِيهَا وَهُمْ ... بَعْدَ الْعَدَاوَةِ فِي إِخَا لَا يُصْرَمُ
كَانَ التَّقَاطُعُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... حَتَّى الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ لَا يَرْحَمُ
وَالْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ شِيمَتُهُمْ وَهُمْ ... شَتَّى الْعَقَائِدِ شِرْكُهُم مُسْتَحْكِمُ
مَا عِنْدَهُمْ مَنْ حُرْمَةٍ لِلشَّرْعِ بَلْ ... طَاغُوتُهُمْ بِالْجَهْلِ فِيهِمْ يَحْكُمُ
قَطْعُ الطَّرِيقِ وَقَتْلُ سَالِكِهِ لَهُمْ ... خِيمٌ وَخِيمٌ عِنْدَهُمْ لَا يَخْرُمُ
شَنُّ الإِغَارَةِ دَأْبُهُمْ وَطَعَامُهُمْ ... وَشَرَابُهُمْ مِنْهُ وَبِئْسَ الْمَطْعَمُ
فَغَدَوْا تُقَاةً صَالِحِينَ وَخَوْفُهُمْ ... لِلَّهِ لَيْسَ يَزَالُ دَوْمًا يَعْظُمُ
بِسِيَاسَةِ الْمَلِكِ الإِمَامِ الْمُرْتَضَى ... عَبْدِالْعَزِيزِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمُ
هَذِي الْكَرَامَاتُ الْعِظَامُ حَقِيقَةٌ ... لَا مَا يَقُولُ مُشَعْوِذٌ يَتَوَهَّمُ
هَذَا هُوَ الْقُطْبُ الْكَبِيرُ دِيَانَةً ... وَشَجَاعَةً وَعَدَالَةً إِذْ يَحْكُمُ
قُطْبُ السِيَاسَةِ وَالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا ... حَامِ الْحَقِيقَةِ فِي الْوَغَى لَا يُحْجِمُ
يَلْقَى الْعِدَاةَ إِذَا الْجُيُوشُ تَلَاطَمَتْ ... أَمْوَاجُهَا مُسْتَبْشِرًا يَتَبَسَّمُ
يَلْقَى الْوفُودَ وَوَجْهُهُ مُتَهَلِّلٌ ... رَائِيهِ مُغْتَبِطٌ بِهِ مُتَنَعِّمُ

ذَا الْجُـزْءُ أَرْفَـعُـهُ إِلَيْـكَ هَـدِيَّـةً | وَلأَنْـتَ أَفْـضَـلُ مَـنْ إِلَيْـهِ يُـقَـدَّمُ
أَلَّفْـتُـهُ رَدًّا عَـلَى شَـيْـخِ الرَّوَا | فِـضِ بِـالأَدِلَّةِ مُـبْـطِـلًا مَـا يَـزْعُـمُ
زَعَـمَ الْبِـنَاءُ عَلَى الْقُبُورِ وَقَصْدُهَا | مِـنْ كُـلِّ أُفْـقٍ لِلدُّعَـا لَا يَـحْـرُمُ
هَـذَا وَدُمْ شَـمْـسًـا لِهَـذَا الدِّيْـنِ فِـي | أَوجِ السَّـعَـادَةِ بِـالْمَـكَـارِمِ تَـنْـعَـمُ

فتقبله بأحسن قبول وأمر بطبعه؛ فأخذه رئيس القضاة الشيخ عبدالله بن حسن -رحمه الله- وسلمه إلى الشيخ ماجد الكردي مدير المعارف فطبع منه ألف نسخة ووزعت. ولا بد أن يكون الشيخ مهدي القزويني قد اطلع على هذا الكتاب. وقد بلغني أنه ألف كتابًا في الرد عليَّ، ولكني لم أره، وهذا هو سبب ما ذكرته من قبل أنه يوجد في المحفظة الخاصة بي التي يسمونها بالعجمية (دوسيا) أنني عدو لأبناء الشيعة. هكذا سجلوا عليّ ذلك لجهلهم وضلالهم؛ وإلا فهل كان أئمة آل البيت الذين نقل عنهم ذلك الكاتب أحاديث النهي عن البناء على القبور كحديث الصحيحين: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» ونحوه هل كان أولئك الأئمة -رضوان الله عليهم- أعداء لأبناء الشيعة ومنهم جعفر الصادق الذي ينتسبون إليه؟! إذًا فمن هو وليهم؟!



شيخ متملق

كان رجل ينسب إلى العلم- والعلم منه بعيد- يسكن في بلدة فاو الواقعة عند مصب شط العرب في خليج البصرة ويسميه الأوروبيون الخليج الفارسي، وكان من المتملقين لذلك الشيخ المذكور الذي هو من أقارب الشيخ مصطفى آل إبراهيم، فشكى الشيخُ الغنيُّ إلى ذلك المتأكل بالدين ما أبطله من البدع في مسجد الدورة فقال الشيخ الفوي: هذا الرجل منّاع للخير. يعنيني بذلك؛ فهجوته بقصيدة نسيت أكثرها وأثبت هنا ما بقي في حفظي منها، وقد حذفت منها بيتًا؛ لأن فيه إقذاعًا كثيرًا. فإن قلت: إذا كان ذلك الإقذاع لا يجوز شرعًا فلماذا قلته حتى احتجت إلى حذفه؟ فالجواب أنه يجوز شرعًا ولكن تركه أيضًا جائز وقد قال النبي ﷺ: «**من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضّوه بِهَنِ أبيه ولا تُكْنوا**».

وهذا ما بقي من القصيدة:

أَتَانِيَ فُحْشُ الْقَوْلِ مِنْ جَاهِلٍ فَدْمٍ[1] ... وَقِدْمًا كِلابُ الْجَهْلِ تَنْبَحُ ذَا الْعِلْمِ

وَلَسْتُ بِمُلًا[2] فِي الْقُرَى مُتَأَكِّلٌ ... بِدِينٍ وَلَا دِينَ لَدَى الأَرْذَلِ الْوَخِمِ

يَظَلُّ عَدُوُّ الْعِلْمِ يَكْذِبُ جَاهِدًا ... عَلَى رَبِّهِ كَيْ يَأْكُلَ السُّحْتَ بِالرَّجْمِ

فَدَعْ عَنْكَ دَعْوَى الْعِلْمِ وَلْتَبْغِ قَارِبًا ... تَصِيدُ بِهِ الْحِيتَانَ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ

وَدُرْ بِهِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ مُنَادِيًا ... صَبُورًا صَبُورًا وَاتْرِكِ الْعَيْشَ بِاللُّؤْمِ

فَذَلِكَ أَجْدَى مِنْ سُؤَالٍ وَكِدْيَةٍ ... وَإِفْسَادِ دِينِ اللهِ بِالْخُرْصِ وَالْوَهْمِ

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ أَكْلَ ثَرِيدَةٍ ... وَجَمْعَ زَكَاةٍ مِنْ غَرِيبٍ وَمِنْ عُجْمِ

وَمِثْلُكَ إِنْ يَسْأَلْ يَجِئْ يَوْمَ حَشْرِنَا ... وَمَا وَجْهُهُ إِلَّا عِظَامٌ بِلَا لَحْمِ

---

(١) الفَدْم: ثقيل الفهم.

(٢) يقصد الإمام الذي يتخذ الإمامة منه.

وَإِنْ كَـانَ كَـالْعُصْـفُـورِ عَـقْـلُكَ خِـفَّـةً ... وَطَيْشًا فَمِثْلُ الْبَغْلِ قَدْ صِرْتَ فِي الْجِسْمِ

عَلَامَ اسْتَطَبْتَ الأَكْلَ مِنْ صَدَقَاتِهِمُ ... ءَأَعْرَجُ أَمْ أَعْمَى أَمْ أَنْتَ أَخُو سُقْمِ

نَعَمْ فِيْكَ سُقْمٌ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ ... وَذَلِكَ سُقْمُ الْعَقْلِ وَالدِّيْنِ وَالْفَهْمِ

وَفِيْكَ عَمًى لَمْ تُبْصِرُ الْعَيْنُ مِثْلَهُ ... عَمَى الْجَهْلِ إِنَّ الْجَهْلَ لِلْقَلْبِ قَدْ يُعْمِي

وَدَعْـوَاكَ فِـي الْعِـلْمِ الْعَـزِيْـزِ مَـكَـانَـهُ ... كَدَعْوَى بَنِي حَرْبٍ زِيَادًا عَلَى زَعْمِ

لَقَـدْ هَـزُلَـتْ حَـتَّـى بَـدَا مِـنْ هُـزَالِهـا ... كُلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ ذِي عَدْمِ

قولي: (صبورا صبورا) الصبور نوع من السمك يصاد من البحر، كبير الحجم، كثير العظام، ولكن لحمه لذيذ يدور الباعة بزوارقهم في أنهار جنوب البصرة منادين (صبور صبور).



الدعوة إلى الله في النخيل

لما نزلنا بالمدينة النبوية -على من شرفها الله به أفضل الصلاة وأزكى التحية- وجدت بها من مشاهير الشيوخ (ألفا هاشم) وهو من السودان المغربي وأظنه سنغاليًا وكان مقدمًا للطريقة التجانية، فكتبت صحيفة ضمنتها ثلاث عشرة مسألة من ضلالات التجانيين، وناولتها الشيخ عبدالله بن حسن؛ فلما قرأها اقشعر جلده منها وقال: أعوذ بالله أعوذ بالله أيوجد في الدنيا من يعتقد مثل هذا؟! فقلت: نعم وهو معك هنا في المدينة أحد كبار المدرسين في المسجد النبوي. فقال لي: من هو؟ قلت: (ألفا هاشم) ومعنى ألفا بلغة السودان: الفقيه، فكأنها مختصرة من كلمة الفقيه.

فدعا به فلما جلس ناوله الصحيفة فقال: اقرأ هذه الصحيفة؛ فقرأها، فقال له الشيخ: هل تعتقدون ما في هذه الصحيفة؟ فقال: يوجد في كتب طريقتنا كل ما ذكر في هذه الصحيفة، ولكن أنا لا أعتقد هذا. فقلت له: قل هذا حق أو باطل؛ فقال لي: إن الشيخ ليس محتاجًا إلى أن تعينه. فقال الشيخ عبدالله بن حسن - رحمه الله-: والله بل أنا محتاج إلى أن يعينني لأنه يعرف ضلالكم وأنا لا أعرفه. فاضطر (ألفا هاشم) إلى أن يقول: إن ذلك باطل، فقال له الشيخ عبدالله بن حسن - رحمه الله -: قد اعترفت الآن بأنك رئيس طريقة تشتمل على ضلالات؛ فتب إلى الله منها، فقال: أنا تائب إلى الله من كل ضلالة، فقال له الشيخ عبدالله ابن حسن: اكتب رسالة وبيّن فيها ضلال هذه الطريقة وأنك تبت إلى الله لنوزعها على أتباعك وغيرهم ليحذروها الناس. فقال: نعم. فقال له: إذا كتبت الرسالة فسلمها إلى محمد تقي الدين الهلالي لينظر هل هي وافية بالمطلوب؛ فإن وجدها كذلك يبعثها إليَّ وأن آمر بطبعها.

وقبل أن يسافر الشيخ عبدالله بن حسن -رحمة الله عليه- دعا أمير المدينة عبدالعزيز بن إبراهيم فجاءه إلى منزله بدار الضيافة فقال له: هذان الشيخان محمد الهلالي ومحمد بن عبدالرزاق نثق بعلمهما ودينهما، فعليك أن تشاورهما وتأخذ بنصيحتهما؛ فقال الأمير: «حبًا وكرامة. يقال: إذا رأيت الأمراء عند أبواب العلماء

فنعم العلماء ونعم الأمراء. فحقهما أن آتي إلى زيارتهما لأستشيرهما وأستفيد من علمهما ولكن أرجو من فضلهما أن يسامحاني في هذا الحق لكثرة أشغالي ويتفضلا بزيارتي».

وبعد خمسة عشر يومًا لقيت ألفا هاشم فقلت له: هل أتممت الرسالة التي أمرك الشيخ بتأليفها؟ فقال: ما أكملتها بعد فأمهلني. فانتظرت خمسة عشر يومًا أخرى، ولقيته فسألته فقال لي: الآن ما أتممتها. فحثثته على إتمامها برفق. فذهب إلى الأمير وقال له: نحن نعتقد أنك أمير هذا البلد وأنت الحامي فيه، وقد آذاني محمد تقي الدين الهلالي، وصار يتحكم فيّ ويأمرني وينهاني. فدعاني الأمير وقال لي: ما سبب الخلاف بينك وبين ألفا هاشم؟ فقلت له: ليس بيني وبينه خلاف وحكيت له القصة من أولها إلى آخرها فقال: أنا آخذ الكتاب منه وأبعثه إلى الشيخ. فقلت له: أنت لا تعرف ما يتضمنه الكتاب، وهل هو واف بالمطلوب أو غير واف إنما كلفني الشيخ عبدالله بن الحسن بقراءته قبل إرساله إليه لأني أعرف هذه الطريقة وأعرف ما يجب على التائب منها ما يقول؛ لأني كنت متمسكًا بها تسع سنين. وانصرفت من عنده ولم أطالب ألفا هاشم بعد ذلك بشيء ولم يؤلف شيئًا.

وهذا أول خلاف وقع بيني وبين الأمير ثم تلاه اختلاف كثير شاركني فيه رفيقي الشيخ محمد بن عبدالرزاق، فكنا إذا سمعنا بمنكر وقع وكان الجنود المكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يخبروننا بما يقع من الحوادث؛ فإذا رأينا تقصيرًا نذهب إليه وننصحه، فكان يتحمل ذلك على مضض واشمئزاز، ويقول في غيبتنا: هذان رجلان من المطاوعة (جمع مطوع كلمة تطلق على الفقيه والعالم في نجد) يشتغلان بالدروس في المسجد، فلماذا يتدخلان في شؤون الأمير وفي شؤون جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! (والتعبير المعتاد هيئة الأمر بالمعروف، وقد تركت هذا التعبير لأنه فاسد؛ لأن الهيئة هي الشكل كما قال تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وزاد في طينه بلة وفي طنبوره نغمة أن المكاتبة بيننا وبين الملك عبدالعزيز -قدس الله روحه- كانت متواصلة. ومن عادته -رحمة الله عليه- أنه إذا كتب لنا جوابًا يأمر الكاتب فيكتبه بآلة الكتابة ثم يأخذ صحيفة فيكتب فيها بضعة أسطر بخط يده يُسمّي فيها المرسَل إليه ويسلم عليه ويدعو له وهذه مزية لا نعلم أحدًا من الملوك كان يفعلها؛ فنسأل الله أن يثيبه في جنات النعيم. وكانت الأجوبة التي تأتينا من الملك عبدالعزيز

تصل إلينا بواسطة الأمير المذكور، فكان كلما جاءنا كتاب من الملك يصيبه المقيم المقعد ويغضب ويقول: ما شأن هذين الرجلين ومكاتبة الملك أهما من الأمراء؟! فيلتفت الأمير إلى الشيخ محمود شويل ويقول: يا محمود: ألا يمكنك أن تمون عليهما وتفتح الرسالتين؟! (ومعنى تمون تتجرأ وتنوب) فيقول الشيخ محمود: أصلح الله الأمير! إذا كنت أنت لا تستطيع أن تمون عليهما وأنت الأمير فكيف أستطيع أنا وأفتح رسالة الملك المرسلة إلى شخص بعينه؟! فيجيئنا الشيخ محمود شويل ويقول: إن الأمير مهتم بهاتين الرسالتين؛ فإن لم يكن فيهما شيء تخفيانه عنه، فأرجو أن تفرجا عنه بتمكينه من قراءتهما. فنعطيه الرسالتين، فيقرأ كل رسالة، يقرأ صحيفتيها المكتوبة بخط اليد والمكتوبة بالآلة، وتوسوس له نفسه بأنه يمكن أن تكون هناك صحيفة ثالثة لم ندفعها إليه.



الاختلاف مع الشيخ عبدالله بن بلهيد

ندع الآن خلافنا مع الأمير لنستأنفه فيما بعد ونذكر قصة طريفة وقعت بيننا وبين الشيخ عبدالله بن بلهيد -رحمة الله عليه- فإنه قصد المدينة ليصوم فيها رمضان سنة ١٣٤٧هـ، ولما كنت أنا أقوم بمراقبة المدرسين في المسجد النبوي ويعينني على ذلك رفيقي الشيخ محمد بن عبدالرزاق كان بعض المدرسين يجتمعون عندنا في مكتبة المراقبة وكان في غرفة فوق باب المجيدي فنتذاكر في مسائل العلم، فجرى ذكر مسألة الأرض هل هي كرة أو سطح؟ فبينّا لهم أنها كرة يقينًا، وذكرنا العلماء الذين نصُّوا على ذلك، ومنهم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم، فأسروها في أنفسهم؛ فلما جاء الشيخ عبدالله بن بلهيد، سألوه: هل الأرض كرة أو سطح؟ فقال: لا يقول أحد بأنها كرة إلا المعطلة الذين ينفون استواء الله على عرشه. فقالوا: إن مراقب التدريس محمدًا تقي الدين الهلالي ورفيقه محمد بن عبدالرزاق يقولان بذلك. فغضب غضبًا شديدًا.

فلما جئنا لزيارته رحَّب بنا، ثم قال: محمد ومحمد هؤلاء المدّعون للعلم من أهل الأمصار يزعمون أن الأرض كرة، ولا بد أن تكون لهم شبهة وأنتما تعلمانها فأخبراني بها. فقلنا له: سلمك الله! إن أقوى ما يستدلون به على كروية الأرض اختلاف الليل والنهار، فإن الشمس حتى في القطر الواحد تختلف في الشروق والغروب، ويبلغ اختلافها في القطر الكبير إلى ساعة بين مشرق ذلك القطر ومغربه، ومثال ذلك: أن الشمس تشرق في الرياض قبل المدينة بنحو نصف ساعة وتغرب في الرياض قبل المدينة بمثل ذلك. وقلنا له: واستدلوا على ذلك أيضًا بأن المسافر في البحر أول ما يرى من سفينة مقبلة رءوس أعمدتها المعروفة بالصواري ثم كلما دنت انكشف له الجزء الأسفل من العمود حتى تنكشف له السفينة كلها، وإذا كان في البر مقبلًا على بلد فيه نخل فأول ما يرى رؤوس النخيل ثم كلما تقدم انكشف له الأجزاء السفلى إلى أن ينكشف النخيل كله. وكان عندنا دليل آخر هو أوضح من هذا كله، ولكن خفنا أن نذكره له؛ وهو أن المسافر إذا سافر إلى الشرق على خط مستقيم أو شبه مستقيم واستمر في وجهته لا يغيرها يرجع إلى البلد الذي سافر منه.

فلما سمع كلامنا غضب غضبًا شديدًا، وقال: هذا كلام المعطلة فتوبا إلى الله منه ولم يقصدوا بهذا الكلام إلا أن يقولوا: لا إله فوق العرش!! وتشفى فينا المدرسون وكثر لغطهم وأخذوا يضحكون مِنّا، فقال بعضهم -يعنينا ومن يقول بقولنا-: هؤلاء القوم ليس لهم عقول لو كانت الأرض كرة سابحة في الفضاء، فلماذا لم تنصب هذه البحور ومياه الآبار؟ ولماذا لم تسقط الصخور والأحجار وكل ما على الأرض من حيوان وإنسان؟! وعلى قول هؤلاء يمشي الناس على وجه الأرض ورؤوسهم إلى أسفل. وكان المدرّسون يبغضوننا لأنهم كانوا يمرون بآيات التوحيد وأحاديث التوحيد مرور الكرام باللغو فلا يبينون للناس توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات، فكنت أدعوهم إلى المراقبة وأعظهم وأحذرهم من وعيد من كتم علمًا، ولكنهم كانوا مصرين على حيدتهم إلا من سأذكره فيما بعد.

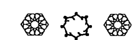
فانصرفت من عند الشيخ عبدالله بن بلهيد نادمًا على زيارته ومع أنه التمس مني أن أتعشى معه مدة رمضان، لكني لم أزره بعد ذلك. فجلت جولة في الكتب وكانت كثيرة عندي لأن خزانتي كانت قد وصلت إلي من العراق وهي حافلة بأصناف الكتب، وأصل هذه الخزانة خزانة الشيخ علي بن سليمان القصيمي الذي كان ساكنًا بالدورة إلى أن توفي -رحمة الله عليه- فوصلت أنا الدورة بعد وفاته فوهبنيها ورثته بإشارة من كبيرهم الشيخ حسن بن علي. قالوا: لأنه ليس فينا لسوء الحظ من يستطيع الانتفاع بهذه الكتب، ونحن نريد أن نهبك إياها رجاء أن ينفع الله بثواب هذه الهبة والدنا ولا تزال عندي بقايا من هذه الخزانة، وبعضها تلف بالنقل من بلد، إلى بلد وبعضها تلف بالبلى والقدم.

فوجدت أن شيخ الإسلام أبا العباس أحمد بن تيمية -قدس الله روحه- ذكر هذه المسألة في الرسالة العرشية ووضحها كل التوضيح، فبعد ما بين أن الأجرام السماوية كلها كروية الشكل، ذكر الأرض وأخبر أن كل جهاتها فوق وأسفل إنما هو وسط جوفها، وقال رحمه الله: فلو وضعت حجرًا في المشرق وحجرًا في المغرب ولم يجدا مانعًا من النزول هذا من المشرق وهذا من المغرب حتى يجتمعا في مركز الأرض؛ ولو جعلت بدل الحجرين إنسانين أحدهما يخترق الأرض من المشرق والآخر يخرقها من المغرب، لالتقت أقدامهما في المركز.

فخططت بالقلم الأحمر على هذا الكلام وبعثته إلى الشيخ عبدالله بن بلهيد فبلغني أنه ازداد غضبًا وقال: يا عجبًا للهلالي يريد أن يعرفني بما في كتب



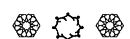
الشيخين: إن كلام الشيخين لا يفهمه كل الناس؛ لأن فيه إطلاقًا وتقييدًا وخصوصًا وعمومًا وإجمالًا وتفصيلًا، وأنا أشتغل بدراسة كتب الشيخين منذ كنت مثل هذا الورع وأشار إلى صبي صغير (وأهل نجد يسمون الغلام ورعًا). ثم أخذت أبحث في كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم -رحمه الله- فوجدته نص على أن الأرض كرة نصًا لا يحتمل تأويلًا وعلّل اختلاف الليل والنهار في البلدان المختلفة بكروية الأرض، فبعثته إليه مع الشيخ محمد بن عبدالرزاق فلما أعطاه الكتاب قرأ كلام ابن القيم مرارًا ثم قال له: إن كانت الأرض كرة في الجهة الأخرى التي لسنا فيها فذلك ممكن، أما الجهة التي نحن فيها فنحن نشاهدها سطحًا. وسكن غضبه عليَّ ولكن لم يعترف، ثم لقيت بعد ذلك الشيخ الجليل مقدم آل الشيخ وكبيرهم وعالمهم في عصره أعني الشيخ محمد بن عبداللطيف -رحمة الله عليه- فقال لي: بلغني ما وقع بينك وبين ابن بلهيد وهو مخطئ وإياك أن تعتقد أن علماء أهل نجد كلهم على رأيه فإن عندي ثلاثة كتب للشيخين في كل واحد منها ما يكفي ويشفي للدلالة على أن الأرض كرة.



الشيخ الطيب التنبكي

تقدم أن المدرسين كانوا يحيدون عن بيان الحق في مسائل التوحيد وكانوا يتعصبون لمذاهبهم كل التعصب، وكان الشيخ الطيب -رحمة الله عليه- حين جئنا إلى المدينة أنا ورفيقي الشيخ محمد بن عبدالرزاق المصري مولدًا ونشأة، السعودي مستوطنًا ودارًا -نسأل الله له الشفاء- كان الشيخ الطيب متمسكًا بالطريقة القادرية وبعقيدة المتأخرين من الأشعرية، ومتعصبًا للمذهب المالكي، وكان لا يطيل الجلوس معنا، ولكنه كان يبعث إلينا تلميذه الشيخ عبدالله بن محمود وكان في ذلك الوقت شابًا لم تستدر لحيته، وكان يأتينا كل يوم بمسائل يلقيها علينا فنجيبه عنها فيحمل الجواب إلى أستاذه ومضى على ذلك مدة تقارب ستة أشهر، وعند ذلك جاءنا الشيخ الطيب وقال لنا: إنني فكرت في أجوبتكما فوجدت أن ما تدعون إليه هو الحق وأشهدكما أني تركت كل ما كنت عليه من طريقة وعقيدة أشعرية وتعصب للمذهب. ففرحنا بذلك فرحًا عظيمًا.

وكان المدرسون من أهل المدينة يأخذون ستة دنانير ذهبًا أو ما يعادلها بسعر الوقت أَرِيلَة فضية، وكنا نحن نأخذ عشرة دنانير، لكل واحد منا فكتبنا إلى ولاة الأمر -رحمهم الله- وقلنا لهم: إن الشيخ الطيب الأنصاري التنبكي ترك ما كان عليه ورجع إلى عقيدة السلف فنرجو أن يُعطى راتبًا كرواتبنا. فجاء الجواب بالموافقة -وقد نسيت الآن هل كتبنا للملك عبدالعزيز نفسه أو لمن دونه- وصار يأخذ عشرة دنانير ذهبًا وكانت المعيشة في المدينة رخيصة تكفي أهل البيت بعيالهم وضيوفهم ثلاثة دنانير في الشهر يعيشون بها عيشة راضية وثبت الشيخ الطيب على العقيدة السلفية إلى أن جاءه الأجل، فرحمه الله رحمة واسعة، وقد أخبرني بعض الإخوان أنه اختصر تفسير ابن جرير وأن اختصاره هذا موجود، فنسأل الله أن يوفق أهل الفضل والإحسان وفي مقدمتهم إمامهم جلالة الملك فيصل لطبع هذا الكتاب.



الشيخ محمود شويل

لما وصلنا إلى المدينة كان الشيخ محمود شويل خرافيًا ومتعصبًا للمذهب المالكي أشد التعصب، كنا نفطر صباحًا في بيتي، فأخذ يذكر فضائل الإمام مالك -رحمه الله- ويدعي أنه لا نظير له في الأئمة، ولا أحد يكاد يبلغ منزلته في العلم والفضل؛ فقلت له: إن البخاري أعلم منه؛ لأن كل حديث صحيح رواه مالك يعرفه البخاري ويزيد على ذلك بآلاف الأحاديث. فغضب غضبًا شديدًا وترك الأكل وقال في البخاري كلامًا قبيحًا لا يحسن ذكره، واستمر على مجالستنا إلى أن تخلص من عقيدته وخرافاته وتعصبه للمذهب، وأخبرته بوجود شيخ سلفي من كبار العلماء له تآليف وهو الشيخ حسن عبدالرحمن من أغنياء مصر له مزارع كثيرة بين دمنهور والإسكندرية لا أذكر اسم بلدته الآن، فكتب إليه الشيخ محمود شويل يلتمس منه شيئًا من كتبه التي ألفها في الدعوة إلى السلفية، وقال له في كتابه إليه: الشيخ محمد بن عبدالرزاق والشيخ محمد تقي الدين الهلالي وثالثهم كلبهم محمود شويل.

فبعث إليه الشيخ حسن عبدالرحمن -رحمة الله عليه- ما طلب من الكتب، وقال له في جواب كتابه ما نصه: يظهر أنك داخل في المقدر من جديد؛ لأن المؤمن لا ينزل بنفسه إلى أن يصير كلبًا. وبالغ الشيخ محمود شويل في التمسك بالتوحيد والسنة، وكانت فيه حدة شديدة، فأخذ في كل يوم يتخاصم مع الناس إذا سمعهم يشركون بالله أو يبتدعون في الدين، فكثرت به الشكايات إلى الأمير فاتخذه مستشارًا علميًا ليشغله عن الخصومات، ولكن ذلك لم يمنعه مما كان عليه من الشدة حتى نفي إلى نجد أكثر من مرة.



الخروج إلى البادية

كنت قد طلبت من الشيخ عبدالله بن حسن رئيس القضاة -تغمده الله برحمته- أن أخرج إلى القرى والبوادي للدعوة إلى الله تعالى في بعض الأحيان، فاستحسن ذلك كل الاستحسان وأمر الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم أن يهيّئ لي راحلتين ورجلًا يرافقني فأجاب إلى ذلك ووعد به، فلما طالبته بالوفاء اقترح علي أن أذهب إلى الجرف والعوالي، ولم يكن غرضي ذلك؛ لأن أهل هذه القرى شيعة لا يكادون يقبلون شيئًا من واعظ سني، وإنما كان مرادي التوجه إلى البوادي السنية في ناحية الحناكية وغيرها من قبائل حرب، وكان بعضهم متدينًا وبعضهم لا يزال على الجاهلية الأخرى، فأخبرت بذلك الأمير فقال: ابدأ بالأقربين وبعد ذلك أهيّئ لك السفر إلى غيرهم. واخترت الشيخ الحميدي بن - رديعان أحد الأئمة في المسجد النبوي - وكان شيخًا صالحًا من أهل حائل لمرافقتي، فذهبنا إلى القرى المحيطة بالمدينة فلم نجد أحدًا منهم تأثر بدعوتنا إلا رجلًا في الجرف وأظنه كان سنيًا؛ أما الباقون فإنهم كانوا يضيفوننا ولا يظهر عليهم أثر القبول.

وكررت الطلب على الأمير أن يهيّئ لي أسباب السفر إلى الحناكية ونواحيها فكان يماطل، فاتفقت مع الأمير ماجد بن موقد أمير عوف القاطن في قرية النخيل وسافرت معه إلى النخيل بدون استئذان الأمير وبقيت هناك زهاء شهر. وأشهد بالله أنني ما مرت عليّ في حياتي كلها أيام صفا فيها قلبي وازداد إيماني وإقبالي على ذكر الله تعالى مثل تلك الأيام. وكانت معيشتهم في غالب الأوقات بل في كلها اللبن المخيض فقط إلا إذا جاءهم ضيف، فإنهم يذبحون له ذبيحة، ويبحثون عن شيء من الأرز من أردأ أصنافه فيطبخونه نصف طبخ فلا أستسيغه، وكذلك اللحم يطبخونه نصف طبخ؛ ولكني كنت آكل من الألية؛ لأنها تنضج بأدنى طبخ، ومع ذلك كانت عندي تلك المعيشة أحسن من موائد الأمراء والمترفين، وسأشير إلى ذلك في القصيدة الآتية إن شاء الله.

ولما سمع الأمير بسفري، غضب غضبًا شديدًا ولعنني ولعن قبيلة بني هلال كلها؛ توهمًا منه أنني أنتسب إليها، وأنا إنما أنتسب إلى هلال؛ وهو الجد الحادي

عشر من ذرية الحسين بن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- وقال للشيخ محمود شويل: يا محمود، قل له إذا رجع لا يمسك ورقة ولا يجلس في المسجد، وقل لمحمد بن عبدالرزاق لا يجعله نائبًا عنه في الصلاة أبدًا، فلما رجعت زرته ومعي الأمير ماجد بن موقد وأخبرته أن رحلتي إلى النخيل كانت بإذن وحث وترغيب من رئيس القضاة الشيخ عبدالله بن حسن وهو يعلم ذلك فلم يقل شيئًا.

واستمر الأمر على تلك الحال مدة سنتين، فضاق الأمير بنا ذرعًا ونفد صبره، فدعانا ذات يوم إلى قصره بعد صلاة الظهر وكانت العادة أن تكون الضيافة في الطبقة الأولى، ولكنه صعد بنا إلى الطبقة الرابعة التي يسكن فيها عياله، ووضع لنا تمرًا وجحًا - وهو الحبحب بلغة أهل الحجاز - ولبنًا وقال لنا: هذا طعامنا معشر أهل نجد في النهار. ثم قال: أنا ما دعوتكما للطعام ولكن دعوتكما لأخبركما بأني لا أشك في صحة عقيدتكما وأنكما تريدان الخير ولكنكما تجاوزتما الحد في الشدة، وأنتما تسمعان كلام الملك في مجالسه العامة وتفهمان منه شيئًا ونحن نسمع كلامه في المجالس الخاصة وفي الرسائل ونفهم منه شيئًا آخر؛ فعلى أي شيء نعمل على فهمنا أم على فهمكما؟! فقلنا له: إن كان الأمر كذلك ينبغي أن تعملوا على فهمكم. فقال: إذًا فتلطفا واتركا الشدة وكلامًا طويلًا من هذا القبيل ثم انصرفنا من عنده.

وكان يعني بالكلام الذي يقوله الملك في المجالس العامة ما كان يلهج به -رحمة الله عليه- إذا اجتمع عنده مشايخ العلم وهو قوله: أيها العلماء مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فقد أخذت هذه الأمانة من عنقي ووضعتها في أعناقكم وأول من تبدؤون به في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنا ثم أهل بيتي ثم عامة الناس.

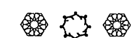
فلم نصدقه في قوله واعتقدنا أنه أراد أن يخدّر أعصابنا بذلك الكلام الباطل واستمررنا على خطتنا، فتهيأ هو للانتقام وعرف ذلك أخوه العالم الصالح الشيخ محمد ابن إبراهيم -رحمة الله عليه- فدعانا وقال لنا: أُشهد الله على محبتكما. وكأنه يتنصل بذلك ويتبرأ مما يبيته أخوه، وكذلك العالم الورع الشيخ عمر بن سليم -رحمة الله عليه- حذرنا من مكائد الأمير.

فأما الشيخ محمد بن عبدالرزاق فكاد له كيدًا عظيمًا وكان -والحق يقال- أشد وأعنف عليه مني، وذلك أنه كتب إلى الملك عبدالعزيز -رحمه الله- يقول: إن محمد بن عبدالرزاق لا يطاق بقاؤه فقد كرهه سكان المدينة لغلظته وشدته، وبلغ به التهور إلى أن وقف على المنبر وقال: لعنة الله عليكم يا أهل المدينة! كلكم كفار.

وهذا بهتان عظيم؛ فإني كنت جالسًا عند المنبر أستمع الخطبة التي زعم أنه قال ذلك فيها وكانت من خطب شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب بدون زيادة إلا ما جرت به العادة من الدعاء في آخر الخطبة الثانية، فجاءت برقية من الملك تأمر الشيخ عبدالرزاق بالتوجه إلى مكة ليكون واعظًا في المسجد الحرام كما كان من قبل.

أما أنا فكتب في شأني إلى الملك عبدالعزيز وأخبره أني مشوش منفر قال: ولم يكفه اطلاع الإخوان الذين يزورونه في المدينة، على ما يزعم أنه من تقصير الحكومة حتى سافر إليهم في النخيل وجرأهم على انتقاد ولاة الأمر. وكان سبب غضبه علي أنه لم يكن يريد أن أتصل بقبائل حرب؛ لأنهم كانوا يشتكون غلظته وشدته وظلمه في أخذ الزكاة وغيرها من الأحكام، فظن أنني ذهبت لأعرف ما ينتقد عليه وأكشفه، ويعلم الله أني كنت في واد وهو في واد وأن الوقت الذي قضيته عندهم كان كله في ذكر الله ومجالس العلم والوعظ والإرشاد، ولم أر مدة إقامتي عندهم منكرًا حتى تمنيت أنني أبقى عندهم في ذلك الجو الرباني الصافي من كل الأكدار ولم أفكر قط في التدخل في شؤون الأمير.

ولما كتبت بذلك إلى الملك عبدالعزيز -رحمه الله- أنتظر أن تأتيني برقية تدعوني إلى مكة كما وقع لرفيقي فلم يأتني شيء، فأمر وكيل المالية الشيخ عبدالعزيز الخريجي أن لا يدفع لي راتبًا، وحان وقت الحج فمرّ بنا الشيخ محمد بن عبداللطيف -رحمة الله عليه- فسافرت معه إلى مكة، وطلبت النقل إلى التدريس في المسجد الحرام فأجابني إلى ذلك الشيخ عبدالله بن حسن وطيب خاطري بكلام حسن، أسأل الله أن يجزيه عني خيرًا في دار القرار، وكان ذلك آخر العهد بالمدينة إلى أن ردني الله إليها بدعوة من صاحب السماحة العالم الصالح الورع الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز قبل ثلاث سنين زاده الله من فضله وأعلى درجته وجعله من الصديقين!.



ذكر ما قلته من الشعر أيام إقامتي الأولى في المدينة.. (اللامية)

أَصْبَحَ قَوْلُ الْحَقِّ فِي طَيْبَةَ ... مِثْلَ يَتِيمٍ مَا لَهُ كَافِلُ
أَنْصَارُهُ مُسْتَضْعَفُونَ عَلَى ... قِلَّتِهِم وَضِدُّهُم صَائِلُ
مَنْ يَأْمُرَنَّ بِالْعُرفِ أَوْ يَنْهَ عَنْ ... نُكْرٍ يَغِلْهُ مِنْهُمُ غَائِلُ
يَكِيْدُهُ زَعِيمُهُمُ مِثْلَ مَا ... يَكِيْدُهُ الْسُّوْقَةُ وَالْسَّافِلُ
وَذَنْبُهُ عِنْدَهُمُ جَلَّ أَنْ ... يَشْمَلَهُ مِنْ عَفْوِهِمْ شَامِلُ
إِذْ كُلُّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمُ دُونَ ذَنْبِ ... مَنْ يَغَارُ إِنْ بَدَا بَاطِلُ
وَيَرْمُقُونَهُ بَأَبْصَارِهِمُ ... شَزَرًا وَفِيْهَا حِقْدُهُمُ جَائِلُ
وَإِنْ رَأَى شِرْكًا وَأَنْكَرَهُ ... بِالْقَوْلِ فَهْوَ الْظَّالِمُ الْعَائِلُ
قَدْ عَكَسُوا حُكْمَ إِلَهِ الْوَرَى ... فِي الْشِّرْكِ بِئْسَ الْفِعْلُ وَالْفَاعِلُ
اللهُ يَغْفِرُ الْذُّنُوبَ مَعًا ... وَهْوَ لِكُلٍّ تَائِبٍ قَابِلُ
إِلَّا الَّذِي قَدْ جَاءَ بِالْشِّرْكِ فَهُو ... آيِسٌ مِنْ عَفْوِهِ عَاطِلُ
لأَنَّهُ أَكْبَرُ ذَنْبٍ وَرَدْ ... أَوْ مُنْكَرٍ يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ
إِنْكَارُهُ الْتَّوْحِيْدَ حَتْمًا فَمَنْ ... أَقَرَّه فَدِيْنُهُ بَاطِلُ
وَيَنْصُرُ الْشَّرْكَ عَلَى عِلْمِهِ ... بِسُوءِ عُقْبَى مَنْ لَهُ مَائِلُ
إِنْ جَاءَهُ مُسْتَنْصِرًا صَالِحٌ ... شَاكٍ لَهُ لِنُصْرِهِ آمِلُ
قَدْ غَرَّهُ بِزَعْمِهِ أَنَّهُ ... مُحَقِّقٌ دِيْنُ الْهُدَى كَامِلُ
يَكُنْ كَمَنْ قَدِ اسْتَجَارَ بَعَمْرِوِ ... فَأَتَاهُ حَتْفُهُ الْعَاجِلُ

يَـأْمُـرُ بِـالـرِّفْـقِ وَبِـالـلِّيـنِ فِـي حَـقِّ الإِلَهِ صَـفْـحُـهُ شَـامِـلُ
وَمَـنْ يَـرُمْ مِـنْ حَـقِّـهِ ذَرَّةً فَـهْـوَ عَـلَيْـهِ ضَـيْـغَـمٌ صَـائِلُ
لَا سَـامِـعٌ عَـذْلًا وَلَا رَاحِـمٌ ضَـعْـفًـا وَلَا شِـكَـاتِـهِ قَـابِـلُ
يَـسْـلُبُ مَـنْ يَـأْمُـرُ بِـالْعُـرْفِ حَقًّا قَـدْ حَـبَـاهُ الْمَـالِكُ الْعَـادِلُ
وَيَـسْـتَـبِـدُّ بِـالأُمُـورِ مَـعًـا حَـتَّـى الْقَـضَـا فَـهْـوَ بِـهِ دَاخِـلُ
إِنْ وَافَـقَ الْحُـكْـمَ هَـوَاهُ مَـضَـى أَوْ لَا يَـحُـلْ مِـنْ دُونِـهِ حَـائِلُ

قصة ابن منصور:

وَيْـحَ ابْـنَ مَـنْـصُـورٍ غَـدَاةَ أَتَـاهُ وَهْـــوَ لانْـتِـصَـــارِهِ آمِـــلُ
الرَّافِـضِـيُّ خَـصْـمُـهُ طَـالِبٌ تَـعْـزِيـرَهُ بِـكَـيْـدِهِ عَـامِـلُ
الرَّافِـضِـيُّ قَـالَ: يَـا سَـيِّـدِي إِنَّـكَ أَنْـتَ الْحَـاكِـمُ الْفَـاضِـلُ
كُـنْـتُ أَسِـيـرُ فِـي طَـرِيـقٍ قِـبَـا وَشُـرْبُ تَـتْـنٍ شُـغْـلِيَ الشَّـاغِـلُ
فَـجَـاءَنِـي هَـذَا بِـظُـلْـمٍ فَـقَـالَ: أَلْقِ هَـذَا التَّـتْـنَ يَـا جَـاهِـلُ
قُـلْتُ لَهُ: دَعِ الْفُـضُـولَ وَرُحْ مِـثْـلُكَ مَـا أَنَـا بِـهِ حَـافِـلُ
تَـنَـاوَلَ التَّـتْـنَ وَأَلْقَـاهُ مِـنْ يَـدِي فَـبِـي مِـنْ فِـعْـلِهِ خَـابِـلُ
وَهَـذِهِ يَـا سَـيِّـدِي قِـصَّـتِـي فَـاحْـكُـمْ فَـإِنَّ حُـكْـمَـكَ الْفَـاصِـلُ
قَـالَ: الأَمِـيـرُ لابْـنِ مَـنْـصُـورٍ هَـلْ وَقَـعَ مَـا قَـدْ قَـالَ ذَا الْقَـائِلُ
قَـالَ: نَـعَـمْ سَـلَّمَـكَ الـلَـهُ مَـا ذَكَـــرَهُ فَـكُـلُّهُ حَـاصِـــلُ
وَقَـادَنِـي لَكَ فَـقُـلْتُ لَهُ: تَـسْـعَـى إِلَى حَـتْـفِـكَ يَـا سَـافِـلُ
وَالْيَوْمَ ظَنِّي فِيكَ أَنْ تُعْلِيَ الْحَقَّ وَأَنْ يَـنْـخَـفِـضَ الْبَـاطِـلُ
مَـا كَـانَ مِـنْ أَمْـرِ الأَمِـيـرِ سِـوَى رُكُـوبُ عَـارٍ مَـا لَهُ غَـاسِـلُ
إِلَّا بِـتَـوْبَـةٍ نَـصُـوحٍ، وَحُـبُّ الْجَـاهِ سَـــدَّ دُونَـهَـا حَـــائِلُ
تَـنَـاوَلَ الْعَـصَـا وَأَمْـعَـنَ فِـي ضَـرْبِ فَـتًـى عَـنِ الأَذَى غَـافِـلُ

وَهْوَ إِمَامُ مَسْجِدٍ طَالِبٌ … لِعِلْمِ حَقٍّ وَبِهِ عَامِلُ

ضيم الحق:

خَدَشَ وَجْهَ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ … حَتَّى دَمُهُ سَائِلُ

ضَرْبُ الْمُوَحِّدِ لإِرْضَاءِ ذِي الرَّفْضِ … بَلاءٌ غَمُّهُ طَائِلُ

نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ نُصْحًا لَهُ … يَوْمَئِذٍ شَقِيقُهُ الْفَاضِلُ

قَالَ لَهُ: خَفِ الإِلَهَ فَذَا … أَمْرٌ عَظِيمٌ شَرُّهُ هَائِلُ

ضَرْبُكَ مَنْ يَأْمُرُ بِعُرْفٍ فِي … طِيبَةَ لَا يَرْضَى بِهِ عَاقِلُ

فرح الفساق وحزم أهل الحق:

يَا فَرْحَةَ الْفُسَّاقِ يَوْمَئِذٍ … طَرًّا بِمَا ارْتَكَبَهُ الْعَامِلُ

وَحُزْنُ أَهْلِ الْحَقِّ إِنَّهُم … مِنْ ذَا الْمُصَابِ كُلُّهُم ذَاهِلُ

وَذَا نَمُوذَجٌ لأَفْعَالِهِ … وَجُلُّهَا عَنِ الْهُدَى مَائِلُ

تَلَوُّنُ الْحِرْبَاءِ فِي قَوْلِهِ … وَفِعْلِهِ لَا حَبَّذَا الْفَاعِلُ

فَأَيْنَ رِفْقُهُ بَلَى إِنَّهُ … لِلْمُجْرِمِينَ وَحْدَهُمْ شَامِلُ

لَكِنَّ أَهْلَ الأَمْرِ بِالْعُرْفِ لَا … يَنَالُهُم مِنْ رِفْقِهِ نَائِلُ

رَفَقَ بِذِي شِرْكٍ وَذِي بِدْعَةٍ … وَذُو الرَّشَادِ لَيْسَ يَسْتَاهِلُ

وَحَسْبُهُ مِنْ رِفْقِهِ أَنَّهُ … بِسَوْطِهِ لِرَأْسِهِ صَامِلُ[1]

كَأَنَّ ذَا الْمَغْرُورَ يَحْسِبُ أَنَّ … اللَّهَ عَنْ أَعْمَالِهِ غَافِلُ

بَاعَ الْهُدَى بِعَرَضٍ عَاجِلٍ … وَعَنْ قَرِيبٍ كُلُّهُ زَائِلُ

مَنْ بَاعَ بِالْعَاجِلِ آجِلَهُ … يَفُوتُهُ الْعَاجِلُ وَالآجِلُ

لَمْ يَعْتَبِرْ مَا قَالَ خَيْرُ الْوَرَى … يَا حَبَّذَا الْمَقُولُ وَالْقَائِلُ

---

(١) صَمَله بالعصا صَمْلًا: إذا ضربه.

مَنْ يُحْدِثُ الْحَدَثَ فِي طِيبَةَ   عَلَيْهِ لَعْنُ رَبِّهِ نَازِلُ
وَلَعْنَةُ الأَمْلَاكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيـ   ـنَ قَدْ صَحَّحَهُ النَّاقِلُ
مَهْمَا أَتَى بِمُنْكَرٍ مُوبِقٍ   يَقُلْ كَذَا أَمَرَنِي الْعَاهِلُ
وَإِنْ أَتَاهُ الأَمْرُ مِنْهُ بِإِصْلا   حٍ فَمَا هُوَ بِهِ عَامِلُ
مُعْتَذِرٌ بِأَنَّهُ قَدْ يَرَى الشَّاهِدُ   مَا يَجْهَلُهُ الرَّاحِلُ

تبرئة الإمام:

حَاشَا إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فَلا   يَرْضَى بِمَا يَفْعَلُ ذَا الْخَاتِلُ
قَوَّامُ لَيْلٍ خَائِفٌ رَبَّهُ   فَوْقَ الَّذِي يَأْمُلُهُ الآمِلُ
ذُو ذِلَّةٍ عَلَى الأُلَى آمَنُوا   وَعِزَّةٍ إِذَا اعْتَدَى الْجَاهِلُ
نُورُ الْهُدَى بِوَجْهِهِ لَائِحٌ   مَا هُوَ مَخْسُوفٌ وَلَا آفِلُ
مَنْ يَرَهُ بَدِيهَةً يُحِبُّهُ   بَدْرٌ عَلَاهُ مُشْرِقٌ كَامِلُ
سُبْحَانَ مَنْ أَلْبَسَهُ حُلَّةً   مِنْ فَضْلِهِ فَهُوَ بِهَا رَافِلُ
مِنْ مُعْجِزَاتِ الْمُصْطَفَى   أَمْرُهُ لأَنَّهُ بِهَدْيِهِ عَامِلُ
يَا أَوْحَدَ الأَمْلَاكِ يَا أَوَّلَ السَّبْـ   ـعَةِ يَا مَنْ بِرُّهُ هَاطِلُ
عَبْدُالْعَزِيْزِ الْعَلَمُ الْفَرْدُ مَنْ   عَزَّ بِهِ دِيْنُ الْهُدَى الْكَامِلُ
ابْنُ سُعُودٍ سَعِدَ النَّاسُ مُنْـ   ـذُ بَدَا لَهُم فَغَمُّهُم زَائِلُ
تَشْكُو إِلَيْكَ طَيْبَةٌ أَمْرَهَا   فَالدِّيْنُ فِيهَا مَا لَهُ كَافِلُ
أَزْكَى سَلَامٍ طَيِّبٍ كَامِلٍ   إِلَيْكُمُ مِنْ رَبِّنَا وَاصِلُ
يَرْوِي عَنِ الرِّيَاضِ عَنْ زَهْرِهَا   إِلَى الرِّيَاضِ طِيْبُهُ حَامِلُ

(تمت اللامية)

❁ ✣ ❁

التائية

يُحَرِّكُنِي لِلشِّعْرِ مِنْ بَعْدِ تَرْكِهِ سِنُونَ هُمُومٍ أَكْثَرَتْ زَفَرَاتِي
أَرَى كُلَّ يَوْمٍ مُنْكَرَاتٍ كَثِيرَةً يُقَطِّعُ نَفْسِي رَأْيُهَا حَسَرَاتِ
فَنَادَيْتُ فِي كُلِّ النَّوَادِي مُؤَذِّنًا بِنُصْحٍ وَكَمْ رَهَّبْتُهُم بِعِظَاتِ
أَيَا قَوْمَنَا هُبُّوا مِنَ النَّوْمِ أَنْكِرُوا وَغَارُوا عَلَى هَتْكٍ لِذِي الْحُرُمَاتِ
أَلَا غَاضِبٌ لِلَّهِ يَحْمِي حُدُودَهُ أَلَا قَائِمٌ بِالْحَقِّ خِلْفُ ثُبَاتِ[1]
أَلَا بَاذِلٌ لِلَّهِ نَفْسًا كَرِيمَةً وَعِرْضًا مَصُونًا أَصْدَقَ الْبَذْلَاتِ
يَصِيحُ يَا أَهْلَ الشِّرْكِ وَالْفِسْقِ صَائِلًا كَزَأْرَةِ ضِرْغَامٍ عَلَى حُمُرَاتِ
وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ بِالصِّدْقِ دَعْوَةً مُعَزَّزَةً مَحْمِيَّةً بِظُبَاتِ[2]
يَسُلُّ عَلَى أَهْلِ الْعُقُولِ لِسَانَهُ كَسَيْفٍ صَقِيلٍ صَادِقِ اللَّهَجَاتِ
يَشُنُّ عَلَى أَهْلِ الْبَدَائِعِ غَارَةً فَيَحْصُدُ مَا أَبْدَوا مِنَ الشُّبُهَاتِ
وَيَخْطُبُ فِي التَّوْحِيدِ يُبْدِي مَحَاسِنًا تَفِيضُ لَدَيْهَا الْعَيْنُ بِالْعَبَرَاتِ
يُجِيبُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ لَبَّيْكَ دَاعِيًا يَخِفُّونَ وُحْدَانًا لَهُ وَثُبَاتِ
وَمَنْ قَدْ أَبَى إِلَّا ضَلَالًا فُؤَادُهُ مُصِرًّا عَلَى الْإِشْرَاكِ وَالْبِدْعَاتِ
وَيَزْرِي عَلَى التَّوْحِيدِ إِمَّا مُصَرِّحًا وَإِمَّا بِتَعْرِيضٍ بِمُشْتَبِهَاتِ
مُكِبًّا عَلَى نَشْرِ الضَّلَالَةِ مُوضِعًا إِلَى الشِّرْكِ يَهْوَى الْخَبْطَ فِي الظُّلُمَاتِ
فَذَلِكَ حَدُّ السَّيْفِ أَشْفَى لِدَائِهِ وَإِلَّا فَسَوْطٌ مُؤْلِمُ الضَّرَبَاتِ
وَإِلَّا فَحَبْسٌ فِي السُّجُونِ مُخَلَّدًا وَإِلَّا فَنَفْيٌ مُؤْذِنٌ بِشَتَاتِ

---

(١) ثبات: مفردها: ثُبة، وهي الجماعة.

(٢) مفردها: ظبة، أي حَدُّ السيف.

وَإِلَّا فَـرَفْـعٌ لـلإِمَـامِ بِـشِـرْعَـةٍ   يَـرَى فِـيـهِ رَأْيًـا صَـادِقَ الْعَـزَمَـاتِ
وَإِلَّا فَـقَـدْ خُـنْـتُـمْ أَمَـانَـةَ رَبِّـكُـمْ   وَخُـنْـتُـمْ لِخَـيْـرِ الْخَـلْقِ كُـلَّ وُصَـاةِ
وَخُنْتُمْ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ بِغِشِّكُمْ   وَقَدْ أَوْجَبَ الرَّحْمَنُ نُصْحَ وُلاةِ
وَخُنْتُمْ عِبَادَ اللهِ سِرًّا وَجَهْرَةً   وَكُنْتُمْ لِمَا تَرْعَونَ شَرَّ رُعَاةِ
فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ عَنْكُمُ   تَعَالَى عَنِ الإِهْمَالِ وَالْغَفَلاتِ
أَلَمْ تَسْمَعُوا إِيعَادَهُ فِي كِتَابِهِ   لِمَنْ لَا يُزِيلُ النُّكْرَ بِاللَّعَنَاتِ
بَلَى قَدْ سَمِعْتُمْ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ   وَلَكِنَّكُمْ سَاهُونَ فِي الْغَمَرَاتِ
أَغَرَّكُمُ إِمْهَالُهُ فَطَغَيْتُمُ   وَصَارَتْ قُلُوبٌ مِنْكُمُ صَخَرَاتِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَيْحَكُمْ قَدْ هَلَكْتُمُ   وَإِنَّ الَّذِي قَدْ تُوعَدُونَ لآتِ
وَلَيَأْتِيَنَّكُمُ عَمَّا قَرِيبٍ تَرَوْنَهُ   سَرَابًا وَلَا يَبْقَى سِوَى الْحَسَرَاتِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَيْحَكُمْ قَدْ بُلِيتُمُ   وَلَا يَفْتِنَنَّكُمُ زُخْرُفُ الشَّهَوَاتِ
فَتُوبُوا إِلَى الرَّبِّ الْغَفُورِ وَأَصْلِحُوا   وَأُوبُوا لِنَهْجِ الرُّشْدِ قَبْلَ فَوَاتِ
لَعَمْرِي لَقَدْ نَبَّهْتُ مَنْ كَانَ نَائِمًا   وَأَيْقَظْتُ مَنْ يُصْغِي إِلَى كَلِمَاتِي
فَيَا عَجَبًا مِنْ نَاصِرٍ لِضَلَالَةٍ   وَخَاذِلِ لِدِينِ الْحَقِّ فِعْلَ غُوَاةِ
وَمِنْ بَائِعٍ رُشْدًا بِغَيٍّ سَفَاهَةً   وَلَمْ يَكُ ذَا جَهْلٍ بِمَا هُوَ آتِ
مُخَادِعُ دِينِ اللهِ سَاعٍ لِهَضْمِهِ   بِكَيْدٍ عَظِيمٍ مُحْكَمِ الشُّبُهَاتِ
أَلَمْ يَدْرِ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ جَهْرَهُ   وَقَاذِفُ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي الْهَلَكَاتِ
وَيَلْبَسُ مِسْكَ[1] الْكَبْشِ سَيِّدُ عَمَلَّسٍ[2]   لِتَأْمِينِ أَغْنَامٍ وَخَدْعِ رُعَاةِ
فَكَمْ خَدَعَ الرَّاعِي وَعَاثَ بِضَأْنِهِ   فَيَا ضَيْعَةَ الْخِرْفَانِ وَالنَّعَجَاتِ
وَيَا ضَيْعَةَ الدِّينِ الَّذِي صَارَ لُعْبَةً   بِأَيْدِي طِغَامٍ فِي الشُّرُورِ سُعَاةِ

(١) مِسْك: جلد.
(٢) أي ذئب مخادع.

وَإِنْ هُمْ دُعُوا لِلْعُرْفِ أَوْ نَفْيِ مُنْكَرِ ... تَوَلَّوْا وَحَاصُوا حِيصَةَ الْحُمُراتِ
وَصَدُّوا عَنْ الدَّاعِي وَعَدُّوهُ أَحْمَقًا ... ثَقِيلًا بَلِيدَ الطَّبْعِ غَيْرَ مُؤَاتِ
يَخُوضُ بِأَمْرٍ لَيس يَعْنِيهِ سَاعِيًا ... إِلَى حَتْفِهِ جَهْلًا بِغَيْرِ حَصَاةِ
وَقَالُوا لَهُ ذَا لَيس شَأْنَك فَانْتَهِ ... وَإِلَّا تُلَاقِي عَاجِلَ النَّكَبَاتِ
فَمَا أَنْتَ وَالأَمْرُ الَّذِي لَسْتَ أَهْلَهُ ... هَذَيْكَ يَا مِسْكِيْنُ فُزْ بِنَجَاةِ
فَنَحْنُ وُلَاةُ الأَمْرِ فَوْقَكَ حُكْمُنَا ... وَنَحْنُ اصْطُفِينَا لاعْتِلا الرُّتْبَاتِ
وَأَنْتَ لِحُمْقٍ فِيكَ أُبْقِيتَ مُهْمَلًا ... وَلَمْ تَكُ أَهلًا لارْتِقَا الدَّرَجَاتِ
فَدُمْ فِي خُمُولٍ وَاسْتَعِدَّ لِمِحْنَةٍ ... مُعَجَّلَةٍ مِنْ أَعْظَمِ المِحْنَاتِ
وَقَالُوا تَعَالَوْا دَبِّرُوا فِي مَكِيْدَةٍ ... لِنُوقِعَ ذَا الْمَجْنُونَ فِي الْهَلَكَاتِ
تَعَالَوْا فَشُوا[1] عِنْدَ الإِمَامِ وَنَمِّقُوا ... لَهُ فِرْيَةً مِنْ زُخْرُفِ الْكَذِبَاتِ
وَقُولُوا لَهُ هَذَا شَدِيْدٌ مُنَفِّرٌ ... عَدِيْمُ سِيَاسَاتٍ عَدِيْمُ أَنَاةِ
فَكَمْ فِتْنَةٍ قَدْ شَبَّ فِي النَّاسِ نَارُهَا ... وَكَمْ ذَا لَهُ مِنْ طَائِشِ الْحَرَكَاتِ
نَخَافُ اتِّسَاعَ الْخرْقِ إِنْ دَامَ أَمْرُهُ ... فَأَنْزِلْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ النَّقِمَاتِ
لِيَزْدَجِرَ الْحَمْقَى مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ ... وَتَنْتَظِمَ الأَحْكَامُ مُنْضَبِطَاتِ
لَقَدْ غَفَلُوا عَنْ قَوْلِ أَصْدَقِ قَائِلٍ ... لَدَى النَّمْلِ تَحْذِيْرًا لَنَا وَعِظَاتِ
فَأَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْمَ جَاؤُوا بِمَكْرِهِمْ ... فَقَدْ جَاءَهُمْ مَكْرٌ مِنَ اللهِ آتِ
فَفِي آلِ عِمْرَانَ وَالَاعْرَافِ وَالنِّسَا ... كَذَلِكَ آيٌ غَيْرُ مُشْتَبِهَاتِ
وَهَلْ تَنْفَعُ الآيَاتُ إِلَّا أُوْلِي تُقًى ... وَأَفْئِدَةٍ صِيْنَتْ مِنَ الْكَدَرَاتِ
وَأَمَّا الْقُلُوبُ الْغَافِلَاتُ عَنِ الْهُدَى ... فَلَيْسَتْ- وَإِنْ تَحْرِصْ- بِمُنْتَفِعَاتِ
وَمَا يَستَوِي الأَعْمَى وَذُو الْبَصَرِ الَّذِي ... يَمِيْزُ بِهِ الْبَيْضَا مِنَ الْحُفْرَاتِ
وَمَا يَسْتَوِي النُّورُ الْمُبِيْنُ ولا الدُّجَى ... وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَا وَأَهْلُ مَمَاتِ

(١) أي من الوشاية.

فَيَا أَيُّهَا القَوْمُ الَّذِينَ تَوَاطَئُوا … عَلَى نَصْرِ ضُلَّالٍ وَكَيْدِ هُدَاةِ

أَلَمْ تَسْمَعُوا لَعْنَ الرَّسُولِ لِمُحْدِثٍ … بِطَيْبَةَ يَرْوِيهِ أَجَلُّ رُوَاةِ

وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَلْعَنُهُ كَذَا الْ … مَلائِكُ طُرًّا أَعْظَمَ اللَّعَنَاتِ

وَيَلْعَنُهُ الإِنْسَانُ مَعْ كُلِّ لَاعِنٍ … مَدَى الدَّهْرِ فِي الآصَالِ وَالْبُكَراتِ

وَيَشْمَلُ هَذَا اللَّعْنُ مَنْ كَانَ رَاضِيًا … بِمَا قَدْ أَتَى مِنْ سَيِّئِ الْفَعَلاتِ

تَحَمَّلَ هَذَا اللَّعْنَ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ … لِيَسْتَمْتِعَ الْمَغْبُونُ بِالشَّهَوَاتِ

فَيَا وَيْلَهُ مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بَلا … لِحَظٍّ قَلِيلٍ مُعْقِبٍ بِفَوَاتِ

وَلَوْ عَاشَ فِيهَا عُمْرَ نُوحٍ وَضِعْفَهُ … لَمَا عُدَّ شَيْئًا إِذْ يَرَى الْهَلَكَاتِ

فَعَمَّا قَرِيبٍ يَقْرَعُ السِّنَّ نَادِمًا … إِذَا مَا صَحَا فِي سَكْرَةِ الْغَفَلاتِ

إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّنِي … أَرى الدِّينَ فِي نَقْصٍ وَفَقْدِ حُمَاةِ

وَيَزْدَادُ فِي الدُّنْيَا بِمِقْدَارِ نَقْصِهِ … فَيَا لَكَ رُزْءًا مُحْكَمَ الْحَلَقَاتِ

وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَى اللهِ مَلْجَأٌ … لِمَا مَسَّنَا مِنْ فَادِحِ النَّكَبَاتِ

وَلَيْسَ لَنا إلا إلى اللهِ مَفْزَعٌ … يُفَاجِئُ أَهْلَ الزَّيْغِ بِالنَّقَمَاتِ

فَيَا رَبُّ، يَا اللهُ، يَا سَامِعَ الدُّعَا … وَيَا كَاشِفَ الضَّرَّاءِ وَالْكُرُبَاتِ

أَغِثْنَا بِنَصْرٍ مِنْ لَدُنْكَ مُؤَيِّدٍ … لِدِينِ الْهُدَى مُخْزٍ لِمَنْ هُوَ عَاتِ

فَيَخْسَرُ حِزْبُ الْمُبْطِلِينَ إِذَا بَدَا … وَيَفْرَحُ حِزْبُ اللهِ سَاعَةَ يَاتِي

وَبَصِّرْ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكْرِ مَنْ … غَدَا لابِسًا لِلْحَقِّ بِالشُّبُهَاتِ

وَوَفِّقْهُ لِلْخَيْرَاتِ وَانْصُرْ جُنُودَهُ … عَلَى جُنْدِ إِشْرَاكٍ وَكُلِّ بُغَاةِ

وَيَا رَبُّ مَتِّعْنَا بِطُولِ حَيَاتِهِ … وَحِفْظًا لَهُ مِنْ كَيْدِ كُلِّ عِدَاةِ

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ الأَنَامِ وَمَنْ مَشَى … عَلَى نَهْجِهِ بِالصِّدْقِ خَيْرَ صَلَاةِ

وَذِي نَفْثَةُ الْمَصْدُورِ فِي وَجْهِ مَنْ بَغَى … ثَمَانُونَ بَيْتًا مِثْلُ نَبْلِ رُمَاةِ

(تمت)

اليائية

خَرَجْتُ بِحَمْدِ اللهِ للْبَدْوِ دَاعِيًا ... إِلَى اللهِ حَسْبِي نَاصِرًا وَكَفَانِيَا
عَلَى جَمَلٍ صَعْبٍ بَطِيءٍ مَسِيرُهُ ... وَقُرٍّ شَدِيدٍ فِي الشِّتَاءِ عَرَانِيَا
لأَرْضٍ قِفَارٍ لا أَنِيسَ بِهَا سِوَى ... أَبِي جَعْدَةَ يَعْوِي عَلَى الْحُزْنِ عَالِيَا
وَإِلَّا قَلِيلًا مِنْ أُعَيْرَابِهَا وَهُمْ ... كَمِثْلِ وُحُوشٍ فِي الْفَلَاةِ رَوَاعِيَا
تَحَمَّلْتُ فِي ذَاكَ الْمَسِيرِ شَدَائِدًا ... أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ الَّذي قَدْ بَرَانِيَا
تَرَكْتُ وَثِيرَ الْفُرْشِ مَعَ لَذَّةِ الْغِذَا ... وَرَاحَةَ جِسْمٍ فِي الْمُقَامِ بِدَارِيَا
فَوَاللهِ لا مَالًا أُرِيدُ لَهُ وَلا ... لِرِفْعَةِ جَاهٍ كُنْتُ إِذْ ذَاكَ سَاعِيَا
وَلَكِنَّ مَقْصُودِي هِدَايَةُ مَعْشَرٍ ... غَدَوا فِي قِفَارٍ مَا رَأَوْا قَطُّ هَادِيَا
تَنَقَّلْتُ فِي أَحْيَائِهِمْ سَبْعَ عَشْرَةَ (١) ... أُذَكِّرُ فِي أَيَّامِهَا وَاللَّيَالِيَا

(١) إشارة إلى الأيام التي خرجت فيها إلى البوادي ورافقني الأمير ماجد بن موقد -رحمة الله عليه- وكان أولئك البداة على دين الجهل والشرك وإتيان الكهان وترك الصلاة، فكانت الكاهنة تشدّ إليها الرحال، ولا تتكهن لأحد إلا إذا وقع لها جملًا أو ناقة حُلْوانًا، وكان الأمير ماجد -رحمه الله- شديدًا عليهم لا يبدؤهم بالسلام؛ وإذا نزلنا في حي يأمرهم أن يأتوا بالشاة التي تعد لضيافتنا، فيذبحها أحد رفقائنا؛ لأنه كان يعتبرهم مشركين لا تحل ذبائحهم، وحدثني ونحن بين ظهرانيهم فقال: قد علمتنا التجارب التي شاهدناها بأعيننا أن النصر مقرون بالتوحيد، والهزيمة مقرونة بالشرك، فقد كنا نحن أنفسنا- قبل أن يمن الله علينا بالهداية- نستعد لقتال أهل التوحيد إخوان من أطاع الله بالآلاف والخيل والسلاح، فيأتينا منهم ثلاثمائة أو أربعمائة؛ فإذا رأينا قلتهم طمعنا في استئصالهم حتى إذا رفعوا أصواتهم وقالوا: لا إله إلا الله وهجموا علينا؛ تفرق جمعنا وانهزمنا لا نلوي على شيء، ونسيت أيضًا أن أقول فيما مضى: إن أمير النخيل في الوقت الحاضر المجمع على صلاحه وتقواه مشعان ابن أخت ماجد كان في ذلك الوقت يافعًا، وكان يقرأ علي القرآن في أوقات فراغه فكان الصلاح عليه ظاهرًا في تلك السن، لأنه كان لا يمل من حفظ القرأن كعادة الصبيان وهو الآن حي يشهد بصحة كل ما ذكرت وأن ما ادعاه أمير المدينة في ذلك الزمان علي كان اختلاقًا.

وَمَا مِنْهُمُ إِلَا مُطِيْعٌ وَمُقْبِلُ ... سِوَى بَعْضِ أَعْرَابِ فَمَا كَانَ صَاغِيَا
فَلِلَّهِ أَوْقَاتٌ مَضَتْ فِي دِيَارِهِمْ ... لَقَدْ كَانَ فِيهَا الدَّهْرُ صَفْوًا مُؤَاتِيَا
مُعَمَّرَةً بِالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِي الْهُدَى ... فَلَمْ يَكُ فِيهَا الْقَلْبُ كَالانَ لَاهِيَا
بِقَوْلِ إِلَهِ الْحَقِّ طَابَتْ وَبَعْدَهُ ... بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ يَذْكُرُ قَافِيَا
مُنَزَّهَةٌ عَنْ فُحْشِ قَوْلٍ وَلَغْوِهِ ... لَقَدْ كَانَ فِيهَا الْقَلْبُ أَبْيَضَ صَافِيَا
وَيَزْعُمُ ذُو الْبُهْتِ الْمُبِيْنِ بِأَنَّنِي ... خَرَجْتُ لِإِفْسَادِ وَمَا زَالَ فَارِيَا
وَيَزْعُمُ أَنِّي قَدْ رَكَنْتُ لِمَنْ بَغَوا ... فَقَبَّحَ رَبِّي أَيَّنَا كَانَ بَاغِيَا
فَيَالَيْتَهُ يَأْتِي إِلَيَّ مُبَاهِلَا ... لَدَى بَابِ بَيْتِ اللهِ لَهُ دَاعِيَا
فَنَجْعَلَ لَعْنَاتِ الإِلَهِ جَمِيْعَهَا ... عَلَى أَيِّنَا قَدْ كَانَ فِي الشَّرِّ سَاعِيَا
وَلا بُدَّ يَومًا أَنْ يُهَشَّمَ بَاطِلٌ ... وَيُظْهَرَ حَقٌّ كَانَ مِنْ قَبْلُ خَافِيَا
عَلَى الْمَلِكِ النَّقَادِ يَطْمَعُ ذُو الْغَبَا ... يُرَوِّجُ مَكْذُوبًا مِنَ الْقَوْلِ وَاهِيَا
وَيَأْبَى لَهُ الْعَقْلُ الرَّجِيْحُ وَدِيْنُهُ ... قَبُولًا لِبُهْتَانِ الَّذِي جَاءَ وَاشِيَا
وَإِنْصَافُهُ عَمَّ النَّوَاحِي وَحِلْمُهُ ... وَبَذْلُ النَّدَى مَنْ أَمَّ نَحْوَهُ جَائِيَا
لِعَبْدِالْعَزِيْزِ الْمَلْكِ مِنْ آلِ فَيْصَلِ ... ثُبَاتٌ بِهِ فَاقَ الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
وَلَكِنَّهُ خَفَّ إِلَى الْمَجْدِ وَالنَّدَى ... وَتَلْقَاهُ يَوْمَ الرَّوْعِ عَضْبًا[1] يَمَانِيَا
لَئِنْ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي أَتَى الْمَيْنَ[2] غَاوِيَا
فَمَا الْبَاطِلُ الْمَأْفُوكُ إِلَّا ضَبَابَةٌ ... تَزُولُ وَيَبْدُو الْحَقُّ أَبْلَجَ صَافِيَا
لِتَبْحَثْ إِمَامَ الْمُسْلِمِيْنَ بِعَزْمَةٍ ... سُعُودِيَّةٍ تَجْلِي الأُمُورَ كَمَا هِيَا
وَعِنْدِي مِنَ الْبُرْهَانِ مَا يَهْدِمُ الَّذِي ... بَنَاه الْعِدَا مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ وَاهِيَا

---

(١) العضب: السيف.

(٢) أي الكذب.

أَصِغْ لِي إِمَامَ الْخَيرِ وَاسْمَعْ أَدِلَّتِي ... فَلازِلْتَ لِلْمَظْلُومِ مَلْجَأً صَاغِيَا

بِعَدْلٍ وَإِنْصَافٍ أَقَامَكَ رَبُّنَا ... مَلِيكًا عَلَى هَذِي الْبِلَادِ وَرَاعِيَا

أَوَائِلُهُ بِالشَّامِ تَلْفِي وَحَدُّهُ ... يَمُدُّ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقَيْنِ ضَافِيَا

فَلازِلْتَ شَمْسًا فِي اعْتِلَاءٍ وَرِفْعَةٍ ... تُضِيءُ عَلَى الْمَوْلَى وَتُفْنِي الأَعَادِيَا

وَلَازِلْتَ ذَا شُكْرٍ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي ... حَبَاكَ إِلَهُ النَّاسِ لِلْخَيرِ هَادِيَا

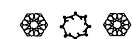
وَصَلِّ إِلَهِي كُلَّ حِينٍ وَسَاعَةٍ ... عَلَى الْمُصْطَفَى الْمَبْعُوثِ لِلْخَيرِ دَاعِيَا

(تمت)

❁ ✡ ❁

بيان قصة ابن منصور الواردة في القصيدة اللامية

هو محمد بن منصور، إمام قرية من القرى التابعة لإمارة المدينة نسيت اسمها، كان صالحًا حريصًا على الخير يحب في الله ويبغض في الله ويرضي الله، وهو شاب من أهل نجد، وقعت له مع الأمير قضيتان الأولى هي التي ذكرت في القصيدة، كان ماشيًا إلى قبا فلقي رجلًا من شيعة المدينة يشرب الدخان، فأمره بإلقائه فأبى فأخذه من يده وألقاه على الأرض، فأمسك به الشيعي وقال: أخاصمك إلى الأمير. فتعجب ابن منصور وقال: أنت تخاصمني إلى الأمير أو أنا أخاصمك إليه؛ فأينا المذنب؟! فقال الشيعي: أنت المذنب الظالم. فانطلق إلى الأمير وتبعه محمد بن منصور فلما وصلا إلى الأمير ذكر الشيعي ما وقع بينه وبين ابن منصور، فقال: إن ما قاله واقع وأنا اقتصرت في تغيير المنكر على أدنى ما يجب؛ وهو أخذ لفافة الدخان من يده وإلقاؤها على الأرض، وهو يستحق عقابًا أكثر من هذا. فضرب الأمير ابن منصور ووبخه وقال له: مالك وله؟! كان يشرب الدخان في الفضاء خارج البلد ومن جعلك رقيبًا عليه؟! هل أنت من جماعة الأمر بالمعروف؟! فقال ابن المنصور: إن الأمر بالمعروف واجب على كل مسلم عمومًا وخصوصًا على الأمراء فغضب عليه وضربه.



القصة الثانية وهي أفظع

كان ابن منصور يدق الأبواب على أهل القرية قبل الفجر يوقظهم للصلاة، فنهاه أهل القرية عن ذلك فلم ينته فضربوه، وعلم أنه إذا اشتكى إلى الأمير لا يأخذ له حقًّا ولا يدفع عنه ضيمًا؛ فانتظر حتى جاء الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن -رحمه الله- من الرياض مارًّا بالمدينة إلى مكة، فكتب شكوى وسلمها إليّ راجيًا أن أبلغها إلى الملك، فأخذتها حتى وضعتها في يد الملك فقرأها وسلمها إلى الشيخ عبدالله بن حسن -رحمه الله- ليحكم فيها، فدعا الشيخ الأمير وسلمها له، وقال له: كيف يقع هذا في إمارتك؟ فقال: ما جاءني ولا أخبرني وأظهر تحمسًا لنصره، وقال للشيخ: كن مطمئنًا، فإني سأعاقب أولئك الأنذال عقابًا يردعهم. فلما توجه الملك عبدالعزيز ومعه الشيخ عبدالله بن حسن إلى مكة دعا الأمير والذين ضربوه وأحضر ابن منصور وأوصى حاشيته أن يطلبوا منه العفو عنهم ويلحوا عليه في ذلك، فوبخهم الأمير وسبهم وهَمَّ بضربهم؛ فقام أصحابه وقالوا: أيها الأمير، أصلحك الله مهلًا؛ لعله يصفح عنهم. فطلبوا منه الصفح وألحوا عليه، وأظهر أهل القرية التوبة فعرف أنه مخذول وأن الأمر بُيِّت بليل، فصفح عنهم ولم يحصل على طائل، ولم أدرج هذه القصة في القصيدة لأنها وقعت بعد نظمها وفيما ذكرته في القصائد الثلاث كفاية.



التدريس في المسجد الحرام

تقدم أني نُقلت أنا ورفيقي إلى التدريس في المسجد الحرام. والتدريس في المسجد الحرام امتحان عظيم للمدرس؛ فبينما ترى مدرسًا مشهورًا بالعلم والفضل قد جلس للتدريس في المسجد الحرام فلم يحضر درسه إلا قليل من الناس لا يكادون يتجاوزون عشرة، ترى مدرسًا آخر ربما يكون دونه من الشهرة أو في العلم قد حضر درسه مئات من المستمعين، وهذه الأمور تسير طبقًا لقسمة الله تعالى كما ترى أصحاب الدكاكين، هذا يزدحم المشترون عليه ويتدافعون، وإلى جانبه دكان يحتوي على مثل ما في ذلك من البضائع أو أحسن، وصاحبه عاطل لا يأتيه أحد، وكنت -ولله الحمد- من القسم المحظوظ، فكان يحضر درسي أمام باب إبراهيم مئات من الناس، ولم أعرف لذلك سببًا إلا أني كنت أتكلم بلغة يفهمها أهل الأقطار المختلفة من البلاد العربية وأولئك المدرسون الذي كانوا في أزمة من قلة المستمعين حيث كانوا يتكلمون بعاميتهم الخاصة.



التدريس في المعهد السعودي

كانت مدارس الفلاح التي أسسها الشيخ عبدالله حمدوه منتشرة في أنحاء مكة والتلاميذ يقبلون عليها كل الإقبال؛ لأن الشيخ عبدالله حمدوه كان مربيًا ناجحًا في عمله، وكان يدعوني كل سنة للاشتراك في الامتحان مع أساتذة المدرسة العليا له، وكان المعهد السعودي قد أسس قبل ذلك بمدة، ولم يحصل عليه إقبال للدعاية السيئة الراسخة في أذهان العامة أنه معهد وهابي يعلم تلامذته المذهب الوهابي حسبما يزعمه أعداء التوحيد، ولم يكن ذلك هو السبب وحده، بل كان هنالك

سبب آخر وهو عدم كفاية المدرسين، فاجتمع رجال الشورى للنظر في رفع مستوى المعهد السعودي، واتفق رأيهم برئاسة سمو الأمير فيصل نائب الملك على أن يختاروا للمعهد معلمين أكفاء، فوقع اختيارهم على مؤلف هذا الكتاب ورفيقه الشيخ محمد بن عبدالرزاق وأخيهم العالم السلفي الشيخ بهجت البيطار، فانتعش بذلك المعهد وكثر طلابه وصارت له مكانة عند الناس، وكان مدير المعهد أخانا ورفيقنا الشيخ إبراهيم الشورى، وكان يبذل جهده في رفع مستوى المعهد.



السفر إلى الهند

أقمت في الحجاز أكثر من ثلاث سنين وأنا لا أزال في عنفوان الشباب، ورأيت حتى في ذلك الزمان أن العالم بلا شهادة كالمسافر بدون جواز سفر ليس له مكان في المدارس العليا، وإذا ألَّف كتابًا أو أنشأ مقالًا فأول سؤال يسأله الناس: هل عنده شهادة عالمية؟ فيجيء الجواب: لا. فيقال حينئذ (سيبك منه) يعني: دعه ولا تلتفت إليه، وتاقت نفسي إلى الحصول على شهادة عالمية، وكنت متصلًا بالمكاتبة مع عالمين جليلين أحدهما تقدم ذكره؛ وهو السيد سليمان الندوي، والآخر لم يتقدم ذكره؛ وهو الشيخ أحمد السركتي في أندونيسيا؛ فلما علما بغرضي دعاني كل واحد منهما أن أكون مدرسًا في مدرسته، وأمَّلت أني أستطيع أن أدرس دراسة عالية في الهند أو في أندونيسيا وأحصل على شهادة أستطيع بها أن أروج علمي وآخذ حقي وأغزو المدارس العليا بدعوتي، فرجحت بقضاء وقدر من الله تعالى التوجه إلى الهند، كان ذلك في أول سنة ١٣٤٩ فعُينت رئيسًا لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء، وبقيت فيها ثلاث سنين ونيِّفًا أبذل كل جهد في تعليم أدب اللغة العربية من أول درس إلى آخر درس بدون استعمال لغة أخرى.

وقد كتب المربي الجرماني (برلتس) في مقدمة كتبه في تعليم اللغات الحية كلامًا موزونًا مفيدًا جدًّا أقتبس منه قليلًا قال: «يجب على كل معلم للغةٍ ما أن يعلم

تلك اللغة بنفسها من أول درس إلى آخر درس ويمتنع من الترجمة امتناعًا كليًا، فإن تعلُّمَ لغة بلغة أخرى عقيم وفيه مفاسد:

أولها: أن أكثر الوقت يمضي في استعمال لغة غير مقصودة بالذات، فيشتغل اللسان والفكر بشيء غير مقصود لذاته وذلك تضييع للوقت.

وثانيها: أن المتعلم بتوسط لغة أخرى يضطر إذا أراد أن يكتب أو يتكلم إلى التفكير باللغة المتوسطة ثم ينتقل منها إلى اللغة المقصودة؛ ولنضرب لذلك مثلًا: طالب عربي يريد أن يتعلم اللغة الإنكليزية إذا علمناه اللغة الإنكليزية بواسطة اللغة العربية، وأراد أن يتكلم بالإنكليزية أو يكتب مقالًا، فلا بد أن يفكر أولًا بالعربية ثم ينتقل منها إلى اللغة الإنكليزية فيجيء كلامه وإنشاؤه ركيكين خاليين من الفصاحة وحسن البيان.

ثالثها: أن مدة تعليمه تطول؛ لأن اللغة المقصودة بالذات لا تنال من وقته إلا القليل كما تقدم. وضرب لذلك مثلًا بالأطفال؛ كل طفل يتعلم لغة أمه دون ترجمة مع ضعف إدراكه في مدة قصيرة فينطق بها بغاية الفصاحة ولا يشعر بأدنى تكلف. وهذا هو الأسلوب الصحيح لتعلم اللغات وهو تكرر السماع على أذني المتعلم يعقبه النطق الصحيح، والكبير أحوج إلى هذا الأسلوب وأكثر انتفاعًا به لكمال إدراكه، وكم رأينا من رجل غريب حل بأرض قوم وهو لا يعرف من لغتهم شيئًا وفي بضع سنين صار فصيحًا في لغتهم دون استعمال ترجمة.

ومن نصائح العالم الجرماني (برلتس) لمن يريد أن يعلم الناس لغة أن يبدأ بالمرئيات فيأخذ الكتاب مثلًا، ويشير إليه وينطق بلفظ (كتاب) فيسمعه المتعلم فينطق مثله ويكرر ذلك حتى يرسخ اسم الكتاب في ذهنه، ثم ينتقل إلى القلم والقرطاس والمسطرة وهكذا دواليك. أما في الأفعال فيقوم المعلم وينطق بلفظ (أقوم) ويجلس، وينطق بلفظ (أجلس) ويمشي، وينطق بلفظ (أمشي) وهكذا إلى أن يتعلم الطالب ما يكفي السؤال والجواب فينتقل معه إلى طريقة السؤال والجواب بعد السؤال، وهي أحسن الطرق في تعليم اللغات، وقد شاع هذا الأسلوب في هذا الزمان. وقد استعملت هذا الأسلوب ولقيت صعوبة في أول الأمر لأني كنت أدرّس كتب النهايات، وبعد شهرين زالت الصعوبة وصار الطلبة يفهمون. وكنت أعلم الإنشاء والخطابة مرتين في الأسبوع في مقصورة واسعة معدة لإلقاء الخطب، وفي ثلاث سنين وبضعة أشهر تخرج في الأدب العربي جماعة من الشباب أذكر منهم:

مسعود عالم الندوي وأبا الحسن عليًا الندوي- وقد ذكرته من قبل- ومحمد ناظم الندوي وأبا الليث شير محمد الندوي؛ وهو رئيس الجماعة الإسلامية في الهند في الوقت الحاضر، وصار هؤلاء وغيرهم كتابًا ومؤلفين وخطباء، ولم يعهد مثل ذلك في الهند، وقد بين ذلك تلميذي الأستاذ أبو الحسن عليّ الندوي في مقالات نشرها. ولم يكن راتبي يزيد على مائة روبية، ولكنني كنت أحتسب عند الله من الأجر والثواب في العاجل والآجل ما يفوق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. واغتبط بذلك رئيس الندوة السيد سليمان الندوي ونائبه وساعده الأيمن الطبيب الماهر الدكتور عبدالعلي، واقترح على السيد سليمان أن أنشئ مجلة باللغة العربية ليتدرب فيها المتقدمون في العلم من الطلبة بكتابة المقالات فأنشأت مجلة «الضياء» وكان لها شأن عظيم لمدة من الزمن، والآن تصدر في الندوة حفيدتها مجلة «البعث الإسلامي»، وهي أشهر عند قراء اللغة العربية من نار على عَلَم.



محنة

كل قاصد لأمر عظيم لا بد له من امتحان؛ فإذا صبر ظفر وانتصر؛ وإذا جزع وملّ خاب وانكسر. كان للندوة رجال من مشاهير العلماء والأغنياء يدبرون شؤونها تحت رئاسة السيد سليمان الندوي، واتفق أن أحد كبارهم - ويسمى الشيخ الشرواني- لقيني وكان يريد أن أخضع له كما يفعل معه غيري من الشباب، فلم أخضع له، بل سلمت عليه سلامًا عاديًا؛ فاغتاظ، وقال لي: لماذا تقص لحيتك؟ مع أني كنت أترك منها قبضة اليد كما جاء عن عبدالله بن عمر فقلت له: أقصها لأنها لحيتي وليست لحيتك!! فقال: لا تأخذ منها شيئًا؛ لأن الطلبة يقتدون بك. فقلت له: أنا أستاذ الأدب العربي وهناك أستاذ الفقه وأستاذ الحديث ولهما لحيتان طويلتان؛ فكيف يتركون الاقتداء بهما ويقتدون بي؟! فغضب وانصرف، وكان ذلك من نزوات الشباب فعمل على إخراجي من الندوة، فانتظر إلى أن انعقد مجلس رجال الندوة (ولا أقول أعضاؤها لأنه محدث مقتبس من اللغات الأجنبية) فخطب فيهم الشيخ الشرواني وقال لهم: هذا الأستاذ العربي لا يعرف لغة أردو ولا يمكن أن يتمكن من تفهيم الطلبة مسائل العلم دون أن يشرحها لهم بلغتهم التي يفهمونها، فرد عليه السيد سليمان الندوي والدكتور عبدالعلي وبينا له شدة حاجة الطلبة إلى سماع علوم الأدب العربي باللغة العربية، فوقع خلاف بين شيوخ الندوة وأُخذت الآراء فانتصر الشرواني.

فجاءني السيد سليمان الندوي والدكتور عبدالعلي متأسفين ومعتذرين وقالا لي: لا شك عندنا أنك تريد بعملك في هذه المدرسة وجه الله تعالى بتعليم لغة القرآن، وقد قدر الشيخ الشرواني أن يقنع أكثر الشيوخ برأيه الباطل لجهلهم بشئون التعليم، فنرجو من فضلك أن تمهلنا أربعة أشهر نجعل لك فيها سبعين روبية بنقص ثلاثين من الراتب، وبعد أربعة أشهر نرجو أن نفهم شيوخ الندوة مقدار الفائدة التي يجنيها الطلبة من علمك. فقبلت اقتراحهما، وأسست مدرسة صغيرة في بيتي لتعليم التلاميذ الصغار اللغة العربية لأبين خطأ رأي الشرواني الذي يزعم أن تعليم اللغة العربية بدون ترجمة لا يمكن، فاتفقت مع الدكتور عبدالعلي ورجل من أشراف البلد

كنا ندعوه منشي صاحب نسيت اسمه، فاخترنا عشرة من التلاميذ من صبيان المحلة لا يزيد عمر أحد منهم على أربع عشرة سنة، وأخذت أعلمهم اللغة العربية بدون ترجمة طبعًا، وبعد أربعة أشهر دعونا الأساتذة ليمتحنوهم فامتحنوهم في الإنشاء والإملاء والتحدث بالعربية والقراءة؛ فوجدوهم قد تعلموا في أربعة أشهر ما لم يتعلمه غيرهم من الطلبة الكبار في خمس عشرة سنة بالترجمة، فتعجب الحاضرون وازدادوا يقينًا بصحة ما قلته لهم. ثم انعقد مجلس الندوة وكان الرئيسان المذكوران قد عملا في تلك المدة على تفهيم شيوخ الندوة وإقناعهم بأن اللغة العربية لا يمكن تعلمها تعلمًا ناجحًا إلا باستعمالها نفسها، فأُخذت الآراء فانهزم الشرواني ورجعت إلى الندوة.

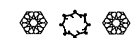


مكرمة عربية

لما علم السري النبيل الشيخ مصطفى آل إبراهيم بهذه الحادثة بعث إلي ألفا ومائتي روبية وقال لي: إني سمعت أن أهل الندوة عزلوك بعثت إليك هذه الدراهم وأنا مستعد لتلبيتك في كل طلب، وهذا المقدار الذي أهداه إلي هذا الرجل الكريم يساوي راتبي في الندوة لمدة سنة، وكم له من مكارم. وهاك مكرمة أخرى نسيت أن أذكرها في موضعها، لما أمضيت سنة في الدورة اجتمع عندي من المال ما يكفي للتزوج والمعيشة استشرت العالم السلفي المحقق المتفنن في علوم كثيرة الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي نزيل (الزبير) بلدة قرب البصرة، استشرته وطلبته أن يساعدني على اختيار زوجة، ولم أكن أعلم أن عنده بنتًا بلغت سن الزواج، فلما أُخبرت بذلك خطبت إليه ابنته فقال لي -رحمه الله-: أنا لا أجد لها أحدًا أفضل منك، ولكن أمرها يبدأ منها؛ فأنا أكون واسطة بينكما. فقلت: إني مستعد لإرضائها فلتطلب من المهر ما شاءت. فطلبت مهرًا عاليًا فأجبتها إلى طلبها.

وكان الشيخ مصطفى آل إبراهيم إذ ذاك في الهند؛ فلما سمع بعزمي على الزواج؛ بعث كتابًا إلي وكيله الشيخ أحمد المشاري آل إبراهيم بارك الله في حياته يقول له: اجعل نفقات زواج الهلالي من السركار. فقال لي الشيخ أحمد: إن مصطفى كتب إلي بكذا وكذا فكم تحتاج إليه من النفقة؟ فقلت: لا أحتاج إلى شيء؛ فقال: لا بد من تنفيذ ما طلب مني فأصررت على أني لا أريد شيئًا؛ فكتب لي كتابًا إلى الحاج أحمد الذكير بالبصرة يقول فيه: أي مقدار طلبه منك حامل الكتاب فلان فأعطه إياه، ورافقني أحد عبيدهم وهو أبو مقبل، فقال لي: إن الشيخ أحمد كتب إلى الذكير بكذا وكذا، فكيف تمتنع من قبول هديتهم وأنت أستاذهم ونحن عبيدهم وخدامهم يزوجوننا من السركار؟! وأخذ يخاصمني طول الطريق من الدورة إلى البصرة، ويقترح علي أن أطلب من الحاج حمد على الأقل ألفي روبية، وكان سعر الروبية في ذلك الزمان ثلاث عشرة روبية بجنيه إنكليزي؛ فلما وصلنا

إلى الحاج حمد الذكير قال لي: كم تريد فقلت: ألفًا وخمسمائة، فلما علم ذلك الشيخ مصطفى بعث إليّ من الهند حوالة قدرها سبعمائة روبية، فصار المجموع ألفين ومائتي روبية، فأسأل الله سبحانه أن يكرمه في الدنيا والآخرة، والسبب في ذلك كله حركة إعراب وهي فتحةُ قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ لأنها كانت سبب التعارف ثم صارت بيننا رابطة توحيد الله واتباع رسوله ﷺ.



رحلة إلى أفغانستان

وقعت في أفغانستان في ذلك الزمان حركة أمان الله خان، وأُشيع أنه أراد تغيير أحكام الإسلام من جنس ما فعله مصطفى كمال في البلاد التركية، فثار عليه الملك «ناذر شاه» وقضى على حركته واستولى على الملك، فتاقت نفسي إلى معرفة أحوال المسلمين في تلك البلاد، فتوجهت إلى سملة؛ وهي عاصمة بلاد الهند الصينية وحصلت على سمة دخول إلى أفغانستان من السفارة الأفغانية. ومدينة سلمة مبان متفرقة في سفح أحد جبال هملايا والتجول فيها لا يمكن إلا بركوب الركشة؛ وهي عربة فيها مقعد واحد يجرها رجلان من أمام ويدفعها رجلان من خلف؛ لأن الطريق جبلية ضيقة ولا يوجد في ذلك الجبل عدا ذلك إلا سكة الحديد وطريق واحد يمتد في وسط المدينة يمكن أن تسير فيه السيارة.

وكان الشيخ إسماعيل الغزنوي -رحمه الله- كتب لي توصية إلى إمام المسجد، وبعد مشقة وصلت إلى المسجد فلم أجد الإمام فأعطاني قيم المسجد غرفة مفروشة حين أخبرته أنني جئت إلى الإمام بوصية، وكان الوقت بعد صلاة الظهر وكنت جائعًا فخرجت من المسجد فرأيت بيتًا كالدكان فيه رجل يطالع كتابًا، له لحية طويلة سوداء، فتوسمت أن يكون مسلمًا، فسلمت عليه فرد عليَّ أحسن رد، وقلت له: إني جائع أريد طعامًا. فدلني على مطعم قريب، فطوى كتابه وقام وسد الدكان وقال: اتبعني فصعد في الجبل في طريق للمشاة ملتوٍ يسمّى في جبال نمسا بالطريق الحنشي لأنه يشبه الحنش، حتى وصلنا إلى بيت فدخل وأذن لي في الدخول ثم فتح مقصورة وأمرني بالجلوس فجلست، وغاب عني قليلًا وأنا أتعجب لأن هذا المكان ليس بمطعم قطعًا فجاءني بطعام كثير فأكلت، ثم جاء بالحلوى ثم قال لي: هذا بيتي أرجو أن يكون هذا الطعام قد وافقك. وكان كلامه كله بالعربية، ثم سألني من أنت؟ فقلت له: أنا محمد تقي الدين الهلالي أستاذ اللغة العربية بندوة العلماء، فعانقني وقبل رأسي وقال لي: هذا يوم مبارك سعيد، فنادى ابنه وهو شاب في سن العشرين وقال له: إن الله أكرمنا في هذا اليوم بكرامة عظيمة، هذا الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي مؤسس مجلة الضياء الذي نقرأ مقالاته، ونحن في شوق إلى

لقائه قد جاءنا وشرف بيتنا. فعانقني ابنه وبالغ كلاهما في الترحيب، ومن سوء الحظ نسيت اسم هذا الرجل وكنت أذكره إلى وقت قريب. ثم ذهبنا إلى المسجد، والتقينا بالإمام الذي جئت بتوصية إليه فقرأها وتنافس الرجلان في ضيافتي وإكرامي. فبقيت في ضيافتهما ثلاثة أيام قضيت في أثنائها الوطر الذي سافرت إلى سملة من أجله، وهو طلب سمة الدخول إلى أفغانستان من السفارة الأفغانية، إلا أن رجال السفارة مع إكرامهم لي اعتذروا لي بأن النظام المتبع يقتضي أن تبعث رسالة برقية إلى وزارة الخارجية في كابل، فإذا جاء الإذن منها يمكن إعطاء سمة الدخول. قال لي أحد رجال السفارة: أيمكنك أن تدفع ثمن البرقية؟ فقلت: نعم. فقال ليَ: سأحاول أن أجعلها رخيصة الثمن لأن العادة تقضي بأن نكتبها باللغة الفارسية لكن بحروف إنكليزية والقانون يقضي على مكتب البريد أن يعد كل خمسة عشر حرفًا كلمة واحدة، ولذلك سأجمع لهم في كل كلمة عدة كلمات فشكرته على ذلك. فلم يبطئ الجواب وجاء بالقبول؛ فتوجهت من سملة إلى لاهور ومنها إلى بشاور. وبقي علي أمران: أحدهما طلب الإذن بالدخول إلى أفغانستان من السفارة الفرنسية، وأقرب سفارة فرنسية إلى بشاور هي بومباي، والمسافة بين بشاور وبومباي خمس وثلاثون ساعة في القطار ذهابًا ومثلها إيابًا وفي ذلك من النفقة والتعب ما لا يخفى، وكان عندي جواز مغربي فرنسي آخرُ بلد مذكور فيه (فارس) وتسمى بالفرنسية (لابرس)، وقواعد اللغة الأوروبية كالفرنسية والإنكليزية والجرمانية والإسبانية تقضي في المتعاطفات أن لا يذكر حرف العطف إلا في آخرها؛ فإذا أرادوا مثلًا أن يقولوا جاء زيد وعمرو وبكر وخالد يقولون: جاء زيد عمرو بكر وخالد، ومن تفطن إلى لغة القردة من كتّاب العرب ومذيعيهم يجدهم يستعملون هذه القاعدة في اللغة العربية، ففكرت للمرة الأولى والأخيرة في التصرف في جواز السفر بزيادة لفظة أفغانستان فجربت ألوانًا من الحبر حتى وجدت حبرًا مشابهًا للحبر الذي كتبت به أسماء البلدان المأذون في دخولها في جواز سفري، وكان جواز سفري قد بلغ بكثرة الإضافات خمسين صفحة يتحير فيه كل من رآه حتى أُرشدَهُ أنا إلى ما يريده، فلما وجدت الحبر المناسب عمدت إلى حرف العطف الذي قبل فارس فكشطته بسكين حادة ثم كتبت مثله وبعده كلمة أفغانستان، وهذه مخاطرة عظيمة ولاسيما في مدينة بشاور؛ لأنها آخر مدينة في حدود المستعمرة البريطانية العظمى التي كانت تسمى الهند الإنكليزية، وفيها من الشرطة السرية والعلنية ومراقبة المسافرين ما يوجد

عادة في البلاد التي على الحدود؛ فلا بد أن أدخل امتحانًا عظيمًا حين أقدم جوازي لرجال الأمن؛ لأنهم يفحصونه فحصًا دقيقًا، وإذا اطلعوا على التزوير يبالغون في عقابي. وكنت قد نزلت ضيفًا مكرمًا عند الشيخ عبدالعزيز الندوي البشاوري، وكان من كبار التجار من العلماء. فبقيت عنده أسبوعًا، ومن خصائص هذه المدينة أن أهلها لهم صهاريج كبيرة يملأونها ثلجًا في وقت الشتاء وفي وقت الصيف يأخذون منه كل يوم ما يبردون به مشروباتهم، وأظن أني رأيت مثل ذلك في مدينة كركوك وأربل في شمال العراق، وكتب لي توصية لابن عمه في كابل وهو تاجر كبير اسمه إلهي بخش.

ثم دخلت الامتحان وهو تقديم جواز سفري لرجال الأمن ليرخصوا لي في الخروج من الهند إلى أفغانستان، وكنت خائفًا جدًّا أن يكتشفوا التزوير، فأعماهم الله عنه، ورخصوا لي في الخروج من الهند. وقبل أن أخرج من بشاور أخبر القارئ أن سكانها أفغانيون يتكلمون بأربع لغات، لغتهم الخاصة ولغة أردو ولغة بشتو وهي الأفغانية واللغة الفارسية وهي لغة حكومة أفغانستان الرسمية والعلمية، ولغة بشاور قريبة من لغات بنجاب!

ويختلف الأفغانيون عن أهل الهند ببياض ألوانهم وقوة أجسامهم وكثرة أكلهم بالنسبة إلى أهل الهند.

ركبت سيارة البريد وتوجهت إلى كابل، ولما وصلتها أخذت عربية إلى بيت إلهي بخش، فوصلت إلى بيته وناولته الكتاب، فقال لي بلغة أردو: بأي لغة تتكلم؟ فقلت له: بالعربية، فقال لي: بالعربية فقط؟ فقلت: نعم، ثم قلت له: إن العربية لغة القرآن ولغة الرسول ﷺ فيجب على كل مسلم أن يتعلمها؛ فقال: (مشكل) وهذه الكلمة تستعمل في لغة أردو بمعناها العربي، ثم قال لي: ادخل. فدخلت، وصعدت معه الدرج إلى الطبقة الأولى بناء على اصطلاح الأوروبيين، فإنهم لا يعدون الطبقة الأرضية، وجدت فيها مكتبه التجاري وغرفًا أخرى فجاءني بالشاي الأخضر، لأن أهل أفغانستان يشربون الشاي الأخضر كالمغاربة، وجاء بالخبز فملأ كأسي وحلّاها بالسكر وأكلت معها شيئًا من الخبز، ثم صبّ لي الكأس الثانية إلى نصفها ولم يملأها ولا وضع فيها سكرًا! فقلت له: ضع فيها السكر؛ فقال لي: إنها الكأس الثانية. فقلت له: وهل الكأس الثانية تشرب مُرَّة؟ فقال: نعم هذه عادتنا نحن لا نحلّي إلا الكأس الأولى، وما زاد عليها نجعله إلى النصف مرًا. فقلت:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ثم صعد بي إلى الطبقة الثانية وأدخلني غرفة مفتوحة للسطح وفيها فراش، فقال لي: اجلس هنا، وأنا أرجع إلى أشغالي التجارية وسأعود إليك بعد صلاة الظهر. فأخرجت القرطاس والقلم وكتبت إلى الشيخ عبدالعزيز الندوي كتابًا قلت له فيه: إن ابن عمك إلهي بخش لم يكرمني ولم يتلقني ببشاشة، فبدلًا من أن يرحب بي قال لي: (مشكل) وسأنتقل من بيته إلى (مسافر خانه): أي: بيت المسافر وهو بمنزلة الفندق في أقرب فرصة، ووضعت الكتاب في غلاف وكتبت عليه العنوان باللغة الإنكليزية؟ فلما جاء بعد صلاة الظهر رأى ذلك الكتاب موضوعًا إلى جانبي فقال لي: من كتب هذا؟ فقلت: أنا. فقال: تعرف اللغة الإنكليزية؟ فقلت: نعم؛ فتهلل وجهه وظهرت عليه أمارات الفرح وأخذ يتكلم معي بالإنكليزية قال لي: لما سألتك ماذا تعرف من اللغات؛ قلت: لا أعرف إلا العربية فلماذا لم تخبرني بأنك تعرف اللغة الإنكليزية؟ فقلت: لم يخطر ببالي أنك تعرفها لأن هيئتك بهذه اللحية الطويلة والثياب الأفغانية لا تدل على ذلك؛ فقال لي: بلى أنا سافرت إلى البلاد البريطانية مرارًا لجلب البضائع، واستمر على تلك البشاشة مدة إقامتي في كابل وهي خمسون يومًا، وبلغ به الحرص على إكرامي إلى أننا حين زرنا وزير الخارجية فضل محمد لنأخذ منه الإقامة، دعاني الوزير إلى أن أكون ضيفًا على الحكومة فجزع إلهي بخش لذلك وقال له: أنا خادم الحكومة، وأنا أنوب عنها فأرجو أن تسمحوا ببقائه عندي. فقال: لا بأس.

ثم زرت العلماء وهم الشيخ سيف الرحمن الأفغاني والشيخ منصور الهندي وشيخ الطريقة الشيخ المجددي. والطريقة المجددية في البلاد الأفغانية هي أعظم الطرائق انتشارًا وتليها الطريقة القادرية. وأهل أفغانستان كلهم إلا المتفرنجين متمسكون بطرائق المتصوفة وشيوخ الطرائق كثير عددهم. وقد كنت جالسًا في مكتب إلهي بخش فجاء رجل يتبعه ستة نفر ويعظمونه غاية التعظيم فجلس وشرب الشاي، ثم أعطاه إلهي بخش شيئًا من الدراهم وانصرف وتبعه عبيده، فقال لي الشيخ إلهي بخش: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا شيخ طريقة. ومن هم أولئك النفر الذين يتبعونه؟ فقال لي: هم كل ما عنده من المريدين وقد فرض عليهم أن يخصصوا يومًا في الأسبوع لخدمته من الصبح إلى المساء يطوفون معه على التجار لجمع الصدقات فتعجب من ذلك، فقال لي: لا تعجب فإن هذا شيخ محظوظ لأنه حصل على ستة مريدين، وهناك شيوخ ليس لهم ولا مريد واحد،

وهم يبحثون عمن يكون مريدًا لهم فلا يجدون، فيأتي أحدهم مثلًا إلى الرجل فيقول له: أريد أن تجعل لي بعض أولادك يكون مريدًا لي. فيقول: كل أولادي يتبعون شيوخًا آخرين. فيقول: أعطني من سيولد لك!! فيقول: قد وعدت بهم شيخًا آخر. فإذا ظفر برجل يعده بأنه إذا وُلد له ولد يكون مريدًا له، ينتظره إلى أن يولد ويكبر فيتخذه مريدًا.

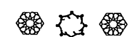
أما الطريقتان المجددية والقادرية، فهما غنيتان عن مثل هذا العمل. ورأيت الشيخ المجددي وأنا عنده يأتيه الشخص ويذكر له أن عنده مريضًا فيأخذ عُوذة من وعاء مملوء بالعُوَذ ويناولها إياه ويأخذ منه دريهمات. وهذا الشيخ المجددي يعظمه جميع الناس ويقبلون يده حتى الملك «ناذر شاه»، وقد عرض عليه أن يكون وزيرًا للعدل فامتنع من ذلك لأنه يحط من قدره إذ يحتاج إلى أن يقف مع الوزراء في المحافل الرسمية، ثم قبله على أن ينيب عنه صهره في الاشتراك في المحافل ولا يباشر هو بنفسه عمل الوزارة. وقد رحب بي هؤلاء الشيوخ وفرحوا بمقدمي وأجمعوا على أنه لا بد أن أنزل في ضيافة الحكومة، فكلموا وزير الخارجية فقال لهم: لقد دعوته إلى ذلك من قبل فلم يقبل أبو مثواه، فحتَّموا عليَّ أن أنزل في دار الضيافة فنزلت فيها وهي في الفندق الفخم المسمى (هوتيل دي كابل) خارج المدينة، ونزّال هذا الفندق ما بين أوروبي وأمريكي وتركي أو متفرنج يتزيا بزيهم، وبين الفندق ووسط المدينة نصف ساعة لراكب العربة، فشق علي أن أقيم في ذلك الفندق للأسباب التي ذكرتها، أضف إلى ذلك أن أجرة اليوم الواحد في ذلك الفندق ست عشرة روبية أفغانية، وأنا أستطيع أن أعيش بروبية واحدة في كل يوم؛ فإن الأطعمة والفواكه كثيرة ورخيصة، فلماذا أتحمل تلك المنة؟!

فبقيت ثلاثة أيام ثم قلت لأولئك العلماء: أنا جئت من الهند لزيارتكم والتحدث معكم، وقد أبعدتموني عنكم وصعبتم علي لقاءكم بهذه الضيافة التي حتمتم علي، فقالوا لي: نحن أردنا إكرامك؛ فإن كان الأمر كذلك، فاذهب إلى وزير الخارجية واعتذر له بمثل ما ذكرت لنا. وكان الوزير قد عين لي شهرًا كاملًا في الضيافة، فذهبت إليه فأعفاني من ذلك، ورجعت إلى بيت إلهي بخش.



الشيخ عمر أوزبك

من فوائد هذه الرحلة أني لقيت العالم الأمير المجاهد الشيخ عمر أوزبك، وهو عالم من خيرة علماء أوزبكستان من الأتراك المسلمين القاطنين بالاتحاد السوفييتي، حارب الاستعمار الروسي اثنتي عشرة سنة كما أخبرني هو بنفسه بذلك رحمة الله عليه. وقص لي قصته، وهي باختصار أنه لما وصل الزحف الشيوعي إلى بلاده نادى في الناس بالجهاد فتبعه تلامذته وكثير من المؤمنين، وخرجوا إلى الجبال وأخذوا يغيرون على العدو المغير على بلاده ليسلبهم أثمن شيء عندهم وهو الدين، فما زالوا يحاربون مدة اثنتي عشرة سنة حتى قتل أكثرهم وضاقت عليهم المعيشة، ففروا إلى الحدود الأفغانية، فقبض عليهم الأفغانيون، وكان مع الشيخ أهله وثلاثمائة من خير أنصاره، ثم عرفت الدول الأفغانية فضل هذا الشيخ وعلمه وصلاحه فأطلقت سراحه وأعطته مبنًى كبيرًا سكن فيه وجعل بعضه مدرسة ومسجدًا، ففرحت كثيرًا بلقاء هذا الشيخ لأن نور الإيمان كان يشرق على وجهه كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩].



الكلام بالعربية

كنت أزور هذا الشيخ مرة بعد مرة، فجاءني يومًا رجل وقال لي: إن زوجة الشيخ تسلم عليك، وتقول: إنها علمت أن الشيخ قد فرح بقدومك وأجلّك. فهي ترجو أن تشفع لها ولأولادها عنده أن يتكلم معهم بلغتهم ولو ساعة في كل يوم، فقلت في نفسي: هذه معضلة! ثم ذهبت إليه وشفعت عنده، فقال لي: إن الروسيين أجبرونا على تعلم لغتهم فتعلمناها، وأتقناها؛ ولولا أنهم علموا أن تعلم لغة القوم يقرب المتعلم منهم؛ لما أجبرونا على تعلم لغتهم؛ فأنا لا أتكلم مع المسلمين الأقربين والأبعدين إلا بلغة القرآن والرسول ﷺ، فإن شاءت هي وأولادها أن أتحدث معهم فليتعلموا لغة القرآن والرسول، وأنا مستعد لتعليمهم إياها. وكان هذا الشيخ الجليل يتقن ثلاث لغات التركية وهي لغته والفارسية والروسية، كتابة وقراءة وتحدثًا وتأليفًا وكان رحمه الله صادقًا فيما ذكر.



زيارة الملك

في تلك الأيام جيء بجنازة محمد عزيز خان أخي الملك «ناذر شاه» قتل في جرمانية وكان سفيرًا لأخيه في برلين، فوجهت أم الملك السابق آماني الله خان طالبًا أفغانيًا لقتله انتقامًا لابنها فقتله، وكان وزير الخارجية فضل محمد قد عرض عليَّ مرتين زيارة الملك، فدعوت للملك بخير، وقلت: لا حاجة لي عند الملك، وإنما جئت للقاء العلماء، فإن كان واجب الضيافة يقضي علي بزيارته فأنا مستعد لها، فلما جاءت جنازة أخيه رأى العالمان الجليلان الشيخ سيف الرحمن والشيخ منصور أنه لا بد من زيارته وتعزيته، فذهبت معهما وعزيناه، فتلقانا بما ينبغي للعلماء من الإجلال، وجلسنا في مكان غير بعيد من مجلسه

وكان المجلس يضم جميع الوزراء والأعيان وسفراء الدول كلهم فكانت الوفود من القبائل والمدن تأتي لتعزيته فلا يكاد الوفد الواحد يحصل على أكثر من خمس دقائق لكثرة الوفود وضيق الوقت المحدد، وكان كل وفد يقدم أمامه قارئ القرآن فيقرأ آية واحدة قصيرة ثم يعزونه بالفارسية، فهمت تقريبًا كل ما قال، وفي السوق إذا سمعت كلام أصحاب الدكاكين لا أفهم ما يقولون إلا قليلًا، وسبب ذلك أن المتكلمين باللغة الفارسية في تلك البلاد مختلفون، فكلما ازداد أحدهم علوًا في الثقافة والأدب الفارسي، يُكثر من إدارج المفردات والجمل العربية في كلامه، فلا يبقى إلا الضمائر وبعض الأفعال التي تُختم بها الجمل، وبينما نحن كذلك جاء الشيخ عمر أوزبك، ولم يصحبه أحد مع أن تلامذته يُعدّون بالمئات كما تقدم، وأظنه فعل ذلك تواضعًا، ووقف أمام الملك فتعوذ وبسمل بصوت عال وبدأ سورة طه حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، وذلك ربع هذه السورة، وكانت قراءته في غاية الترتيل، ولم يجسر أحد أن يقول له: قد أطلت وأخذت أكثر من حقك من الوقت فاختمْ، ثم عزاه بالعربية الفصحى وانصرف.



لماذا لم أحرص على زيارة الملك؟

لم أحرص عليها لأن القوم اعتادوا أن لا يجيئهم أحد من العرب إلا طامعًا في رفدهم فتوكلت على الله، وقلت في نفسي: لأقيمن لهم البرهان على أن العرب ليسوا كلهم مُستجدين لاسيما وقد علمت من أستاذ اللغة العربية وهو مصري- نسيت اسمه لسوء الحظ- أنه في تلك السنة زار أفغانستان رجلان ممن ينتمون إلى العلم والأدب؛ أحدهما عراقي والآخر شامي (ولا أقول سوري لأنه معرب سرياني كما أن سوريا معناه بلاد السريانيين والعرب لا تعرف بين العراق ومصر إلا الشام كما قال شاعرها:

أَزَمَانُ سَلْمَى لَا يَرَى مِثْلَهَا   الرَّاؤُونَ فِي شَامٍ وَلَا فِي عِرَاقِ

وأشعارها في ذلك كثيرة).

أما العراقي فحكى لي عنه أمورًا قبيحة منها أنه عندما أراد التوجه إلى أفغانستان ذهب إلى سفيرها الأستاذ المجددي في جدة فسأله توصية إلى الحكومة لتضيفه وتكرمه فكتب له ما أراد، فلما وصل لم يستقبله وزير الخارجية ولا رجال الضيافة بما كان يؤمل من الحفاوة، وزاد في الطين بلّة وفي الطنبور غنة أنه طلب لقاء الملك فلم يروه أهلًا لذلك إلا أنهم أنزلوه في دار الضيافة، ولما أراد السفر سألوه: ما هي وجهتك؟ فقال: بغداد، فقالوا: بأي طريق؟ فقال: إيران. فقدموا له من المال ما يكفي لنفقات سفره في الدرجة الأولى وظن أن ذلك المال جائزة فاستصغرها وأطلق لسانه في الفندق بسب الحكومة والطعن فيها، فبلغ وزير الخارجية فدعاه وقال له: بلغنا أنك تسبنا على رؤوس الأشهاد فما ذنبنا؟ فقال: أنا صحفي كبير مرتبط مع صحيفة واسعة الانتشار ولم تسهلوا لي لقاء الملك، ثم أعطيتموني جائزة حقيرة. فقال له الوزير: لولا الناس رأوك في ضيافتنا لأمرت بسجنك ثم إخراجك من البلاد على حالة لا تسرك، ولو علمنا أنك هكذا ما استقبلناك ولا أنزلناك في دار الضيافة، والنقود التي أعطيناك ليست جائزة كما توهمت ولا ثمنًا لدعاية تعملها لنا في الصحيفة التي تذكر أنك مراسلها، فلا حاجة

لنا بدعايتك، ولكن من عادتنا أن كل ضيف ننزله في دار ضيافتنا إذا أراد الرحيل قدمنا له زادًا يوصله في الدرجة الأولى إلى البلد الذي جاء منه، وقد سألتك عن وجهتك وطريق سفرك وإلى أين تسافر فأخبرتني؛ فقدمنا لك مقدار ما يكفي لسفرك في الدرجة الأولى، فقال: عدلت عن السفر بطريق إيران وأريد أن أسافر بطريق البحر وهذا لا يكفيني؛ فقال له الوزير: فهلا جئتني وأخبرتني بذلك فأزيدك في مقدار الدراهم دون أن تطلق لسان السوء في فندق مشحون بالأجانب من أجناس مختلفة.

وخبرني الأستاذ المصري بأمر هو أخبث من ذلك، فقال: قال لي ذلك العراقي: هل تريد أن تسافر إلى مصر بطريق العراق؟ قال: فقلت: نعم، قال: فقال لي إذا وصلت إلى بغداد فزرني؛ فإن لي أختًا جميلة أقدمها لك لترافقك، (قال مؤلف هذا الكتاب: ووجود هذا الرجل في العراق لا يضير العراقيين ولا ينقص من قدرهم فهم أهل الشجاعة والكرم والإباء وشرف النفس ولا يوجد في الدنيا شعب كلهم خيار، فهذا من الشذاذ، وقد سجنه العراقيون سنين ونبذوه فهام على وجهه)، أما العالم الشامي فإنه لم يفعل شيئًا من مثل ذلك إلا أنه جاءهم بقصد الاستجداء وقبل ما قدموه له من المال ولم يتعفف عنه، ولذلك صممت ألا أقبل منهم شيئًا.



المرض بالحمى النافض

كانت مدينة كابل في ذلك الزمان وهو سنة ١٣٥٢هـ غير نظيفة ولا مبلطة الشوارع، وكانت المياه القذرة تجري في وسط المدينة في قنوات مكشوفة وتنبعث منها رائحة كريهة، فبعد إقامتي فيها نحو شهر أصابتني الحمى النافض التي تسمى في هذا الزمان ملاريا، وكنت في دار إلهي بخش ولا أستطيع أن أتفاهم مع خدامه، وأخذني إلى طبيب متخرج في لندن، فأعطاني دواء فلم ينفعني، وكان يتردد علي لطلب علم الأدب العربي الشيخ محمد عمر الأفغاني، وكان قد درس في بلاد الشام وتزوج بامرأة شامية وله منها ولد عمره اثنتا عشرة سنة، وكان قد اقترح علي أن أنتقل إلى منزله ليخدمني هو وأهله فأبى إلهي بخش، فلما مرضت وعجزت حتى عن تناول الماء للشرب؛ استأذنت أبا مثواي في الانتقال إلى بيت محمد عمر فأذن لي، فأقمت في بيته مدة تقارب عشرين يومًا وكان إلهي بخش لا ينقطع عن زيارتي، ومما قاله لي ذات يوم: نحن ما رأينا من العرب أحدًا عفيف النفس يحافظ على شرفه مثلك. فقلت له: إن في العرب من أهل الفضل والشرف والعفاف الجم الغفير، ولو أنك ذهبت إلى بلادهم لرأيت إباءهم وكرمهم وعلو همتهم، ولا يأتيكم هنا منهم إلا قليل جدًّا من ذوي الحاجات.

وكانت الحمى تأتيني يومًا وتتركني يومًا، وفي اليوم الذي تأتيني فيه تبدأ قبل الزوال بساعة فلا يأتي وقت العصر إلا وقد فقدت إدراكي وصرت أهذي هذيانًا، وكان محمد عمر وأهل بيته يعتنون بي أشد العناية بحيث لو كنت في بيتي لما لقيت أكثر من ذلك فجزاهم الله خيرًا وأكرمهم في الدنيا والآخرة، وكانت لغتهم هي العربية، فلا أحتاج إلى كلفة فيما أريد، ولم تكن تفارقني الحمّى إلا بعد منتصف الليل، وكنت في ذلك الزمان أعتقد أن جمع التقديم للمسافر لا يجوز وإنما جمع التأخير فكنت أؤخر صلاة الظهر إلى أول وقت العصر، فلا يكون عندي من الإدراك ما أضبط له الصلاة، فكنت أسرع في الصلاة مضطجعًا بالفكر وحده، فتأخذني

غمرة، من الإغماء ثم أفيق ثم أشرع في الصلاة مرة أخرى ثم يأخذني الإغماء ثم أشرع فيها مرة ثالثة، فلا أكاد أتمها إلا في الثالثة أو الرابعة، ولو كنت في ذلك الوقت آخذًا بالرخصة كما آخذ بها الآن، لصليت الظهر والعصر جمعًا في أول وقت الظهر قبل أن يختل عقلي، وكانت تلك الحمى تبلغ من الشدة إلى حد أنني حين أبول أصيح من شدة حر البول، فلم يمل محمد عمر ولم يكل.



علاج غريب

كنت في زمان الجهل أكتب للمحموم في قشرة لوز (فرعون) وفي أخرى (قارون) وفي أخرى (هامان) كلهم في النار، فآمر المحموم أن يتبخر بالقشرات الثلاث في كل يوم حين تجيئه الحمى؛ فقلت في نفسي وقد ضعف عقلي وجسمي: دعني أجرب هذا العلاج، ثم قلت: ليس عندي دليل شرعي على أن هذا يجوز ولكن غلبني الضعف، وقلت لمحمد عمر: ائتني بشيء من اللوز لأكتب على قشوره. فلم يجد شيئًا، فقلت له: اكتب على قطع من القرطاس بدل قشرة اللوز ما تقدم ذكره. فكتب ذلك، ولما جاءتني الحمى وبدأ غليانها يشتد تبخرت بتلك القطع فخفت عني الحمى إلى حد أنني لم أفقد عقلي في ذلك، وصليت الظهر والعصر جالسًا، وقلت لمحمد عمر: ينبغي أن أرجع إلى الهند. فقال لي: أنت ضعيف جدًا لا تستطيع السفر. فقلت له: اطلب من مدير المدرسة رخصة ثلاثة أيام لتصحبني إلى حدود الهند؛ فإن مت في الطريق، فغسلني وصلّ عليّ وادفني؛ وإن وصلت إلى الحدود، فارجع راشدًا، فطلب الإجازة وحصل عليها.

وفي ذلك اليوم جاءني إلهي بخش فقلت له: سلم لي على وزير الخارجية فضل محمد وقل له: إني أشكره وأشكر جلالة الملك ورئيس الوزارة على إكرامهم وأستأذن في السفر، فرجع إلي في اليوم الثاني الذي لا تجيئني الحمى ووجد رجلين من المدينة النبوية عند محمد عمر فسألني عن الحال وبلغني سلام وزير الخارجية، وقال لي: اكتب عليها بالإنكليزية أنك تسلمت خمسمائة روبية أمر لك بها رئيس الوزراء على ما جرت به العادة من تقديم الزاد لكل ضيف ينزل في ضيافة الحكومة بقدر ما يوصله إلى البلد الذي يقصده، وقد أخبرته أنك تريد الرجوع إلى (لكناو) وهذا المقدار هو أجرة السفر إلى (لكناو) في الدرجة الأولى، فكتبت على تلك الصحيفة بالإنكليزية: أني أشكر جلالة الملك ومعالي رئيس الوزراء، ومعالي وزير الخارجية، وأعتذر عن قبول هذه الهدية لأني كما أخبرت معالي الوزير في البرقية قبل دخول أفغانستان وأخبرته مرارًا مشافهة أن غرضي من زيارة أفغانستان زيارة العلماء والاطلاع على أحوال المسلمين ولا حاجة لي بذلك المال، فقرأه إلهي

بخش وقال: الحمد لله هذا الذي كتبت كنت أتوقعه وأخبرت الوزير به وكنت خائفًا أن أكون مخطئًا فإني قلت له: غالب ظني أن محمدًا تقي الدين الهلالي لا يقبل هذه الدراهم وقد صدق ظني.

ففهم الرجلان المدنيان أنني رفضت قبول ذلك المال؛ فلما انصرف إلهي بخش أظهرا غضبهما، وقالا لي: يا شيخ، أَيْشِ سويت؟ ما تخاف الله نحن جئنا من المدينة إلى هنا وقطعنا بحورًا وبرًّا، ونحنُ محتاجان إلى روبية واحدة، وهذا مال حكومة؛ فإن كنت مستغنيًا عنه، فهلَّا قبلته وقدمته لنا حتى يكون لك عند الله أجر عظيم. وأغلظا عليَّ في القول حتى اتهماني بالنفاق، فأنكر ذلك عليهما محمد عمر فقلت له: دعهما فإن الحاجة أنطقتهما بذلك، وشرحت لهما قصة العراقي والشامي؛ فأصرا على أن عملي كان خطأ، فقلت لهما: هذا هو اجتهادي.



حال المسلمين في أفغانستان في ذلك الزمان

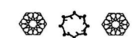
كان أمان الله خان الملك السابق قد أجبر النساء على السفور ولبس الثياب التي لا تستر عورة المرأة، وهي كلها عورة إلا الوجه والكفين، وأجبر الرجال حتى قاضي كابل وعمره ثمانون سنة أن يلبسوا الثياب الأوروبية الضيقة، وكان يشجع الفتيات على حضور الحفلات شبه عاريات، فلما انتصر عليه الملك «ناذر شاه» رجعت النساء إلى حجابهن ومُنعن من الخروج إلا لحاجة مع التستر التام، ولكن كانوا غالين في التمسك بفروع المذهب الحنفي، فكانوا يؤخرون العصر إلى قرب الاصفرار، ولا يقبلون من مسلم أن يكون له مذهب غير حنفي، حتى إنني لما كنت مسافرًا من بشاور إلى كابل وصار وقت الظهر، ووقفت السيارة فنزلت وتوضأت وتوضَّأ بعض المسافرين وجاؤوا ليصلوا معي، فلما رأوني رفعت يدي عند الركوع قطعوا صلاتهم وصلى كل واحد وحده.

ومرة سافرت في سيارة من لاهور إلى بشاور؛ فلما جاء وقت الصلاة توضأت وصليت معهم مأمومًا، فلما رأوني أرفع يدي عند الركوع وعند الرفع منه وعند القيام من التشهد الأول أخذوا يتكلمون مع الإمام غضابًا باللغة الأفغانية، وطال خصامهم معه حتى بعد ما ركبنا السيارة، فلما انتهت الخصومة التفت إلي وقال بالعربية: أتعرف لماذا كان هؤلاء يخاصمونني؟ قلت: لا. قال: لأنك رفعت يديك في الصلاة، ظنوا أنك من الفرق الضالة، فبينت لهم أن الحق ليس منحصرًا في المذهب الحنفي وحده، وأن أئمة أهل السنة كل واحد منهم روى عن النبي ﷺ أحاديث صحت عنده فعمل بها وعمل بها أتباعه.

وكان ذلك الإمام من جماعة مولاي إلياس وهي جماعة مشهورة في الهند عندها شيء من التصوف يطوف رجال هذه الجماعة في جميع أرجاء الهند وفي أوروبا وأمريكا وفي أفريقية، وكانوا يزورون المغرب في كل سنة يدعون الناس إلى قول لا إله إلا الله والمحافظة على الصلاة وهم موجودون هنا في المدينة أيضًا، ومن عادتهم أنهم لا يقبلون من أحد أهل البلدان التي يزورونها شيئًا لا مالًا ولا طعامًا إلا إذا تحققوا أن من قدم لهم ذلك الطعام من أهل العلم والصلاح وإخلاص

النية لله، وكان يخرج معهم بعض أصحابنا السلفيين إلى القرى والبوادي للدعوة، والذي أخذته عليهم هو الالتزام الشديد لفروع الحنفية، فلا يكادون يعملون بالأحاديث الصحيحة إذا خالفت فروع الحنفية، وهناك شيء آخر أقبح من ذلك، وذلك أنهم يصلون في المساجد المبنية على القبور التي اتخذت أوثانًا تُعبد من دون الله، ولا ينُكرون على عبّادها، وحضرت مجالسهم في بشاور؛ يجتمعون كل يوم جمعة بعد العصر في بيت أحدهم، وما عندهم لا رقص ولا غناء ولا ذكر مشتمل على بدعة، يقرأ كل واحد منهم ما تيسر من القرآن في المصحف ثم يترجمه إلى لغة يفهمها الحاضرون إما لغة أردو أو الفارسية أو الإنكليزية، وأنا لا أمنع أصحابنا من مرافقتهم إلا أنني أحذرهم من الصلاة في المساجد المبنية على القبور، وآمرهم بإنكار الشرك والبدعة كلما رأوا شيئًا من ذلك بقدر جهدهم.

ولم أر في أفغانستان منكرات ظاهرة كتبرج النساء وشرب الخمور، ونسيت أن أقول: إنني لما قطع أولئك الأفغانيون صلاتهم خلفي لمْتهم على ذلك؛ فقال لي رجل من الذين لم يصلوا: لا تعبأ بهؤلاء فإنهم لا صلاة لهم لأنهم (سود خور) يعني أكلة الربا.



بوز دوزخ

ذكرت فيما مضى أني لم أر في أفغانستان منكرات ظاهرة، وذلك يدل على أنهم كانوا متمسكين بالدين على قدر مبلغهم من العلم، ولكن كان هناك متفرنجون قليل عددهم عظيم كفرهم، وكانوا مستائين من انتصار الملك «ناذر شاه» وقضائه على دعوة أمان الله خان التي تشبه الدعوة الكمالية: ومن هؤلاء نائب وزير التعليم، وكان الأفغانيون يسمونه بوز دوزخ؛ ومعناه بالفارسية (تيس جهنم)، أخبرني الشيخ إسماعيل الغزنوي -رحمة الله عليه- أنه زاره في مكتبه فرأى صورة لينين معلقة فوق رأسه فقال له: كيف تعلق هذه الصورة، وأنت تعلم أن صاحبها عدو للدين؟ فأجابه بقوله: إني أعبد هذا الرجل.

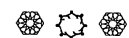
❁ ✧ ❁

عودة إلى السفر

خرجت مسافرًا من كابل يرافقني الصديق المخلص محمد عمر في اليوم الذي لا تأتيني فيه الحمى على أنها بعد ذلك العلاج الغريب صارت لا تأتيني إلا خفيفة جدًا. ركبنا في سيارة البريد وسارت بنا ساعة واحدة، فأحسست بالجوع ولم أحس به منذ أصابتني الحمى إلا في تلك الساعة فقلت: يا محمد عمر، أنا جائع. فقال: هذه علامة خير أنا ما جئت بطعام لعلمي أنك لا تأكل، وما عندي إلا شيء من الخبز والمشمش، والمشمش في كابل مطعَّم بالخوخ كبير الحجم لذيذ الطعم (والتطعيم هو أن يؤخذ غصن من شجرة فيحفر له في ساق شجرة أخرى غار، ويدخل بعض الغصن في ذلك الغار ثم يسد فتتغير ثمرة الشجرة وتصير ممتزجة مع ثمرة الشجرة التي أخذ منها الغصن فيتألف منهما حجم جديد وطعم جديد).

فأخرج لي ما عنده من الخبز والمشمش فأكلته ولم أشبع، ومررت على مطعم فيه قدور كبيرة مملوءة باللحم والمرق وخبز أفغاني كبير يكاد الرغيف منه يكون كخمرة المصلي؛ أي: الحصير الذي يصلي عليه، فقلت لصاحب السيارة: قف فإني جائع جدًا؛ فقال لي: أمامك مطاعم أفضل من هذا. ثم تعطلت السيارة فلم نصل إلى أول مطعم إلا بعد مضيّ هزيع الليل، وكنت خائفًا أن لا أجد طعامًا، ولكني وجدته، فأكلت شيئًا كثيرًا من اللحم والمرق والبطيخ، ولم أجد خبزًا ولم يضرني شيء من ذلك ولا أصابتني الحمى بعد ذلك، فتعجبت من تأثير ذلك العلاج العجيب، ولم أستطع تعليله إلى الآن، وخطر ببالي أنه ربما يكون حر الجمر والدخان الذي كنت أتبخر به سببًا في زوال الحمى، وقد خبرني بعض الأطباء الأوروبيين الذين هم معجبون بطب العرب أن العرب كانوا يداوون الشيء بجنسه لا بضده، كما يفعل اليونانيون فيداوون الحرارة بحرارة من نوع آخر، والبرودة برودة من نوع آخر وهكذا، فإن صح ما قاله هذا الطبيب، فلعل حرارة النار أذهبت حرارة الحمى بإذن الله. والله أعلم.

ولما وصلنا إلى حاكم بلاد الحدود بين أفغانستان ومستعمرة الهند الإنكليزية ويسمى هذا الحاكم سرحد دار (ومعنى سرحد بالفارسية: رأس الحد، ودار تختم جزء كلمة تُختم بها أسماء المحترفين؛ فيقال للخازن خزنه دار). أكرمنا حاكم الحدود وقدم لنا نوعًا من البطيخ لينًا يؤكل بالملعقة، تقطع البطيخة نصفين وتغرز ملعقة في وسط كل نصف ويقدم للضيف في صحن فيأكل اللباب بالمعلقة ويبقى القشر كأنه إناء مستدير، وجاءت امرأة أوروبية وقدمت له جوازها فسألها بالفارسية؛ فلم تفهم شيئًا، وتكلمت باللغة الفرنسية، فلم يفهم أحد من الحاضرين ما قالت، ثم تكلمت الإنكليزية، فلم يفهم أحد شيئًا؛ فاستأذنت الحاكم في أن أترجم له كلامها ففرح بذلك، فقلت له: إنها فرنسية وإنها مسافرة إلى كابل لزيارة زوجة السفير الفرنسي في كابل، فقدم لها نصف بطيخة وفيها ملعقة مغروزة وكنا نحن قد فرغنا من أكل البطيخ فتحيرت، وقالت لي: كيف يمكن أكل البطيخ بالملعقة؟ فقلت لها: هذا النوع لين جدًا يمكن أن تدخلي فيه الملعقة وتأخذي ملئها ثم تملئيها مرة أخرى حتى يبقى القشر كأنه إناء فارغ.



استدراك

ذكرت شيئًا وقع في كابل نسيت أن أذكره في محله. جاءني صاحب صحيفة إصلاح، وسألني أسئلة كثيرة تتعلق بحال المسلمين في المغرب فأخبرته بجميع ما يرتكبه المستعبدون الفرنسيون في المغرب من الفظائع من قتل وسجن ونفي وتعذيب واغتصاب أملاك، وكان جواز سفري قارب الانتهاء فعزمت على أن أرجع إلى الهند قبل انتهاء مدته لأنني كنت لا أشك بأن السفارة الفرنسية في كابل قد اطلعت على ذلك المقال وعلى مقال آخر نشرته في مجلة أخرى نسيت اسمها، فمنعني الشيخان سيف الرحمن ومنصور فقلت لهما: إن السفير الفرنسي لا بد أن يكون قد اطلع على المقالين؛ فإذا أقمت هنا إلى أن تنتهي مدة الجواز وذهبت إليه ينتزع مني الجواز ويطردني. فقالا: توكل على الله، ولا تعجل بالرحيل، وربما نأخذ لك جوازًا أفغانيًا. وهذا من المستحيل ولكنهما شيخان من شيوخ علم الدين لا علم لهما بقوانين جواز السفر. فبقيت إلى أن انتهت مدة الجواز، وتوجهت إلى السفارة الفرنسية وأنا خائف أشد الخوف؛ فلما قدمت جوازي للكاتب، أخذ يسألني عن المغرب وعن رحلتي إلى هذه البلاد، وقبل ذلك قال لي: بأي لغة تتكلم؟ فقلت: العربية والإنكليزية، فقال لي: ولا تعرف الفرنسية؟ فقلت: لا. فدعا بترجمان يسمع كلامي بالعربية، ثم يترجمه بالفارسية. ثم يُترجم بالفرنسية! ثم قال لي: تكلم العربية. فتكلمت فقال لي: أنا أفهم كل ما تقول ولا حاجة إلى الترجمة وقد أقمت بالمغرب سنين وبالجزائر سنين فما رأيت أحدًا يتكلم بالعربية بفصاحة مثلك وأخذ الجواز وجدده، وقال لي: إن ثمن التجديد خمس عشرة روبية، وقد أعفيتك من دفعها إكرامًا لعلمك باللغة العربية. ثم قال لي: أين تعلمت الإنكليزية؟ فقلت: في الهند. فقال لي: كم سنة قضيت في تعلمها؟ فقلت: سنتين، فقال: سنتان فقط، وتقدر أن تتكلم بها؟! فقلت: نعم.

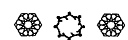


عودة إلى الهند

لما وصلنا إلى حدود الهند ودعني الشيخ محمد عمر راجعًا إلى كابل لأنه وجد سيارة متوجهة إليها، ولما رأى مفتش الأجوزة جوازي، قال لي: أنت ليست عندك سمة الدخول إلى الهند. فأريته أن نائب القنصلية الفرنسية في البصرة كتب في جوازي ما نصه: (يجوز لحامله أن يدخل الهند كم شاء من المرات ما لم تنقض سنة من تاريخه) فأخرج لي كراسًا مكتوبًا بالآلة، وقال لي: اقرأ هنا فقرأت بالإنكليزية ما معناه: (كل قادم من أفغانستان يجب أن تكون عنده سمة دخول إلى الهند إما من كابل وإما من جلال آباد)، وجلال آباد مدينة صغيرة على نحو الثلث من طريق كابل، ثم قلت له: راجع رؤساءك في بشاور بالتليفون. فقال لي: إن القانون صريح فمراجعتي لهم تكون غباوة مني، وإياك أن تظن أنني أريد بك شرًّا، هذا سرير للنوم، وأنا مستعد لضيافتك إلى أن تمر بنا سيارة متوجهة إلى أفغانستان. ففوضت أمري إلى الله، وذهبت حقيبتي مع سيارة البريد التي كنت مسافرًا فيها إلى بشاور، وقال لي: تريد شرابًا أخضر أو أسود؟ فقلت: لا أريد شيئًا. فلم يمض إلا وقت قليل حتى جاءت سيارة من الهند متوجهة إلى أفغانستان، فأمر سائقها أن يوصلني إلى سرجد.

فلما رجعت إلى حاكم الحدود وأخبرته بما جرى، تأسف وقال لي: مرحبًا بك! بت هذه الليلة هنا، وفي الصباح تسافر إلى جلال آباد؛ فإن قُضي غرضك فيها؛ فذاك، وإلا تتوجه إلى كابل. وأخبرني أن تلك المرأة الفرنسية لما ذهبت أنا إلى حدود الهند سألتهم بالإشارة عني فأخبروها أني مغربي، فطلبت لقائي، فلما بحثوا وجدوا السيارة قد سارت، وكان الفرنسيون في ذلك الوقت يحكمون المغرب الكبير أي معظمه من حدود تونس إلى حدود سينغال، ويعطفون على المغاربة إذا رأوهم خارج المغرب كأنهم منهم؛ أما في داخل المغرب، فيذيقونهم العذاب الأليم.

فبت تلك الليلة عند الحاكم، وفي الصباح توجهت إلى جلال آباد، فلقيت الكاتب المختص، فلم يأذن لي بالدخول إلا بعد مُضي ساعتين، ولما أذن لي وأخبرته بمرادي أخذ يقرأ جوازي ويسألني عن كل شيء خفي عليه منه إلى أن أتى عليه، ثم قال لي: لا بد أن تسافر إلى كابل. واستغرق بحثه في الجواز ساعة، وكان من أخبث الكتاب، وكان هنديًا، ثم توجهت إلى كابل وأقمت بها أربعة أيام حتى حصلت على سمة الدخول إلى الهند من السفارة الإنكليزية، ورجعت إلى بشاور، ونزلت عند الشيخ عبدالعزيز الندوي ثم عدت إلى (لكناو).



ركوب الفيل

ترددت قليلًا في إثبات قصة ركوب الفيل لأنها من الاستطراد الذي لا علاقة له بالدعوة ولا بطلب العلم فتخيلت أن بعض القراء الذين يحبون الاطلاع على كل شيء يقول لي: أثبتها كما أثبتَّ غيرها مما لا علاقة له بالموضوع، ونُهْمة القراءة كنهمة الطعام، فكما أن الطاعم لا يصبر على طعام واحد، فكذلك القارئ.

كان في الهند رجل من أهل العلم يتردد عليّ حين كنت في (لكناو)، وقد أخبرني أن أصله من العرب وأبوه (راجا) أي من رؤساء الإقطاع، ودعاني مرارًا لزيارة والده فأجبته إلى ذلك، وأخذت معي أخي محمدًا العربي ومحمد مظهر وكلاهما كان طالبًا في المعهد السعودي بمكة، ثم انضم محمد مظهر إلى تلامذة ندوة العلماء، وهو مولود بمكة وأصله من الهند، فبعث لنا ابن الراجا فيلًا قد جعل على ظهره مُتَّكأ من الزرابي والوسائد، وركبنا القطار من (لكناو) حتى وصلنا إلى المحطة التي كان الفيل ينتظرنا فيها، فأناخ الفيَّال الفيل، ولم أكن أعلم قبل ذلك أن الفيل يُناخ كما يُناخ البعير، وبعدما أناخه لم ينقص من علوه إلا قليل لقصر قوائمه وضخامة بطنه، فأعاننا الفيال حتى ارتقينا إلى ظهره، وجلسنا نتحدث ونطالع الكتب، فركب الفيال على قفا الفيل وبيده عصى كعصى القدوم في رأسها حديدة يضرب بها الفيل على رأسه عند الحاجة، فسار بنا الفيل سيرًا سريعًا، وكان الفيّال قاسيًا على من يصادفه في الطريق من الفلاحين الذين كانوا يسافرون من مكان إلى مكان في عربات تجرها الثيران، فإذا أحسّ الثور بصوت الفيل ينفر ويخرج من الطريق وهو مرتفع فيقع في المزرعة ويسقط الفلاحون من عرباتهم المفتوحة وتسقط أمتعتهم فيضحك الفيال فرحمناهم ونهيناه عن ذلك.

ولما حان وقت صلاة الظهر قلنا له: نريد أن نصلي. فأناخ الفيل حتى نزلنا وصلينا ثم عدنا للركوب. وللفياليين لغة تعرفها الأفيال ولا يعرفها أحد غيرهم، فوصلنا إلى الراجا ووجدنا له قصرًا تحيط به أراض واسعة يملكها كلها ويملك من فيها من الفلاحين؛ فأقمنا عنده بضعة أيام وأكرمنا غاية الإكرام، وأخبرنا أن جده جاء من عُمان منذ زمان وأن أسلافه تركوا له هذه الثروة، وهو يحن إلى وطنه

الأصلي إلى بلاد العرب.

وعلى ذكر الفيلة أقول: إن أمثال هذا الراجا في الهند كثير وكلهم رؤساء إقطاع، الواحد منهم يملك بضعة وعشرين فيلًا، علفُ الفيل الواحد منها يكفي للنفقة على إطعام خلق كثير من الناس، وليس لهم غرض بهذه الفيلة إلا التفاخر والتكاثر، وكنت أشاهد مواكب الفيلة في مدينة (لكناو) إذا كان عند أحد الرؤساء الملقبين بهذا اللقب فرح كعرس أو خطبة يؤلف رعاياه موكبًا من الفيلة وعلى ظهرها قباب من الحرير المذهب يجلس فيها أقارب الراجا من رجال ونساء ويطوف الموكب المدينة كلها، وتكون القباب التي على ظهور الفيلة مساوية في الارتفاع تقريبًا لمن يجلس في الطبقة الأولى من البيوت.

أقمنا عند الراجا العربي بضعة أيام كما تقدم، ثم استأذناه في السفر فهيأ لنا الفيل، وكان أخي محمد العربي مولعًا بركوب الإبل، فسأله أن يعطيه ناقة يركبها بدل الفيل فأعطاه إياها، ولما أخذ الفيل يسير بنا في الطريق إلى محطة سكة الحديد، وبيننا وبينها ثلاث ساعات بسير الفيل، أخذ يسير ببطء شديد، فقلنا له: أسرع كما كنت تسرع في المجيء حتى لا يفوتنا القطار. فقال لنا: إنني سأسرع بكما كما أسرع بسيدي الراجا، ولكن لا أضمن لكما أن تصلا إلى المحطة قبل وصول القطار إليها؛ وإذا وصلنا متأخرين ووجدنا القطار قد فات، يلزمكم أن تبيتوا في القرية المتصلة بالمحطة ولا تجدون فيها طعامًا ولا مأوى وتمضون فيها يومًا وليلة إلى أن يجيء القطار من الغد، ففهمنا مقصوده وهو أنه يريد البخشيش؛ فأخذني العناد وقلت في نفسي: سيده يدعونا ليكرمنا وهو عبد يتحكم في رقابنا ويغرمنا، فقلت له: إما أن تسرع كما فعلت في المجيء وإلا كتبت إلى سيدك لينزل بك أشد العقاب، يا غدر! يا لكع! فأخذ يتكلم مع الفيل بلغة الفيالين ويضربه على رأسه بالحديد ويقول له: مَجَمّ مَجَمّ. (بفتح الميم والجيم وتشديد الميم) أي: أبطئ، فلا يزيد الفيل إلا إبطاء وتثاقلًا، فتعجبنا من ذلك.

وكنا قد سبقنا أخي محمدًا العربي بمسافة طويلة؛ فلما تباطأ الفيل لحقنا فسمع الفيل رغاء الناقة فنفر وهرب بنا فأخذ الفيال يضربه بالحديدة ويقول: مَجَمّ مَجَمّ. فلم يطعه، فقلنا: الحمد لله انحلت المشكلة، وأمرت أخي محمدًا العربي أن يبقى دائمًا خلفنا بناقته ويضربها لترغي، فبطل كيد الفيال وضحكنا منه كثيرًا، فوصلنا المحطة قبل مجيء القطار بساعة، وكان الفيّال وثنيًا، فلما نزلنا وأراد أن يرجع جمع

كفيه وألصق يديه بصدره إشارة لتحية الوداع، وهي تحية معروفة عند الوثنيين، وطلب البخشيش وهو ما يعطى من الإكرام للخدم فقلت له: مَجَمّ مَجَمّ هذا هو البخشيش الذي نعيطك، نعطيك الذي أعطيتنا وهو مَجَمّ مَجَمّ. فانصرف خائبًا، وهذه القرية التي فيها محطة السكة الحديد هي أحد أملاك الراجا.



الحمى النافض

اشتد عليَّ مرض الحمى حتى أصابتني في تسعة أشهر سبع مرات في كل مرة أبقى محمومًا من أسبوع إلى أسبوعين. ومن أجلّ من عرفته من الأطباء النطاسيين في مدينة (لكناو) الدكتور محمد نعيم الأنصاري، وقد نزلت عنده ضيفًا مكرمًا مرارًا قبل أن أستوطن (لكناو) في إحداها أقمت عنده خمسة عشر يومًا ليس لنا طعام إلا العدس لأن الحرب شبت نارها بين المسلمين والهنادك فتعطلت الأسواق، وجعل أغنياء الهنادك لكل من يأتيهم من سفلتهم برأس شخص مسلم سواء أكان ذكرًا أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا قويًا أو عاجزًا مبصرًا أو أعمى عشر روبيات.

وكان غاندي الزعيم الهندي طليقًا غير مسجون، وكان في إمكانه أن يخمد تلك الحرب بكلمة واحدة فلم يفعل لأنه كان من أكبر أعداء الإسلام، والجاهلون بحاله من العرب يقدسونه كما يقدسه الوثنيون في الهند ويسمونه المهاتما جهلًا منهم، والمهاتما معناه المقدس عند الوثنيين، وكان عالي الثقافة شديد التعصب عظيم المكر والدهاء يتظاهر للمسلمين بالمسالمة والمحبة كالحية الرقطاء، وقد زعم في صحيفة هريجان أن الله أوحى إليه أن طهر المنبوذين وألحقهم بإخوانهم من الطبقات العليا. وقال في صحيفته: فإن سألتموني دليلًا حسيًا على أن الله أوحى إليَّ بذلك، أقول لكم: ما عندي دليل، ولكني لا أشك في هذا الوحي.

وهذا العمل منه يدل على أنه لم يكن مؤمنًا بدين أسلافه البراهمة؛ لأن محو الطبقات وتوحيدها يهدم الدِّين البرهمي من أساسه؛ لأنه مبنيٌّ على عقيدة تناسخ الأرواح، وذلك أن الأرواح تأتي إلى الدنيا في أجسام الأطفال عند ولادتهم؛ فإذا كبر الطفل وعمل أعمالًا مطابقة لما تريده الآلهة وكان في طبقة سافلة كالمنبوذين، تنتقل روحه بعد موته وترجع إلى الدنيا في مولود من طبقة أعلى منها؛ فإذا عمل بما تريده الآلهة في هذه الطبقة الثانية، يرجع إلى الدنيا بعد موته في جسم مولود من الطبقة الثالثة، ثم إذا عمل بما تريده الآلهة في الدور يرجع بعد موته إلى الدنيا في جسم مولود من الطبقة العليا وهي طبقة البراهما.

أما إذا عمل بخلاف ذلك وكان في طبقة عالية غير طبقة البراهمة، فإنه يعود

إلى الدنيا في طبقة أسفل منها، وإن استمر على فعل السيئات في نظرهم لا يزال يسفل إلى أن ترجع روحه في أجسام الحيوان، ثم لا تزال تسفل حتى ترجع في أجسام الحشرات طبقًا لقانون الجزاء وهو الثواب والعقاب، ولذلك قتله المتعصبون من أبناء جنسه غيرة منهم على دينهم، وكنت مجاورًا لأحد أتباعه من خاصته، وكان طلبة العلم يأتون إلى بيتي فنجتمع على ذكر الله ،فآذاني ذلك الجار حتى اضطرني إلى الانتقال من شدة بغضه للمسلمين.

والآن بعد هذه الجولة أرجع إلى علاج الحّمى، كان الدكتور محمد نعيم الأنصاري إذا لم يكن مسافرًا يفحصني ويكتب لي العلاج ويحدد لي يومًا وليلة لزوال الحمّى، وإذا كان مسافرًا لا ينفعني علاج غيره، وهذا سبب عزمي على الرجوع إلى العراق وترك السكنى في الهند، وكان ذلك في شعبان سنة ١٣٥٢هـ ولم أبق في العراق إلا مدة يسيرة حتى سافرت إلى أوروبا كما تقدم.



الدعوة إلى الله في مكناس

سافرت من العراق إلى البلاد الجرمانية كما تقدم في سنة ١٩٥٩ بتاريخ النصارى، ثم توجهت إلى المغرب، وجلت فيه جولة ثم نزلت عند عميد الدعوة السلفية في المغرب أستاذي ومرشدي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي في بيته بمدينة فاس -رحمة الله عليه- وبقيت عنده إلى أن تم نقل عملي من جامعة بغداد إلى جامعة الرباط، والفضل في ذلك لله وحده ثم لنابغة المغرب العالم الأديب المتفنن ذي التآليف المفيدة والفضائل العديدة السيد عبدالله كنون أطال الله بقاءه وأدام في المعالي ارتقاءه.

ولما استقررت في مدينة فاس عزمت على استئناف العمل في الدعوة إلى اتباع الوحي عملًا بقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الآيتان: ٤٣، ٤٤] ما أعظم هذه الآية! وما أشد موت قلب من لا تحركه ولا تؤثر فيه! فشاورت شيخنا المذكور في ذلك فوجدته قد استولى عليه اليأس، فقال لي: دع هؤلاء الأموات فقد طبع الله على قلوبهم فقد تعبت في دعوتهم، وتعب قبلي رائد الدعوة السلفية العالم الكبير الشيخ شعيب الدكالي، وكان بحرًا زاخرًا في علم الكتاب والسنة وعلوم كثيرة. فقلت له: يا أستاذي، إني دعوت إلى الله في أقطار فنجحت دعوتي فدعني أجرب فقال لي: توكل على الله.

فبدأت دروس الدعوة في مسجد المدرسة العنانية في فاس، فما مضى إلا أسبوع واحد حتى غص المسجد بالمستمعين، وبعد مدة حضر درسي رجل يرتدي بزة أوروبية فاخرة؛ فلما فرغنا من الدرس وصلينا العشاء، عرَّفني بنفسه، وأخبرني أنه وزير الأوقاف، وأثنى على درسي، وقال لي: أين تريد أن تذهب؟ فقلت: أنا نازل في بيت أستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي. فقال لي: أنا آخذك بالسيارة إلى هناك. وذهبنا إلى هناك، فرحب به شيخنا وزاده تعريفًا بي، فقال لي: إذا أتيت الرباط؛ فأرجو أن تزورني في وزارة الأوقاف. فزرته لما ذهبت إلى الرباط لألقي دروسي في الجامعة، وبين فاس والرباط مائتان من الأميال المعروفة بكيلو

متر. وإنما سكنت في فاس مع بعده من الجامعة خوفًا من مرض الربو الذي يشتد عليَّ بقرب البحر ويخفّ أو يزول إذا ابتعدت منه، وقد علمتني التجارب أن كل من أصيب بهذا المرض في بلاد رطبة الهواء كشواطئ البحار، فدواؤه أن يفر إلى الأراضي الجافة الهواء كالصحاري، أما من أصيب به في بلد يابس الهواء، فدواؤه شواطئ البحار.

فزرت الأستاذ السيد مكي بادو، فرحب بي ودعاني للطعام وأكرمني غاية الإكرام؛ ولما خرجت من عنده جاءني أحد الموظفين، وقال لي: إن السيد المكي يعلم أنك تلقي دروس الوعظ والإرشاد لوجه الله لا تريد عليها مكافأة، ولكنه يحب أن تكون واعظًا رسميًا معيّنًا من قبل وزارة الأوقاف، وقد جعل لك مائتي درهم في كل شهر، وهذا شيء حقير جدًا بالنسبة إلى مقامك ودروسك القيمة، ولكن نظام الوزارة لا يسمح بأكثر من هذا، فإن رواتب الوعّاظ لا تزيد على مائة درهم. فقبلت ذلك واستمررت في دروسي ثمانية أشهر.

ثم انتقلت إلى مكناس بإشارة من أستاذي لأنها أقرب إلى الرباط فبينهما مائة وأربعون ميلًا بنقص ستين ميلًا، هذا بعد ما جربت هواءها ووجدته مناسبًا، وشرعت ألقي دروس الوعظ في الجامع الكبير فأقبل الناس كذلك على درسي في مكناس إقبالًا عظيمًا، ولكن الجامدين من الفقهاء وأصحاب الطرائق شرقوا بتلك الدروس، وكذلك المتأكلون بالنسب، ورأوا أنها أخذت تهدم ما بنوه من قصور الخرافات على الرمال، وتظهر للعامة جهلهم وانحرافهم عن الجادة فأجمعوا على أن يكيدوا لي كيدًا يقضي عليَّ، وكان الذي تولى كِبْرَ ذلك رجلًا له نفوذ ودالّة على أمير مكناس ونواحيها، وكان هذا الأمير من أبناء عمومة الملك محمد الخامس -رحمة الله عليه- وبينهما مصاهرة، فكان يفعل في إمارته ما يشاء، ولعلو مكانته عند الملك لا يستطيع وزير ولا رئيس أن يعارضه، فكتب ذلك الشخص ومع أولئك الأعداء كتابًا إلى وزارة الأوقاف يطلبون منعي من التدريس لأمور: منها: أنني بزعمهم أنكر كرامات الأولياء وأنقض المذهب المالكي، وعدّوا أمورًا سمعوها في دروسي من إنكار الشرك والبدع، ووقع على هذا الكتاب خمسمائة شخص.

وكان وزير الأوقاف في ذلك الوقت كما هو الآن معالي الأستاذ الحاج أحمد بركاش ومدير شؤون الوعظ والإرشاد هو العالم السلفي صاحب الفضيلة السيد محمد الطنجي وهما يعلمان أن الساعي في ذلك له نفوذ عظيم عند الأمير لا يرد له

طلبًا، ومع ذلك وفقهما الله سبحانه إلى جواب حاسم كان شجًا في حلوق المبتدعين ومضمونه: إنكم طلبتم عزل محمد تقي الدين الهلالي من دروس الوعظ ونقمتم عليه مسائل نسبتموها له فنحن نأمركم أن تكتبوا أدلتكم على صحة ما ذهبتم إليه في تلك المسائل، ونأمره أن يكتب أدلته على صحة ما ذهب فيها، ثم تُؤلف لجنة برئاسة الأستاذ عبدالله كنون، وتنظر في تلك المسائل وتحكم بالحق، فسقط في أيديهم ولم يكتبوا شيئًا.

وذهبت إلى شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي -رحمه الله- وأخبرته بذلك. قال لي: اذهب إلى الأمير، وقل له: إن أستاذي محمد بن العربي العلوي حثني على زيارتك، وأخبرني أنك من أعز أصدقائه. ولا تزده على ذلك شيئًا. وقبل أن أقوم بزيارة الأمير اجتمعت بذلك الشخص الذي أثار تلك الفتنة، فقال لي: إن المخبرين بلغوني أنك تخوض في مسائل السياسة في دروس وعظك، والخوض في السياسة لا يجوز لأي واعظ. فقلت له: أنا لا أذكر في دروسي إلا ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد دأبت على إلقاء الدروس بهذه الطريقة في أقطار مختلفة منذ أربعين سنة، وتصدى لمحاربتي رجال أقوى منك، فلم يستطيعوا أن يصدوني عن هذه السبيل، وليس بيني وبينك إلا هذه الدريهمات، وسأذهب إلى الرباط وأتكلم مع معالي وزير الأوقاف؛ فإن كان ما نسبت إليه صحيحًا استمررت على الدعوة إلى الله إلى أن تمنعوني بالعنف والقوة التي تدعون. فدعا شخصًا من الموظفين وقال: يا فلان، تعال اسمع ما يقول. فقلت له: أنا لا أنكر كلامي، فلا حاجة بك إلى الاستشهاد، وانصرفت من عنده.

ثم زرت الأمير وأخبرته بما أمرني به أستاذي أن أقول له، فرحب بي وقال لي: إن شؤون الأوقاف ليست بيدي، هي بيد وزير الشؤون الإسلامية علّال الفاسي، أما ما سواها من الأمور المدنية، فكل ما تريده من الحاجات فأنا مستعد لقضائه، فقلت له: أطال الله بقاءك! أنا ما جئت لحاجة تتعلق بالأوقاف ولا بغيرها، وإنما جئت لامتثال ما أمرني به أستاذي من زيارتكم ثم انصرفت من عنده.

وبقيت في مكناس تسع سنين في أثنائها هجم علي أولئك المحاربون برئاسة الشخص المشار إليه مرارًا، وفي كل مرة يُجمعون أمرهم ويجتهدون في كيدهم حتى يظنوا أنني، لا أفلت فينجيني الله تعالى ويبطل كيدهم.

المكيدة الثانية

بُني في المدينة الجديدة من مكناس مسجد جديد بأمر من الملك محمد الخامس -رحمة الله عليه- وهذا المسجد قريب من بيتي، وعُيّن فيه إمام وخطيب من أحد إخواننا السلفيين مولاي هاشم العلوي، ففرحنا بذلك، وجعلنا نصلي فيه الجمعة، وكنت أصلي فيه صلاة الصبح إمامًا، ويحضر الصلاة بعض إخواننا، ويحضر كذلك المبتدعون، وكان المسجد بعيدًا من بيت الإمام؛ فلم يكن يستطيع أن يحضر لصلاة الصبح، وكنت كذلك ألقي فيه درسًا أسبوعيًّا بين العشاءين. فكنت أصلي المغرب والعشاء إمامًا بإذن منه، ولو كان حاضرًا واستمررنا على ذلك لمدة سنة، فاتفق ذلك الشخص الذي تسبب في المكيدة الأولى مع فقيه منحرف على الكيد للإمام السلفي ولجماعتنا السلفية.

ومن عادة سكان المدن المغربية أن يصلوا الصبح على حساب المنجمين ولا يكلف أحد منهم نفسه أن ينظر إلى الفجر؛ أطلع أم لم يطلع، فكانوا يصلون الصبح قبل طلوع الفجر الذي يرى بالبصر بنحو نصف ساعة، فنهيت جماعتنا عن مشاركتهم في هذه الصلاة الباطلة، فكنا نؤخر الصلاة إلى أن يتحقق طلوع الفجر، وكان المبتدعون يمتعضون لذلك، ولكنهم لم يتجرؤوا على الكلام حتى وقع الاتفاق بين الرئيس والفقيه، فأوعز الفقيه إلى اثنين من الجهال المتحمسين للبدعة أن يوقعا فتنة في المسجد، فجاءا ذات يوم بل ذات ليلة، ولما وصل الوقت المعين لصلاة الصبح بحساب المنجمين قالا لشخص كان ينوب عن الإمام في حال غيبته: قم صلّ الوقت فلماذا ننتظر الهلالي وهو نائم في بيته؟ فامتنع إخواننا من الصلاة لأول وهلة ثم خافوا أن تقع مشاجرة في المسجد فصلوا معهم، فلما وصلت أنا وجدتهم قد فرغوا من الصلاة، فأمرت إخواننا أن يعيدوا صلاتهم وصليت بهم وبمن حضر من غيرهم.

وكنت ألقي درسًا بعد صلاة الصبح كل يوم، فلمتهم على موافقتهم للمبتدعين، وبينت بالأدلة القاطعة أن من صلى أي صلاة قبل أن يتحقق دخول وقتها بالرؤية لطلوع الفجر وغروب الشمس إن لم يحجب طلوعها حاجب... فإن كان هناك حاجب من سحاب وضباب، وجب الانتظار إلى أن ينتشر الضوء، وإلى أن يأتي

ظلام الليل مساء، أما صلاة الظهر والعصر والعشاء في أوقات الغيم، فيقدر لها بالتأخير إلى أن يتحقق دخول الوقت.

وفي الغد حضر ذانك الشخصان الساعيان في الفتنة فأرادا من نائب الإمام والحاضرين تعجيل الصلاة فمنعهما أصحابنا، فدعا ذلك الرئيس الإمامَ السلفي، وقال له: لماذا تركت الصلاة في مسجدك الذي أنت معين فيه وأذنت لمحمد تقي الدين الهلالي أن يصلي عوضًا عنك؟ فقال: لأن المسجد بعيد من بيتي، وليس لي سيارة. فاتخذ الرئيس ذلك سببًا لعزله، وهو المقصود بإثارة تلك الفتنة، فعزله وولى ذلك الفقيه المنحرف.

واتفق أن إمام المسجد الكبير توفي في تلك الأيام، وكان مسالمًا لنا لا يُظهر شيئًا من الشرك، بل نحن نظن أنه كان موحدًا حقًّا وصدقًا فوُلِّيَ شخص مبتدع معلن للشرك، ولاه ذلك الرئيس الإمامة في المسجد الكبير، فلما شرع الإمامان إمام الجامع الكبير وإمام المسجد الجديد يؤمان الناس؛ قام نفر لا يزيدون على خمسة من الشباب السلفيين في وجه إمام الجامع الكبير، وقالوا له: أنت مشرك لا تصح الصلاة خلفك. وصلوا وحدهم جماعة ثانية وهو يؤم المصلين في وقت واحد، وفعلوا مثل ذلك في المسجد الجديد، فظن الرئيس أن هذه فرصة عظيمة للقضاء على دعوتنا وحرك رؤوس الفتنة من الفقهاء والطرقيين، ومن غريب المصادفات أن عامل الإقليم كان قد ولي العمالة جديدًا ولم يكن يعرف أحوال المدينة فذهب إليه خلق كثير بتحريض من ذلك الرئيس يؤمهم الفقهاء المنحرفون الطرقيون، وقالوا له: إن جماعة الهلالي أثاروا فتنة عظيمة في المساجد، وصار الناس يصلون جماعتين في وقت واحد، ووقع نزاع ومشاجرة في كل مسجد بسبب هؤلاء مع أنهم وهابيون خارجون عن مذاهب أهل السنة.

فأخذ العامل التليفون وكلم معالي وزير الأوقاف الأستاذ الحاج أحمد برقاش بارك الله فيه وأدام توفيقه للخيرات، فأخبره بشكوى المبتدعين فقال له: نحن نعرف محمدًا تقي الدين الهلالي، فدع عنك هذه المسألة فسأتولى التحقيق فيها أنا بنفسي، وكنت مسافرًا في فاس؛ فلما رجعت علمت أن معالي الوزير فتح التليفون ليكلمني فلم يجدني، فقال لمن كان ممسكًا للتليفون: قل له يتوجه إلى الرباط للاجتماع بي. فتوجهت إليه وكان عنده شيء من الشك في صحة ما نسب أولئك المبتدعون لجماعتنا، فأوعز إلى نائبه في الشؤون الدينية الأستاذ الفاضل السيد عبدالرحمن

الدكالي أن يتحدث معي في تلك القضية، فقال لي الأستاذ الدكالي في فاتحة الحديث: سافرت إلى الهند، فما زرت جامعة ولا محفلًا علميًا إلا وجدت الناس هناك يلهجون بالثناء عليك، وكثير منهم أخبروني أنهم تلامذتك ففرحت بذلك كثيرًا، ولما رجعت أخبرت سيدنا المنصور بالله يعني جلالة الملك الحسن الثاني، وأخبرت معالي الوزير ونحن نفتخر بك. يضاف إلى ذلك أن والدي العلامة الكبير الشيخ شعيبًا الدكالي هو أول من دعا إلى السلفية في المغرب، فأنا من المؤيدين لدعوتك المعجبين بها، ولكن ينبغي الاعتدال وترك التشدد الذي يثير الفتن. فقلت له: ماذا تعني بهذا؟ فأخبرني بمكالمة العامل مع الوزير، وإخباره بما زعمه المبتدعون، فقلت له: إن ما ذكروه غير صحيح، خمسة من تلامذة المدارس من الشباب عارضوا الإمامين مرة واحدة، ولما جاء اليوم الذي ألقي فيه الدرس في الجامع الأعظم تكلمت في درسي وبينت أن ما فعله أولئك النفر من الشباب خطأ عظيم واستنكرته أشد الاستنكار، وصرحت بأن تولية الأئمة هي لصاحب الجلالة لا ينازعه فيها أحد، وقد أناب صاحبُ الجلالة الملك المعظم صاحبَ المعالي الأستاذ الحاج أحمد برقاش وزير عموم الأوقاف، فالواجب على الناس جميعًا أن لا يتعرضوا لإمام من أئمة المساجد الرسميين ولا ينازعوه لأن ذلك عصيان لأمر صاحب الجلالة، وتدخل في الشؤون المنوطة بمعالي وزير الأوقاف، وليست تولية الأئمة راجعة إلى شهوة المصلين، ولو كان الأمر كذلك ما صحت تولية إمام قط؛ لأن المصلين لا يكادون يتفقون على إمام واحد. وحين كنت أبين هذا كان الإمام نفسه يسمع ومئات من الناس كانوا حاضرين، وهؤلاء المبتدعون إنما ظنوها فرصة مواتية فاغتنموها.

وأخبرني رفيقي أن سعادة الكولونيل عبدالرحمن الدكالي لما سمع هذا البيان تهلل وجهه فذهب إلى معالي الوزير وأنبأه بما قلت له فدعاني الوزير وعانقني وقال لي: معاذ الله أن نظن بك ما نسبوا إليك. وتحدثنا مليًا في طبع كتاب التمهيد الذي أمر به صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني- أجزل الله مثوبته وخلد في الصالحين ذكره وأطال عمره:- ليضيف إلى هذه الحسنة حسنات أخرى.

وبعد ما رجعت إلى مكناس علمت أن معالي الوزير الأستاذ الحاج أحمد برقاش كلم العامل في التليفون وأخبره بأنه أجرى تحقيقًا دقيقًا في القضية فوجد ما قاله أولئك الوشاة كذبًا وبهتانًا، وقال له: أرجو من فضلك أن لا تتسرع مرة أخرى في مثل هذه الأمور. فباء أعداء التوحيد والسنة بخيبة وخسران مبين.

المكيدة الثالثة

قبيل توجهي إلى المدينة للانخراط في سلك المدرسين في الجامعة الإسلامية أراد رؤساء الشرك والبدعة أن يجعلوا خاتمة وعظي في الجامع الكبير سيئة؛ ليبنوا عليها ما تسوّل لهم أنفسهم من الفرى، وكنت أدرس فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -رحمة الله عليه- ولم أترك تدريسه قط منذ حللت مكناس إلى أن توجهت إلى المدينة أختمه ثم أبدؤه من جديد، وبينما أنا أقرر تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٠-١٠٢] فبينت في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أن كل من دعا إلى عبادة القبور وتعظيمها ببناء القباب عليها والذبح والنذر لها، والطواف بها وسؤال قضاء الحاجات وتفريج الكربات من المقبورين فيها وأقام لها المواسم والأعياد، فهو من هؤلاء المجرمين الذين ذكرهم الله تعالى؛ فقام رجل من دعاة الشرك والبدعة، فرفع صوته وقال: حتى صاحب الجلالة من المجرمين؟! فبادرت بالجواب وقلت له: أنت المجرم وصاحب الجلالة بريء مما تريد أن تلصقه به من عبادة القبور، وهو أعلم بالله وأتقى وأجل أن يعبد القبور، فقد كذبت عليه وجاوزت الحد في الوقاحة؛ إذ تنسب هذا الإمام العظيم ملك العلماء وأعلم الملوك إلى عبادة القبور التي لا يرضى بها إلا شرار الجهال أمثالك.

فارتفعت أصوات من الجالسين وكان عددهم نحو سبعمائة: أنت المجرم، أنت المجرم، وأرادوا أن يضربوه، فقام العالم المصلح السلفي الحكيم الحاج محمد بن عبود ونصح لهم أن لا يضربوه؛ لأنهم إذا ضربوه يمكنونه من مراده في إثارة الفتنة وادعاء أن درس التوحيد يفضي إلى المشاجرة والتقاتل فيجب منعه، وأصاب هذا الناعق رعب شديد فأراد أن يخرج من المسجد فخاف أن يضرب خارجه، ولم يستطع البقاء بين الجالسين لكثرة إنكارهم عليه فما وجد سبيلًا إلا أن التجأ إلى

الصعود إلى المنارة.

ومع هذه الهزيمة التي وقعت للمشركين طمعوا أن يتخذوها ذريعة لمنع دروس التوحيد، واتفق أن الرؤساء من الحكام كانوا غائبين عن مدينة مكناس؛ لأنهم ذهبوا ليستقبلوا جلالة الملك الحسن الثاني عند رجوعه إلى عاصمة ملكه من زيارة الجزائر، ولم يوجد إلا نائب من نواب المتصرف، فالتجأوا إليه وطلبوا منه أن يمنع دروس التوحيد، فانتظر إلى قرب أذان المغرب الذي بعده يكون الدرس، فبعث إليّ شيخين من شيوخ الحارات راكبين على سيارة العمالة، فدخلا عليّ وقالا لي: إن سعادة العامل – يعنون الأمير- يقول لك: اترك التدريس في الجامع الكبير إلى أن ينظر في القضية التي حصلت البارحة. وقال لنا: قولوا له يجبكم بنعم أو لا. فقلت لهم: أنا لا أعارض أمر العامل، وامتنعت من التدريس في المساء ففرح المشركون فرحًا عظيمًا وظنوا أنهم أدركوا وطرهم وقضوا على الموحدين المتبعين للرسول قضاءً مبرمًا، ولكن اللهَ العلي العظيم الذي نصرنا في المرة الأولى والثانية نصرنا في هذه أيضًا نصرًا مؤزرًا من فضله ورحمته لا باستحقاق لأننا مقصرون في طاعته.

بعد يوم واحد رجع العامل ورجع النائب الأول للمتصرف، ومتصرف مكناس هو الحسيب النسيب صاحب السعادة مولاي سلامة بن زيدان العلوي، وما رأينا منه إلا البر والإكرام، حاشا له أن ينضم إلى من يحارب سنة جده المصطفى، وعند ذلك ذهبت يصحبني جماعة من إخواننا إلى العامل، فقلت له بعد التحية: إن أحد نواب المتصرف بعث إلي شيخين من شيوخ الحارات في سيارة من سيارات العمالة يقول: إن العامل يأمرك بالامتناع عن إلقاء دروس التوحيد في الجامع الكبير. فقال لي: أنا كنت مسافرًا، ولم يصدر مني أي شيء مما زعم، وقد قدر هؤلاء المحاربون للسنة أن يكذبوا عليَّ ويوهموني صدق مفترياتهم فيما مضى، ولن يستطيعوا أن يروجوا عليّ مكرهم مرة أخرى؛ فأنا لا أتعرض لدروسك أبدًا؛ فاستمر فيها على بركة الله. وقال النائب الأول لسعادة متصرف المدينة مثل ذلك.

وقد قام العالم السلفي السيد محمد بن عبدالله العلوي القاضي بجهود مشكورة في ذلك اليوم أيضًا، فسُقط في أيدي أولئك المفسدين، وانهزموا شر هزيمة، فاستمررت في الدرس كل مساء إلى أن سافرت إلى المدينة، وقرت بذلك أعين أهل التوحيد والاتباع، وخسر هنالك أهل الشرك والابتداع ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

المدرسة الحسنية

لم يزل أولئك المفسدون ينقلون الوشايات إلى جلالة الملك المعظم الحسن الثاني أيده الله وأدام توفيقه وتسديده، فلم يستطيعوا أن يؤثروا فيه لحكمته وتثبته، وبلغني، والعهدة على الراوي أنه حين أكثروا عليه حضر الدرس متنكرًا؛ فعلم أن دروسي إنما هي دعوة لاتباع الكتاب والسنة وتحذير من الشرك والبدعة اللذين هما سبب كل شقاء أصاب المسلمين، فلم أر من هذا الملك الرشيد إلا الخير.

وقبل بضع سنين ألهم الله جلالة الملك الحسن الثاني أن يبني مكرمة طالما غفل عنها الملوك السابقون، وهي من المزايا التي خصه الله بها، والله يختص بفضله من يشاء، ألا وهي تأسيس دار الحديث الحسنية، ولما نشر خبر هذه الفكرة امتلأت قلوبنا سرورًا؛ لأن علم الحديث أُهمل منذ عصور طويلة إلى أن اندرس ولم يبق له وجود لا من الوجهة العلمية، ولا من الوجهة العملية، وصار الوعَّاظ وخطباء الجماعات يملؤون حديثهم بالموضوعات، ولا يميزون خبرًا صحيحًا من خبر ضعيف أو موضوع، ومن المعلوم أن علم الحديث هو مفتاح علوم الدين كلِّها لأنه لا تعرف معاني القرآن الذي هو حجة الله على خلقه إلا بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وخفنا أن لا تخرج هذه الفكرة إلى حيز العمل، ولكن أبا محمد الحسن الثاني -أيده الله- من أهل العزم الذين إذا قالوا فعلوا، وإذا فعلوا أجادوا، فخرجت هذه الفكرة إلى حيز العمل، وأنشئت دار الحديث الحسنية، ولم أُدع إلى التدريس فيها إلا بعد مضي شهرين من إنشائها بسبب وشاية أولئك الوشاة، ثم دعاني وزير الأوقاف الأستاذ أحمد برقاش إلى مكتبه بالوزارة، وتلقاني بغاية الحفاوة، وقال لي: إن سيدنا المنصور بالله أسس هذه المدينة، وإننا نرجو أن يكون لها مستقبل عظيم، فينبغي أن تشارك في هذا العمل المبرور. فقلت له: منذ ظهرت فكرة إنشاء هذه الدار وقبل أن تُحقق وتخرج إلى حيز الوجود كنت أول المرحبين بها المستبشرين بظهورها، ونشرت في ذلك مقالًا طويلًا في مجلة «دعوة الحق» التي تصدرها وزارتكم نظمًا ونثرًا. فقال لي: لم أطلع عليه، فقال له الأستاذ

الحاج عبدالرحمن الدكالي: بلى يا صاحب المعالي نُشر هذا المقال في المجلة منذ زمان، فأعطاني معالي الوزير أهم الدروس التي تلقى في دار الحديث وهو تفسير القرآن وكتاب الموطأ في الحديث للإمام مالك -رحمه الله-.

فبدأت في إلقاء الدروس أحضر دروس القرآن والحديث ثم ألقيها على الطلبة، وكان عددهم في أول الأمر ثلاثين طالبًا، ففرح الطلبة بتلك الدروس وأقبلوا عليها إلا أربعة كانوا طرقيين تجانيين، فإنهم كرهوا دروسي وأخذوا يشاغبون ويكثرون من الأسئلة التعنتية، وأنا أدفعهم بالتي هي أحسن.

وكان عندي أربعة دروس في كل أسبوع فكنت أتوجه إلى الرباط لألقاء دروسي في جامعة محمد الخامس -رحمه الله- وأنتهي منها قبل الزوال، وكان الوقت المحدد للدرسين اللذين كنت ألقيهما في دار الحديث الحسنية أحدهما قبل صلاة العصر والثاني بعدها وكنا في رمضان، فكنت أرجع إلى مكناس بعد الفراغ من الدرس الثاني فيدركني المغرب في الطريق فأفطر على التمر والماء، وكنت أتلقى تلك المشقة بصدر رحيب بل بفرح وسرور لما كنت أرجو من أجرها وثوابها وانتفاع الطلبة بها، ولكن مشاغبة أولئك المفسدين كانت تسوءني وخصوصًا في رمضان الذي يجب فيه على كل مسلم أن لا ينطق إلا بالكلم الطيب، فقلت في نفسي: عل شر هذه الدروس أكثر من خيرها.

وفي ذات يوم كنت أفسر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فبينت أن كل من دعا غير الله أو استغاث به لجلب نفع أو دفع ضر فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يُغفر، فضج التجانيون وقالوا: كفرت أسلافنا!! فقلت: إن كان أسلافكم يدعون إلى الشرك بالله فأبعدهم الله وأخرجت أحدهم من الدروس.

ولم يكن معالي الوزير موجودًا في الرباط، بل كان مسافرًا، وعميد الكلية كان متصوفًا خرافيًا يزعم أن الأولياء إذا وصلوا إلى درجة الفناء تسقط عنهم التكاليف ويُباح لهم ارتكاب الكبائر كلها، فصممت على ترك التدريس وكتبت استقالتي إلى معالي الوزير، وأعترف أن ذلك كان تسرُّعًا مني، وكان ينبغي لي أن أنتظر أوبته، ولكن المقدر كائن، وعذري في ذلك أني أردت أن أصون صيامي من اللغو عملًا بقول من قال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَوُّنٌ ... وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ

فَحَظِّي إِذًا مِنْ صَوْمِيَ الْجُوعُ وَالظَّمَا ... وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي صُمْتُ يَوْمًا فَمَا صُمْتُ

وقال آخر:

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ تَصُومُهُ   حَتَّى تَكُونَ تَصُومُهُ وَتَصُونُهُ

فلما رجع معالي الوزير، تأسف على ذلك، وقبل استقالتي، وكانت مدة تدريسي في دار الحديث الحسنية شهرين ونصفًا.

وهذه هي القصيدة التي قلتها في الترحيب بفكرة دار الحديث الحسنية:

بِدَارِ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى حَقَّتِ الْبُشْرَى   فَأَشْرَقَتِ الآفَاقُ وَامْتَلأَتْ بِشْرَا

فِي الْفِكْرَةِ الْحُسْنَى بِهَا الْحُسْنُ ارْتَقَى   إِلَى ذُرْوَةِ الإِحْسَانِ وَهُوَ بِهَا أَحْرَى

فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ أَلْهَمَ عَبْدَهُ   لِذَا الْعَمَلِ الْمَحْمُودِ وَالنِّعْمَةِ الْكُبْرَى

وَصِيَّةَ خَيْرِ الْخَلْقِ طُرًّا وَعَهْدَهُ   إِلَى أُمَّةِ الْقُرآنِ يَا سَعْدَ مَنْ بَرَّا

عَلَى حِينِ عَمَّ الْجَهْلُ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ   وَلَا سِيَّمَا بِالذِّكْرِ وَالسُّنَّةِ الْغَرَّا

وَشَاعَ ابْتِدَاعٌ فَاتِكٌ فِي رُبُوعِهِمْ   فَأَظْلَمَتِ الأَرْجَاءُ وَامْتَلأَتْ نُكْرَا

وَسَادَ رُءُوس الْجَهْلِ وَاشْتَدَّ كَيْدُهُمْ   وَقَدْ أَضْمَرُوا لِلأُمَّةِ الْمَكْرَ وَالْغَدْرَا

مَضَوا يَسْلُبُونَ الْمَالَ وَالْعَقْلَ وَالْهُدَى   وَيَسْتَعْبِدُونَ النَّاسَ بِالْحِيَلِ الْحُقْرَا

فَأَطْلَعَهَا نُورًا يُضِيءُ حَنَادِسًا[1]   مِنَ الْجَهْلِ ذَاقَ النَّاسُ مِن طَعْمِهَا الْمُرَّا

وَأَحْيَا مِنَ الآمَالِ مَا كَانَ مَيِّتًا   فَأَصْبَحَ ثَغْرُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُفْتَرَا

وَمَنْ يُحِي سُنَّاتِ الرَّسُولِ وَهَدْيَهُ   يُهَيِّئْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِن أَمْرِهِ يُسْرَا

وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا وَيَرْفَعْ ذِكْرَهُ   وَيُبْلِغْهُ آمَالًا وَيَشْرَحْ لَهُ الصَّدْرَا

وَمَنْ رَامَ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يَكِيدَهُ   بِبَغْيٍ فَإِنَّ اللهَ يَمْنَحُهُ النَّصْرَا

وَمَنْ يَنْصُرِ الرَّحْمَنَ يَنْصُرْهُ عَاجِلًا   وَيَنْصُرْهُ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي النَّشْأَةِ الأُخْرَى

وَمَنْ يَقْرَأِ الْقُرآنَ مِنْ غَيْرِ سُنَّةٍ   يَضِلُّ وَيَلْقَى فِي عَوَاقِبِهِ خُسْرَا

فَتَفْسِيرُ قَوْلِ اللهِ هَدْيُ رَسُولِهِ   وَذَلِكَ فِي الْقُرآنِ مُتَّضِحٌ يُقْرَا

---

(١) مفردها: حندس وهو الظلمة، والليل الشديد الظلمة.

فَيَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْهُمَامُ الَّذِي سَرَتْ ... بِأَخْبَارِهِ الرُّكْبَانُ تَنْشُرُهَا نَشْرَا

وَمَا زَالَ بِالأَفْعَالِ يَشْفَعُ قَوْلَهُ ... فَتَبْنِي لَهُ بَيْنَ الْوَرَى الْمَجْدَ وَالْفَخْرَا

جَزَاكَ إِلَهُ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... عَلَى دَارِ عِلْمٍ شِدَّتْهَا لِلْهُدَى فَجْرَا

إِلَيْكَ أَسُوقُ الْيَوْمَ نَظْمًا مُلَفَّقًا ... وَكَانَ بِوِدِّي أَنْ أَنْظِمَهُ دُرَّا

وَلَكِنْ هَجَرْتُ الشِّعْرَ دَهْرًا فَأُوصِدَتْ ... عَلَيَّ قَوَافِيهِ وَكَافَأْنِي هُجْرَا

فَقَابِلْهُ بِالصَّفْحِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَأَسْدِلْ عَلَيْهِ جَمِيلَ الرِّضَى سِتْرَا

❁ ✧ ❁

الرجوع إلى المدينة المنورة

قد عرف القراء سبب خروجي من هذه المدينة المباركة فيما مضى؛ ولما أراد الله بفضله ورحمته أن يردني إليها، ألهم صاحب السماحة العالم السلفي ناصر السنة وقامع البدعة الورع الزاهد الأواب الأستاذ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رئيس الجامعة الإسلامية أن يدعوني إلى التدريس في الجامعة الإسلامية، وعندما لقيته بمنى سنة ١٣٨٨هـ قال لي: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فقلت له: وأنا في حاجة إليها أيضًا. فقال لي بأي طريق ندعوك إلى التدريس فيها؟ فأخبرته، فدعاني دعوة رسمية بطريق وزارة الخارجية السعودية، فالسفارة السعودية بالمغرب فوزارة التعليم العالي بالرباط، وأتيت إلى هذا البلد المبارك وأنا أسأل الله متوسلًا إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعل إقامتي فيه طبق ما يجب على كل ساكن فيه مراعاة حرمته والبعد عن ارتكاب أي حدث يتنافى مع قدسيته.

وهذه القصيدة المكناسية تعبر عما تقدم بالأسلوب الشعري، وقد حذفت عشرة من أبياتها إبقاء على بعض الناس على أنني لم أصرح فيها باسم أحد لا في المحذوف ولا في المثبت وبالله التوفيق:

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَالْجَوَى مَالِئٌ صَدْرِي ... وَبَـرَّحَ بِـي شَـوْقٌ إِلَى رَبَّـةِ الْخِـدْرِ

وَأَقْضِي نَهَارِي دَائِمَ الْفِكْرِ وَالأَسَى ... وَلَيْلِيَ تَسْهَـادٌ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْـرِ

وَأَكْتُـمُ أَسْـرَارِي حَـذَارًا مِـنَ الْعِـدَا ... وَمَهْمَا أَبُحْ فَالْحُبُّ أَفْقَدَنِي صَبْرِي

تَـذَكَّـرْتُ أَيَّـامَ الْوِصَـال فَـكَـادَ مِـنْ ... تَـذَكُّـرِهَا قَـلْبِي يَـطِيْـرُ مِـنَ الـصَّـدْرِ

فَيَا وَيْحَ قَلْبِي مَا يُلَاقِي مِنَ الْهَوَى ... وَمِـنْ فَـرْطِ آلامِ الـصَّـبَـابَـةِ وَالـهَـجْـرِ

وَعَـاذِلَةٍ جَـاءَتْ بِـلَوْمٍ كَـأَنَّـهُ ... نُـعَـابُ غُـرَابٍ لِلْفُـؤَادِ غَـدَا يَـبْـرِي

وَلَسْـتُ بِسَـالٍ لَوْ أَطَـلْتُ مَـلَامَـتِي ... فَكُفِّي عَنِ الإِسْفَافِ وَالْمَنْطِقِ الْهُجْرِ

وَكَيْفَ سُلُوِّي بَعْدَمَا شَابَ مَفْرِقِي ... وَأَنْفَقْتُ فِي حُبِّي لَهَا زَهْرَةَ الْعُمْرِ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الْمَلامَ وَإِنْ غَدَا   عَدِيمًا مِنَ الْجَدْوَى فَبِالْحُبِّ قَدْ يُغْرِي

وَطُفْتُ بِلادَ اللهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا   عَلَى قَدَمِي طَوْرًا وَطَوْرًا عَلَى مُهْرِ

وَأَنْضَيْتُ بُعْرانًا(١) وَحَلَّقْتُ فِي السَّمَا   عَلَى جَائِبَاتِ الْجَوِّ كَالنَّجْمِ إِذْ يَسْرِي

وَطَوْرًا عَلَى فُلْكٍ عَظِيمٍ كَأَنَّهُ   ثَبِيرٌ(٢) يَرُوعُ الْحُوتَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ

حَلِيفَ اغْتِرَابٍ فِي ثُوَاءٍ وَرِحْلَةٍ   وَإِنْ كُنتُ فِي أَهْلٍ كَثِيرٍ ذَوِي وَفْرِ

(وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ مِنْ شُقَّةِ النَّوَى   وَلَكِنَّهَا) فِي الدِّينِ وَالْخَلْقِ وَالْبِرِّ

إِلَى اللهِ أَشْكُو غُرْبَةَ الدِّينِ وَالْهُدَى   وَطُغْيَانَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْغَدْرِ

وَمَنْ يَقْلُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ   يُعَذَّبُ فِي الدنيا وَفِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ

وَيَسْأَلُهُ فِيهِ نَكِيرٌ وَمُنْكَرٌ   وَمَا مِنْ جَوَابٍ عِنْدَهُ غَيْرُ لَا أَدْرِي

وَذِي سُنَّةِ الْجَبَّارِ فِي كُلِّ مَنْ غَدَا   يُحَارِبُ دِينَ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ   وَمَوْقِعُ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي دَارَةِ الْخُسْرِ

وَكَمْ قَدْ سَعَى سَاعٍ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ   بِكَيْدٍ فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُ فِي النَّحْرِ

وَتَنْصُرُ إِشْرَاكًا وَفِسْقًا وَبِدْعَةً   وَنَاصِرُ هَذَا خَاسِرٌ أَبَدَ الدَّهْرِ

دَعَا الْمُصْطَفَى قِدْمًا عَلَيْهِ بِلَعْنَةٍ   وَمَنْ يَلْعَنِ الْمُخْتَارُ فَهْوَ إِلَى شَرِّ

وَتَلْعَنُهُ الأَمْلَاكُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةٍ   كَذَلِكَ أَهْلُ الأَرْضِ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ

فَيَا نَاطِحَ الطَّوْدِ الْمَتِينِ بِهَامَةٍ   مُدَوَّرَةٍ جَوْفًا حَذَارِ مِنَ الْكَسْرِ

وَلَيْسَ يَحِيقُ الْمَكْرُ إِلَّا بِأَهْلِهِ   وَحَافِرُ بِئْرِ الْغَدْرِ يَسْقُطُ فِي الْبِئْرِ

وَكَمْ حَافِرٍ لَحْدًا لِيَدْفِنَ غَيْرَهُ   عَلَى نَفْسِهِ قَدْ جَرَّ فِي ذَلِكَ الْحَفْرِ

وَكَمْ مُشْرِكٍ طَاغٍ تَرَدَّى بِشِرْكِهِ   وَسَادِنِ قَبْرٍ بَاءَ بِالْخِزْيِ وَالْخُسْرِ

---

(١) مفردها: بعير، وأنضيت: أهزلت، الكلام كناية عن طول السفر.

(٢) ثبير: جبل بمكة.

وَكَمْ رَائِشٍ سَهْمًا لِيَصْطَادَ غَيْرَهُ ... أُصِيبَ بِذَاكَ السَّهْمِ فِي ثُغْرَةِ النَّحْرِ
وقُبَّرَةٍ أَضْحَى لَهَا الْجَوُّ خَالِيًا ... مِنَ النَّسْرِ وَالْعُقْبَانِ وَالْبَازِ وَالصَّقْرِ
فَلَا تَفْرَحِي يَوْمًا سَيَأْتِيكِ صَائِدٌ ... وَيَسْقِيكِ كَأْسَ الْحَتْفِ كَالصَّابِ[1] وَالصَّبْرِ
(فَإِنْ كُنتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... وَإِنْ كُنتَ تَدْرِي) زِدْتَ وِزْرًا عَلَى وِزْرِ
وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ كَالسَّاقِطِ الْقَذْرِ
فَيَا عَجَبًا حَتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي ... كَأَنَّ أَبَاهَا مِنْ لُؤَيٍّ وَمِنْ فِهْرِ
أَتَغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... عَدِمْتُكَ إِهْمَالًا وَذَا دَيْدَنُ الْغَمْرِ
وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَادِمُونَ لِسُنَّةٍ ... أَتَتْ عَنِ نَبِيِّ اللهِ ذِي الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
وَخَادِمُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ حَيَاتَهُ ... كَخَادِمِهَا مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ فِي الْقَبْرِ
وَمَا غَابَ إِلَّا شَخْصُهُ عَنِ عُيُونِنَا ... وَأَنْوَارُهُ تَبْقَى إِلَى الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ
فَيَا مُبْغِضِي هَذِي النَّبِيِّ أَلَا ابْشِرُوا ... بِخِزْيٍ عَلَى خِزْيٍ وَقَهْرٍ عَلَى قَهْرِ
سَلَكْتُمْ سَبِيلًا قَدْ قَفَاهَا إِمَامُكُمْ ... أَبُو جَهْلٍ الْمَقْصُومُ فِي مُلْتَقَى بَدْرِ
وَعَاقِبَةُ الْمَتْبُوعِ حَتْمٌ لِتَابِعٍ ... كَمَا لَزِمَ الإِحْرَاقُ لِلْقَابِضِ الْجَمْرِ
فَإِنْ أَنْتُمُ كَذَّبْتُمُ بِوَعِيدِهِ ... فَكَمْ كَذَّبَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمُ الْكُفْرِ
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ سَوْطَ نِقْمَةٍ ... فَصَارُوا أَحَادِيثَ الْمُقِيمِينَ وَالسَّفْرِ
(فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى ... عَلَيْهِمْ) إِلَيْكَ الأَمْرُ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
قَلَوْا سُنَّةَ الْمُخْتَارِ يَبْغُونَ مَحْوَهَا ... وَكَادُوا لَهَا فَاجْعَلْ لَهُمْ كَيْدَهُمْ يَفْرِي
هُمْ اسْتَضْعَفُونَا الْيَوْمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنَا ... قَلِيلٌ وَقَدْ يَعْلُوا الْقَلِيلُ عَلَى الْكُثْرِ
وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ لِلهِ قَائِمٌ ... وَأَعْدَاؤُهُ لِلْبَغْيِ مِنْ جَهْلِهَا تَجْرِي
وَإِدْرَاكُ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ مُحَقَّقٌ ... لِمَنْ يَقْتَدِي بِالْمُصْطَفَى مِنْ ذَوِي الْحِجْرِ

---

(١) الصَّاب: شجر مر.

وَمَـنْ ظَـنَّ أَنَّ الـلـهَ مُـخْـلِفُ وَعْـدِهِ ... وَخَـاذِلُ أَنْـصَـارِ الـنَّـبِيِّ بِـذَا الْـعَـصْـرِ

فَـذَاكَ غَـلِـيظُ الـطَّـبْعِ أَرْعَـنُ جَـاهِـلٌ ... عَرِيضُ الْقَفَا بَيْنَ الْوَرَى مُظْلِمُ الْفِكْرِ

تَـكَـفَّـلَ بِـالـنَّـصْـرِ الْعَـلِيُّ لِحِـزْبِـهِ ... حَـيَاتُهُمْ هَـذِي وَفِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

فَفِي غَـافِرٍ قَـدْ جَـاءَ ذَلِكَ وَاضِـحًا ... وَلَكِـنَّهُ يَـخْـفَـى عَلَى الْفَدْمِ وَالْغَـمْرِ

سَـلَامٌ عَـلَى أَنْـصَـارِ سُـنَّـةِ أَحْـمَـدَ ... فَـهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي كُلِّ مَا دَهْرِ

إِلَيْـهِمْ أَجُوبُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ قَاصِدًا ... فَرُؤْيَتُهُمْ تَشْفِي السَّقِيْمَ مِنَ الضُّرِّ

هُمُ حَفِظُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَنَاضَلُوا ... عَنِ الْحَقِّ بِالْبُرْهَانِ وَالْبِيضِ وَالسُّمْرِ

هُمُ خَلَّفُوا الْمُخْتَارَ فِي نَشْرِ سُنَّةٍ ... بِـفِـعْـلٍ وَأَقْـوَالٍ تَـلَأْلَأُ كَـالـدُّرِّ

هُمُ جَرَّدُوا التَّوْحِيدَ مِنْ كُلِّ نَزْغَةٍ ... مِنَ الشِّرْكِ وَالإِلْحَادِ وَالزَّيْغِ وَالنُّكْرِ

فَلَا قُبَّةٌ تُبْنَى عَلَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... وَلَمْ يَعْبُدُوا قَبْرًا بِذَبْحٍ وَلَا نَذْرِ

وَلَا بِطَوَافٍ أَوْ بِتَقْبِيلِ تُرْبَةٍ ... فَذَلِكَ فِعْلُ الْمُشْرِكِينَ ذَوِي الْكُفْرِ

وَلَا رَحَلُوا يَوْمًا لِغَيْرِ ثَلَاثَةٍ ... مَسَاجِدَ خُصَّتْ بِالْفَضَائِلِ وَالأَجْرِ

وَلَمْ يَسْتَغِيثُوا فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... بِغَيْرِ إِلَهِ النَّاسِ ذِي الْخَلْقِ وَالأَمْرِ

وَلَمْ يَصِفُوا الرَّحْمَنَ إِلَّا بِمَا أَتَى ... بِنَصِّ كِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الزُّهْرِ

يُقِرُّونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا ... كَمَا فَعَلَ الْمُخْتَارُ مَعَ صَحْبِهِ الْغُرِّ

فَلَوْ كَانَ فِي التَّأْوِيلِ خَيْرٌ لَبَادَرُوا ... بِهِ فَهُمُ الْفُرْسَانُ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ

(أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا مَا) اجْتَمَعْنَا فِي الْمَجَالِسِ لِلْفَخْرِ

وَقَدْ أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ قَبْلُ دِينَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنْ زَيْدٍ لِزَيْدٍ وَلَا عَمْرِو

بِمَائِدَةٍ قَدْ جَاءَ بِالنَّصِّ خَتْمُهُ ... وَإِتْمَامُ إِنْعَامٍ يَجِلُّ عَنِ الْحَصْرِ

وَكَمْ زَائِدٍ فِي الدِّينِ أَصْبَحَ نَاقِصًا ... يُبَدِّلُ دِينَ اللهِ بِالْحَدْسِ وَالْحِزْرِ

وَمَنْ ظَنَّ تَقْلِيدَ الأَئِمَّةِ مُنْجِيًا ... فَأَفْتَى بِتَقْلِيدٍ فَيَا لَهُ مِنْ غُرِّ

كَمُنْتَحِلٍ عُذْرًا لِيَغْفِرَ ذَنْبَهُ ... أَضَافَ لَهُ جُرْمًا تَجَدَّدَ بِالْعُذْرِ

أَلَا إِنَّمَا التَّقْلِيدُ جَهْلٌ وَظُلْمَةٌ ... وَطَالِبُهُ خِلْوٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخُبْرِ
كَطَالِبِ وِرْدٍ بَعْدَ مَا شَفَّهُ الظَّمَا ... جَرَى خَلْفَ آلٍ لَاحَ فِي مَهْمَةٍ قَفْرِ
فَإِنْ قُمْتَ بِالإِفْتَاءِ أَوْ كُنْتَ قَاضِيًا ... فَإِيَّاكَ وَالتَّقْلِيدَ فَهْوَ الَّذِي يَزْرِى
وَجَرِّدْ سُيُوفًا مِنْ بَرَاهِينَ قَدْ سَمَتْ ... عَنِ الْحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ وَالسُّخْفِ وَالْهَتْرِ
وَطَرْفَكَ سَرِّحْ فِي الْكِتَابِ فَإِنَّهُ ... رِيَاضٌ حَوَتْ مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الزَّهْرِ
وَمِنْ بَعْدِهِ فَاعْلَقْ بِسُنَّةِ أَحْمَدَ ... فَأَنْوَارُهَا تَسْمُو عَلَى الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
وَلَا تَحْكُمَنْ بِالرَّأْيِ إِلَّا ضَرُورَةً ... كَمَا حَلَّتْ الْمَيْتَاتُ أَكْلًا لِمُضْطَرِّ
وَمَهْمَا بَدَا أَنَّ الْقَضَاءَ عَلَى خَطَأ ... أُقِيمَ فَبَادِرْ لِلرُّجُوعِ عَلَى الْفَوْرِ
وَمَنْ يَقْضِ بِالتَّقْلِيدِ فَهْوَ عَلَى شَفَا ... كَعَشْوَا[1] غَدَتْ فِي كَافِرٍ حَالِكٍ تَسْرِي
وَمَنْ يُفْتِ بِالتَّقْلِيدِ فَهْوَ قَدِ افْتَرَى ... وَفِي النَّحْلِ نَصٌّ جَاءَ فِي غَايَةِ الزَّجْرِ
لَعَمْرُكَ مَا التَّقْلِيدُ لِلْجَهْلِ شَافِيًا ... وَأَمَّا نُصُوصُ الْوَحْيِ فَهْيَ الَّتِي تُبْرِي
وَصَلِّ وَسَلِّمْ يَا إِلَهِي عَلَى النَّبِي ... صَلَاةً تَدُومُ الدَّهْرَ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
فَدُونَكَهَا بِكْرًا عَرُوبًا خَرِيدَةً ... مُهَفْهَفَةً غِيدًا عَرُوسًا مِنَ الشِّعْرِ
يُضِيءُ ظَلَامَ اللَّيْلِ نُورُ جَمَالِهَا ... وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْقِرَاءَةُ مِنْ مَهْرِ
قَصَدْتُ بِهَا نُصْرًا لِسُنَّةِ أَحْمَدَ ... وَنَاصِرُهَا لَا شَكَّ يَظْفَرُ بِالنَّصْرِ
وَعُدَّتُهَا تِسْعُونَ مِنْ بَعْدِ خَمْسَةٍ ... وَأَخْتُمُهَا بِالْحَمْدِ للهِ وَالشُّكْرِ

هذا مما حضرني من الحوادث المتعلقة بالدعوة إلى الله والاشتغال بالعلم، أمليته مما بقي عالقًا بذاكرتي بعد مضي عشرات السنين، وتركت كثيرًا من الحوادث التي لا تمت إلى الغرض المقصود بصلة، وأسأل الله حسن الخاتمة إنه جواد كريم، وصلّ اللهم على محمد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى

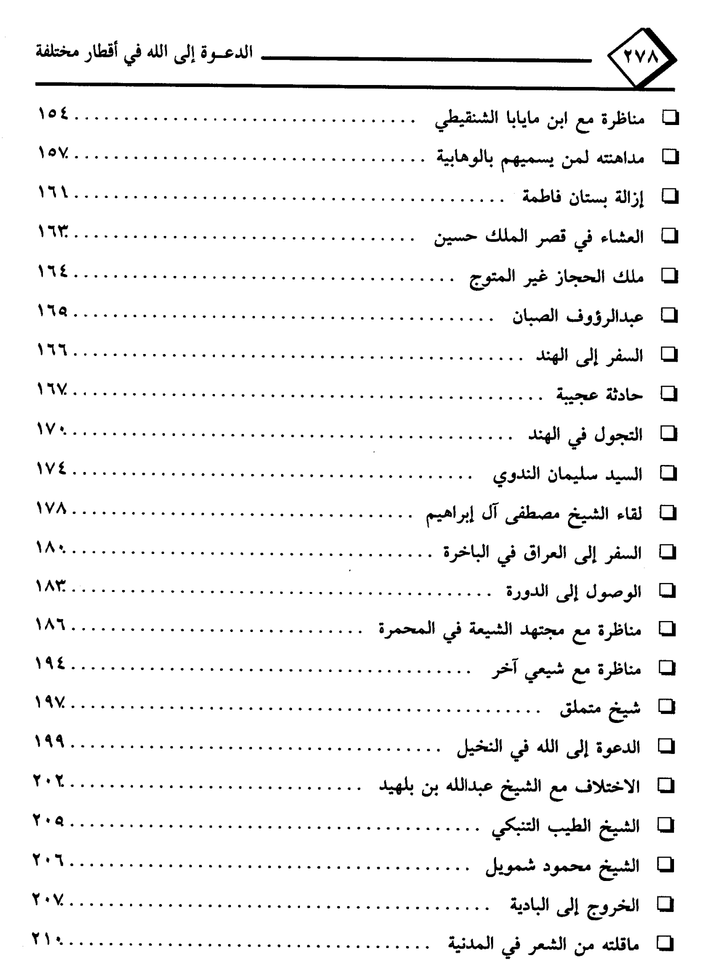
(١) العشواء: الناقة التي بعينيها سوء إذا خبطت بيدها. يقال هو يَخْبط خبطَ عشواء. والكافر المذكور في البيت هو الليل.

التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وعلينا معهم بمنك يا أكرم الأكرمين.
وكان الفراغ من إملائه مساء يوم السبت بمنزلي بالمدينة النبوية لاثنتي عشرة خَلَوْن من ربيع الثاني سنة ١٣٩١ من هجرة النبي الأكرم ﷺ والحمد لله رب العالمين.



الفهرس





تم الصف والإخراج بمكتب ألفا للصف والتحقيق والإخراج الفني
٥٨ ش صلاح الدين ناصف - الهرم - الجيزة - جمهورية مصر العربية
ت: ٠٠٢٠٢٣٨٨٨٥٩٣ - ٠٠٢٠١٠١٠٩٩٨٠٥